سعيد الأفغاني

ابن حزم الأندلسي

دراسة

في المفَاضَلة بيْنَ الصّحابة

((كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين))

(ابن العريف)

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (*) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (*) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (*) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (*) إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (*) اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (*) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالِّينَ} [الفاتحة: ١/١-٧]

{وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً} [الإسراء: ١٧/٢٤]

اللهم صلِّ وسلّم على سيدنا محمد، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين، وسائر من أحييته على الحق فجاهد في سبيله ومات عليه.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مُقَدّمة

وجدتني مندفعاً إلى دراسة الإمام ابن حزم، بدافع من القلب والعقل، أنا بتأثيره بين الحب له والإعجاب به، وكل من قرأ تراث ابن حزم بإمعان، أكبر فيه العقل الواسع والفكر الخصب والغور البعيد والعبقرية العجيبة. وليس أحد يدرس حياته إلا غمره التقديس لمجاهد رفع من شأن الحرية الفكرية، وذهب بها كل مذهب، فعاش من أجلها شريداً ومات في سبيلها مجاهداً شهيداً.

واتخذها طول حياته ديناً له ينافح عنه ويلاقي في سبيله من الأذى والعنت والتشريد ما يهيض الجبال الرواسي وينوء بعضه بالعصبة أولي القوة.

وسترى في الصورة التي نحن عارضوها عليك بعد كلمتنا هذه، أن ابن حزم صبر وصابر، وجاهد وجالد، واستمرت مسيرته على استساغة الأذى في جانب الله، فاستهان بالعدوان ووقف دمه وماله وجاهه على الجهر بما يرى أنه الحق، فضرب بالوزارة وجاهها عُرض الحائط، وأقبل على الله يعزز كلمته وينصر دعوته. يتعرض للشقاء في ذات الله تعرضاً، وهو الذي درج في بيت الغنى العريض والجاه العظيم، وشب في أحضان الوزارة، وتقلب في أعطاف النعيم. يجد في هذا التعرض لذته وسعادته، ويجبه الجماهير والسلاطين بكل صادعة مزعزعة، فيستحلي ما يقابلونه به من الصد والإعراض والسجن والإبعاد.

ولو لم يكن في ابن حزم إلا أنه حر الفكر، قوال بالحق، جبّاه به، حتى ألب عليه الجن والإنس، لكفى بذلك حافزاً لمثلي على حبه وإكباره ودراسة حياته ونشر فضله والمساهمة في تخليد اسمه.

ولا أكتمك أسفي على أن أحداً حتى الآن لم يعن بهذا الإمام العظيم الذي ملأ المشرقين علماً وأدباً، وشغل التاريخ بأمره وأمر حركته، وكان ملء سمع زمانه وبصره. ومن الخسران العظيم ألا يكون في مكتبتنا العربية سيرة لابن حزم تُصوِّر فيها حياته ونفسه الصورة الصحيحة، بحيث يشعر قارئها بأنه عايش الرجل وصاحبه من نشأته حتى مماته، وأدرك أموره

ظواهرها وبواطنها، ووقف على سر عظمته حتى ما يخفى عليه منها شيء... على غرار ما يعنى الغربيون بمفكريهم العظام الأحرار. فلما وطدت العزم على نشر رسالته (في المفاضلة بين الصحابة[1])، وانتهيت من مقابلتها وضبطها والتعليق عليها، انتدبت لسد تلك الثغرة، فدرست حياته الحافلة، بما وسعه جهدي وبلغته طاقتي على ضعفي وقلة بضاعتي.

هذا وإن يكن في حياة الذين انتشلهم العلم من البؤس والضيق إلى المقامات العلى شيء من العجب، ففي حياة الذي طوَّح بالمقامات العلى وبالغنى والنعيم والترف إلى الضيق والتشريد من أجل العلم والحق، العجب كله. وهذا لعمري هو الحري بالإعجاب الحقيق بالتقديس.

أسأل الله أن ينفع بسيرته ذوي الهمم الفاترة، والعزائم الخائرة، ممن يدّعون نصرة الحق يعلمونها، ويسرون أن يبيعوا الحق وأهله بعَرَض من الدنيا قليل.

ومن الله أستمد المعونة والتوفيق والسداد.

دمشق

غزة رمضان سنة ١٣٥٠هـ

١٩٣٩/١٠/٤م

سعيد الأفغاني

(١) سيأتي الكلام عليها في موضعه بين يدي الرسالة.

القسم الأول

حياة ابن حزم

أ- عصره

ب- أصله ونشأته وشبابه

جـ- طلبه وعلمه ومصنفاته

د- مذهبه

هـ- أدبه

و- حبه

ز- أخلاقه

حـ- مزاجه

ط- هو والناس

ي- وفاته.

حياة ابن حزم

آخر رمضان سنة ٣٨٤ – ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦هـ

٧ تشرين الأول سنة ٩٩٤ – ١٥ آب سنة ١٠٦٤م

أ- عصره (٣٥٠ – ٤٧٠هـ)

ابن حزم من أينع الثمرات التي انشق عنها فردوسنا المفقود (الأندلس) فهو من أعلام الدين، والشعر والأدب، والسياسة والتاريخ والفلسفة، وممن ولي الوزارة هو وأبوه، وممن تعرّض للنكبات والإبعاد... وذلك كله يحتم علينا قبل البدء بالترجمة له، أن نلم – في إيجاز – بمجمل الحالة السياسية والفكرية في القرن الذي شهد آثار عبقريته المعجزة، ونعني بذلك الفترة بين سنتي (٣٥٠ – ٤٧٠ هـ).

توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة (٣٥٠هـ) بعد أن تمتع العرب بالأندلس في حكمه، بأيام تزري بأيام الرشيد في بغداد؛فقد قضى على الاضطرابات السائدة لأول حكمه، وأدّب الخارجين عليه، وقهر أعداءه الطامعين به وأرهب الإسبان، وضمن للناس رخاءً وأمناً ما سمح الزمان بمثلهما، ووطد ملكاً على أساس متينة. ساعده على هذا عقل راجح، ودهاء واسع، ووطنية مخلصة ورجولة كاملة، مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة، فاجتمعت الأندلس عليه، ونعمت في عهده وازدهرت. ورفع للعلم صرحاً باذخاً، فأغدق العطايا على العلماء، وأوسع لهم مجالسه وفتح خزائنه.

وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين سنة نسيت فيها ما أصابها من شدائد. ولم يؤخذ عليه طول أيامه إلا تقريبه الموالي تقريباً أضعف العصبية العربية فيما بعد. ولا يبعد عن ذهنك أن الذي عجل خراب الأندلس فريقان: (الإسبان) العدو الخارجي ثم البرابرة والصقالبة وهم الجراثيم الداخلية التي فعلت في الجزيرة ما فعل الموالي من الفرس والأتراك في خلافة العباسيين ببغداد.

تربع على عرش الخلافة بعد الناصر ابنه الحكم وهو أعلم الأمويين وأحكمهم على الإطلاق، فسار بسيرة أبيه، فغزا الجلالقة الذين طمعوا في الثغور، وانتفض عليه بعض الحكام

الإسبان فحاربهم، وعقدوا معه المعاهدات، ثم تفرغ لتنشيط الحركة العلمية وكان قد بـــدأ ازدهارها في عهد أبيه الناصر، فاجتمع لـــه من العلماء وكُتب العلم ما لم يجتمع لغيره قـــط. وجميل بنا أن نروي لك مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه قال:

"إن عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية، التي فيها تسمية الكتـــب، أربـــع وأربعـــون فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[1]" وقال المقرّي:

"جمع من الكتب مالا يوصف كثرةً ونفاسة، حتى قيل: إنها أربع مئة ألف مجلد، وإنهم لمـــا نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها... (وإنه) قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا ولـــه فيه قـــراءة أو نظر، في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن ".

ولم تطل مع الأسف مدة حكمه أكثر من ست عشرة سنة، كان فيها بعد أبيه كالمـــأمون بعد الرشيد، بل إن هذا الذي ذكره المقّري من قراءته الآلاف المؤلفة من المجلدات وتعليقـــــه عليها وخبرته بتواريخ أصحابها وفنونها شيء لم نسمع مثله لمخلوق آخر لا خليفة ولا عالم.

توفي الحكم سنة (٣٦٦هـــ) وبوفاته انقضى العهد الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضـــى والاضطراب والتغلب، وتمزيق الكلمة، وطمعِ الأعداء، ولم تقم بعده للأمويين قائمة. ولئـــن ولي الأمر بعده خلفاء من أُمية، فإن هذه الولاية لم تكن إلا اسماً لا رسم لـــه.

وانفسح الأمر للوزراء والحجاب[1] المتغلبين فمثلوا في الجزيرة أدوار الأفشين وبغـــا وآل بويه مع الخلفاء ببغداد.

ولي الأمر بعد الحكم ابنه هشام المؤيد وكان عمره عشرة أعوام وأشهراً، فـــأخذ شـــأن الخلافة بالضؤول، وتسنى لابن أبي عامر أن يقضي على حقيقتها ويبقى اسمها، فنشأت بذلك دولة بني عامر، وإليك البيان:

كان المنصور بن أبي عامر هذا وكيلاً للسيدة صبح أُم هشام على عهد الحكم، ينظـــر في أموالها وضياعها، فسعت لدى الحكم حتى ولاه القضاء، وبدت لـــه فيه كفاية واسعة. فلمـــا ولي هشام على حداثته تسلم المنصور الحجابة، وقبض على ناصية الأمور واستبد بها، ورســـم

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٤، ١٨٥

(١) وظيفة الحاجب في الأندلس تشبه وظيفة رئيس الوزراء لعهدنا، فهو الواسطة بين الوزراء والخليفة.

لنفسه خطة للقضاء على كل من يمكن أن ينازعه الأمر يوماً من الأيام. وأُفضل أن أُطلعك على شرح المقرّي لخطة المنصور، فإنه خير من يعينك على فهم الحالة السياسية حينئذ، وما يحف بها من مكائد وتقلبات، ثم يوضح لك سبب النكبات التي حلّت بابن حزم، فجعلته يهيم بين السجون والمنافي ناجياً بنفسه من بلد إلى بلد كما سيمر بك. قال المقرّي:

".. ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض... ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم، وحطّهم عن مراتبهم، وقتل بعضاً ببعض، كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه، حتى استأصلهم وفرق جموعهم. وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصور وكانوا ثمان مئة أو يزيدون. ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصيح له، واستعان به على المصحفي فنكبه، ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد صاحب المسيلة، وقائد الشيعة ممدوح بن هانئ... ثم قتل جعفراً بمالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة من زناتة والبربر فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء... فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة... وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم. فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك... وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ومحا رسم الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتبِ اسمه في السّكَة... وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستاً وخمسين غزوة لم تنكّس له فيها راية ولا فلَّ له جيش.[1]"

بقي الأمر مستمسكاً على عهد الحاجب المنصور، لأنه كان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً وهيبة في القلوب. دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة، ثم خلفه ولده عبد الملك، وتلقب بالمظفر، فسار في الحجابة سيرة أبيه في الجملة سبعة أعوام ثم توفي سنة ٣٩٨هـ، فخلفه أخوه عبد الرحمن، وتقلب بالناصر، وحاول أن يزيد من سلطانه فحمل الخليفة المستضعف

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٥

هشاماً المؤيد على العهد لـــه بالخلافة بعده، فثارت لذلك ثائرة الأمويين وسائر المضريـــين، لأن السلطة الفعلية التي مارسها الحاجب المنصور – وهو يمني – كانت قـــذى في عيـــون المضريين كافة، وسكتوا على مضض حتى طفح الكيل.

وكان عبد الرحمن دون أبيه وأخيه كفاية وأكثر أطماعاً، وزاد الأمـــر تســـلط الـــبرابرة والصقالبة، مما أغضب المضرية واليمنية جميعاً، وكانت فتنةٌ خلع فيها المؤيد وسجن، ورجـــع عبد الرحمن الحاجب من غزوه ليتلافى الأمر فانفض عنه أنصاره وثار به جنده، وقتل ســـنة ٣٩٩هـــ، وانتهى بذلك أمر الدولة العامرية.

بايع الناس لمحمد بن هاشم بن عبد الجبار، وتلقب بالمهدي، وبدأ يشدد الوطـــأة علـــى البرابرة فثاروا به، فأزعجهم عن قرطبة، ثم هاجموا المدينة فخلعوه ففر، وبايعوا بعده ســـليمان بن الحكم بن الناصر وتلقب بالمستعين سنة ٤٠٠هـــ فلم يفجأ الناس إلا المهدي مستجيشـــاً بملك قسطيلة الإسباني، فاسترد ملكه وحارب البربر فانهزم فقتلوه، وأعادوا هشـــاماً المؤيـــد ثانية سنة ٤٠٣هـــ، وبدأت المهازل تترى بين المتقاتلين على الإمارة، يستعين كـــل منـــهم بعدوه وعدو بلاده على أخيه وابن عمه... ثم قتل هشام وأُعيد المستعين، ونهـــض خـــيران العامري يكاتب الأدارسة، ويحرض الناس على خلع المستعين، حتى جاء علي بـــن حمـــود العلوي من الأدارسة وملك قرطبة سنة ٤٠٧هـــ وقتل المستعين، فانقرضت دولة الأمويـــين وبدأت دولة العلويين. أوجس خيران العامري خيفة من ابن حمود فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في خروجه منهم، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ولقبوه بالمرتضى ســـنة ٤٠٨هـــ، وتغـــير المرتضى على خيران، وكانت بينهما أحداث انتهت ببيعة عبد الرحمن بن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر سنة ٤١٤هـــ. وتعاقب المستضعفون من أُمية والأمر بينهم وبين العلويـــين دول، حتى بويع هشام بن محمد المعتدّ بالله سنة ٤١٨هـــ فاضطربت ولايـــات الأندلـــس، وهبَّ أُمية بن عبد الرحمن بن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة، حتى سئم الناس الأمويين ونادى أهل قرطبة بالسواق والأرباض بالوقيعة في الأمويين حـــتى لا يبقى منهم أحد، فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد وختم ملكهم سنة ٤٢٢هـــ.

انقرضت الخلافة الأموية، واستقل كل وال بولايته، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الأندلس: فاستبد ابن جهور[1] في قرطبة وابن عباد في إشبيلية، وبقي الأمر هكذا مشتتاً لا نظام له، والفتن بين الملوك الصغار لا تهدأ ثائرتها، حتى ملك الأندلس رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ملك الملثمين في بر العُدْوة.

هذا هو عهد احتضار الدولة الأموية وانقضاء أيامها، العهد المضطرب المخيف الذي شهده عالمنا ابن حزم، مررت بأهم أحداثه مراً سريعاً، لتبقى في ذهن القارئ حين يمر بحياة ابن حزم المشردة. وليعظم هذه العبقرية التي نجمت في عهد الاضطراب الإعظام اللائق بها. ولا يحسبن أحد أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفاً من العيش أو ضيقاً في أساليب الحياة، بل إن الأمر على العكس، لقد رتعوا في بحبوحة من عيش رغد ورخاء دائم، ونعيم مقيم، وعلوم زاخرة، وحياة فكرية خصبة لولا ما شابها أحياناً من ممالأة المتسلطين للعوام في تتبع كتب الفلاسفة والمشتغلين بها، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف واللذائذ والبذخ[1] ما أظن أنا نتمتع بمثلها لهذا العهد. والمؤرخون مجمعون على أن الدول تنقرض وهي أكثر ما تكون تنعماً وخيراً وحضارة وسعة. ولعلك تذكر أن البربر محوا الدولة الرومانية و(رومةُ) ترفل بأسبغ حلل الحضارة والترف والنعيم، وأن الدولة البيزنطية انقرضت على أيدي العثمانيين الخشنين حين بلغت علومها وآدابها ونظمها وبذخها الغاية التي ما بعدها غاية، وأن التتار قضوا على الدولة العباسية، وحضارةُ بغداد يومئذ في الذروة، فما كان ضيق الفكر وقلةُ العلم وبساطة العيش نذيرَ الانحلال في يوم من الأيام، إنما نذير الانحلال هو الانحطاط الخلقي الناشئ عن بسطة العيش والانغماس في حظوظ النفس، ثم التفكك الاجتماعي الملحوظ في تفرق الأمة وتمزق كلمتها، وخروج بعضها على بعض، واستعانة بعضها على بعض بالأعداء... سنة الله في عباده، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ولست أغفل هنا الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية سيطرت على الأندلس كما سيطرت في المشرق؛ عنيت بها اتخاذ الدين وسيلة إلى الدنيا وذريعة إلى الغض من الخصوم، فقد كان السلاطين لا يعفّون عن إثارة الناس على من يحقدون عليه، كما كان بعض العلماء أسرع

---

(١) كان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور هذا رئيسَ الجماعة بقرطبة؛ فلما خلت من بني أمية نهض بمقاليد الأمور خير نهوض، فاستتب الأمن، وعمرت قرطبة، وسار في الناس سيرة الصالحين: يعود المرضى ويشهد الجنائز، وأشرك في أمره اثنين ليكون شورى، واستشعر الناس في عهده شيئاً من الطمأنينة إلى أن مات سنة ٤٣٥هـ، فقام بالأمر بعده ولده محمد بن جهور وطالت مدته، ثم ضاق به أهل قرطبة فخلعوه سنة ٤٦١هـ، ولم يكن ابنه عبد الملك الذي ولي الأمر بعده بأسعد حظاً، إنه أساء السيرة فأُخرج من قرطبة. ثم استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٨٤هـ.

(١) سيمر بك بعض ذلك بتصوير ابن حزم نفسه لمجتمعه.

استجابة إلى تهييج الجماهير على من يخالف لهم مذهباً، أو ينافسهم في جاه، أو ينتزع منهم سلطة، أو من يخشى إقبال الناس عليه لمواهبه وفضله وكفايته. ولا أُطيل في هذا لأن حياة ابن حزم كلّها خير شاهد ومثل لما قررت، وستأتيك على جليتها.

ب- أصله ونشأته وشبابه

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد. ويزيدُ هذا الذي إليه ينتهي نسبه كان مولى ليزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أُمية أخي معاوية، والذي كان القائدَ لجيش الأردن أيام الفتح لعهد عمر بن الخطاب. جده الأعلى (يزيد) فارسيٌّ أسلم (وكان نصرانياً[1]) نسبته للأمويين نسبة موالاة. وأول من دخل الأندلس من آبائه هو خلف، وقد استوطنوا قرية (منت ليشم) أو (متُلْجِتَمْ) في إقليم (الزاوية) من عمل (أَوْنَبَة) من كورة (لبْلة)[2]، على نصف فرسخ من مصب الأوديل غربي الأندلس على البحر. ثم سكن آباؤه قرطبة.

ولد بقرطبة بالجانب الشرقي من ربض منية المغيرة بعد صلاة الصبح، وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤هـ (٧ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ٩٩٤م)، بهذا كتب ابن حزم بخطه إلى القاضي صاعد[1] بن أحمد الأندلسي صاحب طبقات الأمم المتوفى سنة ٤٦٢هـ. وأُسرته كما قال الفتح بن خاقان: "بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب" ولي الوزارة منهم غير واحد ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً. وكان أبوه أحمد بن سعيد من عظماء الوزراء، ولي الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر ثم لابنه المظفر من بعده. وهو — على رأي ياقوت- الذي بنى لبني حزم مجدهم وذكرهم. ومن الطريف أن ننقل لك شك ياقوت في نسبتهم الفارسية وهو يرويه — على ما أُرجح — عن كتاب مفقود لصاعد اسمه (أخبار الحكماء) في جملة قول لابن حيان قال:

---

(١) المعلمة الإسلامية

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: "لبْلة قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية. وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام وأربعة وأربعون فرسخاً، وبينها وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً. وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزرع والشجر، ولأدمها فضل على غيره، ولها مدن. وتعرف لبلة بالحمراء. وهي مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وهي على نهر طنتس وبها عين الشب وعين الزاج. ومن لبلة يجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين. ينسب إليها جماعة منهم.. إلخ"

(١) وجميع من ترجم لابن حزم عيال على صاعد في تعيين تاريخ ولادته وفي كثير من أخباره، وأكثرهم — ومنهم ياقوت — ينقل عبارته بنصها. ولم يشذ إلا ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب) إذ نقل عن صاعد أن ميلاده سنة ٣٨٣، وظاهر أن هذا سهو من الناسخ أو الناشر؛ لأن كتاب صاعد نفسه وبقية المصادر الناقلة عنه أجمعت على أن ميلاده سنة ٣٨٤ كما ذكرت أعلاه. وذلك يتفق وقول ياقوت نفسه بأنه مات عن اثنين وسبعين سنة.

"وكان من غرائبه انتماؤه في فارس، واتباع أهل بيته لـــه في ذلك، بعد حقبة من الدهـــر تمولى فيها أبوه الوزير، المعقل في زمانه، الراجح في ميزانه أحمد بن سعيد بن حزم، لبني أُميـــة أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس خامل الأبوّة، مولّد الأرومة، مـن عجم لبلة، جده الأدنى حديث الإسلام لم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه أحمد على الحقيقة هـــو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية، وعمده بالخلال الفاضلـــة مـــن الرجاحـــة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي. فاغتدى جرثومة سلف لمن نماهم، أغنتهم عن الرسوخ في أول السابقة. فما من شرف إلا مسوق عن خارجيته، ولم يكن إلا: كلا ولا، حتى تخطـــى عليٌّ هذا (صاحب الترجمة) رابية لبلة فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس؛ فالله أعلم كيف ترقاها، إذا لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة، بل وصله بها وسع علـــم، وشـــجته رحـــم معقوقة، بلّها بمستأخر الصلة رحمه الله."

توفي أبوه كما يروي المقرّي عن ابن حيان بذي القعدة سنة اثنتين وأربـــع مئـــة وكـــان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية، (من أقاليم أكشونية بالأندلس) بعد أن ساءت حالـــه وتتابعت عليه المحن والنكبات والتغريم في آخر سنيه، ولا يبعد أن يكون مات قهراً بعد ذلـك العز الشامخ.

***

في هذا البيت نشأ ابن حزم، نشأة المترفين المنعمين، تحيط به العناية من كـــل صـــوب، (يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير[1]) ويتقلب في أعطاف النعيم، غير مكلـــف بعمل حتى مات أبوه سنة ٤٠٢هـــ. ولقد ترك لنا رحمه الله معلومات قيمة عن نشأته هـــذه في كتابه (طوق الحمامة)، فقد عرفنا منه شيئاً من صفة داره وسعتها وكثرة أهل بيته، قال في معرض الكلام على جارية عرفها في صباه: "فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع لـــه في دور الرؤساء، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله، من النساء ونساء فتياننـــا ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخف موضعه ويلطف محله، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلـن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبـــة وفحوصـــها (مساكنها) مفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب.. الخ[2]" وهـــذه فقـــرات

(١) كلمة صاعد فيه.

(٢) ص ١٠٨ طبع (دمشق ١٣٤٩هـ) وعن هذه الطبعة جميع النقول التي ستمر بك.

نقتطفها من وصفه خراب دوره ومنها نعلم ما كانت عليه من الأنس والعمران (... بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية... تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها... طالما زهدت في تركها وتذكرت أيامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم... بعد ما علمته من حسنها وغضارتها، والمراتب المحكمة التي نشأت فيما لديها، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها... إلخ[1]) وكانت نعمة والد المترجم – على ما يظهر – فاشية، وغناه مستفيضاً فكانت له دور محدثة ودور قديمة: "ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث، واليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ[2]".

هذه هي القصور التي درج فيها ابن حزم، أما نشأته الأولى فهي غريبة حقاً ولعلها هي السر في نبوغه وعبقريته، بل إليها يرجع الأثر الأكبر في تخريجه على تلك الصورة الفذة التي لم يشبهه فيها أحد من أعلام الإسلام، لا في الشرق ولا في الغرب على مدى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة، ذلك أنه نشأ في حجور العالمات المربيات من أهل بيته. ولابن حزم نفسه نحن مدينون بالشيء الكثير في أخبار طفولته وبقية حياته قال:

"ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري: لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقّل وجهي. وهن علمنني القرآن وروّينني كثيراً من الأشعار، ودربنني في الخط. ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً، إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن [1]."

وأنعم بها من نشأة يقظة، إليها الفضل في أن نتمتع بالأدب السامي الرفيع وبأحاديث الحب الرقيقة العميقة، وبذلك الطبع السمح الظريف الذي لا يعهد من إمام جليل وعالم كبير وصاحب مذهب في الدين مجتهد منافح عنه، بل العهد في رجال الدين:

---

(١) ص ٩١

(٢) ص ١١٠

(١) المصدر السابق ص ٤٦

جدٌّ صارم، ومعيشة شاقة، وبعد بعيد عن كل ذلك العالم الذي طار فيه ابن حزم ونَـــهَل منه وعلّ، فلا يذهبن عنك سر نشأته في (تكييف) عبقريته.

مات والد ابن حزم وكان المترجم (أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنة ســـــتاً وعشرين سنة)[1] وزر للمرتضى صاحب بلنسية وحارب في جيشه بغرناطة، ووقع بـــأيدي أعدائه سنة ٤٠٣ بعد وفاة أبيه بسنة، ثم لما قامت خلافة عبد الرحمن المستظهر في رمضـــان سنة ٤١٤ وكان صديقاً لابن حزم، وسَّد إليه الوزارة فأقام فيها أشهراً حتى مقتـــل عبـــد الرحمن في ذي الحجة من السنة نفسها. وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتد بين سنتي ٤١٨ – ٤٢٢ وهنا تنتهي حياته الوزارية[2] ويطلق المناصب إلى غير مارجعة.

ولنعرض الآن لما أصابه في هذه الفترة من نكبات وتشريد: عرفت أن ابن حزم مولى بـــني أُمية وأنه وزر هو وأبوه لخلفائهم وأنه كان يتشيع للأمويين ((ماضيهم وباقيـــهم، ويعتقـــد بصحة إمامتهم حتى نسب إلى النصب))[1] ويتعصب لهم ويشيد بمفـــاخرهم، وربمـــا نـــال خصومهم من قريش في بعض المناسبات كقوله عرضاً في مقطوعة غزلية (طوق الحمامـــة ص ٢٧):

ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد

وعرفت أن عصره تداول حكم قرطبة فيه الأمويون والعلويون (الطالبيون) وابن جـــهور، وكان للبرابرة والصقالبة سطوة يمارسونها في الفترات، فاعرف أيضاً أن ابن حزم أُصيـــب (أو تحلى – كما تحب –) بصراحة متناهية، وصلابة قوية، وصدع بالحق، كل ذلك يصدم بـــه الناس غير مبال بالعواقب ولا مستعملٍ فيه شيئاً مما نسميه سياسة ومداراة.

وأنت خبير بأن صاحب هذه الأمزجة مضطر إلى مجابهة حروب يشـــنها عليـــه الراعـــي والرعية، والعلماء والزمان من كل صوب، فقدّر بنفسك الشدة التي عانى غمراتها وصلـــــي بوقداتها ابن حزم.

---

(١) ياقوت

(٢) في الأعلام للزركلي أنه: (كانت لـــه ولأبيه من قبله رياسة الوزارة) ومما مر بك تعلم أنه لم ينل رياسة الوزارة (التي هي الحجابة باصطلاح ذاك العصر في الأندلس) لا هو ولا أبوه وإنما هي وزارة فقط. على هذا أجمعت كل المصادر التي أطلعنا عليها و لم ندر علام اعتمد الأستاذ خير الدين الزركلي في نقله هذا.

(١) كلمة ابن حيان: تذكرة الحفاظ. والناصبة طائفة تبغض علياً رضي الله عنه.

تنكر الزمان لوالد ابن حزم بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد سنة ٤٠٠ فانكمش هو وابنه ثم مات سنة ٤٠٢هـ، فلما كانت فتن البرابرة وتخريبهم غادر قرطبة سنة ٤٠٤ وهي غارقة في الفتن – وقد أخرب البرابرة قصور آل حزم الجميلة في بلاط مغيث – قاصداً المرية وأقام بها. فلما كاتب خيران العامري علي ابن حمود الذي حضر إلى قرطبة وملكها وقتل سليمان المستعين الأموي، أوجس خيران من ابن حزم لتشيعه لبني أُمية، واتهمه بالقيام بدعوتهم؛ فسعى حتى اعتقله عند نفسه أشهراً ثم غرّبه إلى حصن القصر هو وصديقه محمد بن إسحاق، وكان من حظهما أن أكرم صاحب الحصن مثواهما. فلما بلغهما المناداة بعبد الرحمن ابن محمد سنة ٤٠٨ في بلنسية ركبا إليها بحراً وحمدا فيها الإقامة، ووزر ابن حزم للمرتضى، ثم كان ما مر بك من قتل المرتضى. عاد ابن حزم إلى قرطبة بعد غياب ست سنوات (٤٠٩هـ) ولبث حتى كانت خلافة المستظهر ووزارة ابن حزم له أسابيع معدودة سنة ٤١٤هـ.. ثم كانت وزارته لهشام المعتد.

ونرى من الواجب علينا أن نستمع إلى مترجمنا يحدث عن رحيله ونكباته وآثارها في نفسه لتتم للقارئ الصورة التي نتوخاها له، قال:

"ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت (اشتدت) الفتنة وألقت باعها، وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام ٤٠٢هـ واتصلت بنا تلك الحال بعده.. ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة ٤٠٤هـ.. ثم دخلت قرطبة في شوال سنة ٤٠٩ فنزلت على بعض نسائنا[1].."

ويقول في موضع آخر (طوق الحمامة ص ١١٧): ((... إلى أن ألقت الفتنة جرانها، وأرخت عزاليها، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة، ونزولهم فيها... وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة. وسكني مدينة المرية... إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين، وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة، وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس، وفي إثر ذلك نكبني (خيران) صاحب المرية، إذ نقل إليه من لم

(١) طوق الحمامة ص ١١٠.

يتق الله عز وجل من الباغين – وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي – أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل، فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة. ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها... ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون...)) وقال واصفاً خراب دوره وفيه ترى نثره البديع الممتع.[1]

((وقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة – وقد استخبرته عنها – : أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، وقد امَّحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيّرها البلى، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائب متقطعة بعد الحسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى، تفيض لديهم النعم الفاشية، تبدّد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا، فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها، حين شملها الخراب وعمها الهدم، كأفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها، وتزهد في طلبها بعد أن طال ما زهدت في تركها...إلخ)).

وكثيراً ما ترى أمثال هذه الحسرة اللاذعة بين دفتي كتابه الجميل (طوق الحمامة) من أشباه قوله ص٧٨: ((ذكرت فيها (أي في قصيدة) ما مضّنا من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتحول في الآفاق)) وقوله ص ١٥٣ في خاتمة كتابه: ((فأنت تعلم أن ذهني متقلب، وبالي مهتم بما نحن فيه من نبوّ الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغيَّر الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب الجاه والملل، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار...)) وانظر ص ٧٦ تر فيها طرفاً من تنكُّر الأصحاب له بتنكر الزمان.

(١) المصدر السابق ص ٩١

لم ينعم ابن حزم بعد نشأته بطمأنينة الاستقرار، فضَرب في الأَرض مضطراً، لا يألف بلدة إلا نَبَتْ به ولحقه فيها أذى الخصوم والحكام فيهجرها إلى غيرها، وكيد أَعدائه ألزمُ لـــه من ظله. طوّف في المرية وشاطبة وبلنسية، وقصد ابن عباد بإشبيلية، وحل في جزيـــرة ميورقـــة فتواطأ عليه فقهاؤها فأخرجوه، وحل في القيروان ثم رجع إلى الأندلس. و لم يتح لـــــــه أن يرحل إلى المشرق، إذاً لأرانا إياه في ألوانه الزاهية بريشته البديعة المصورة، ولعرفنا رأي عـــالم كبير خصب القريحة في حضارة المشرق وعلومه وعلمائه.

ولكن الزمن أمكر من أن يغفل عن عبقري لحظة من اللحظات.

جـــ- طلبه وعلمه ومصنفاته

(ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق)

الفتح بن خاقان

أول طلبه

تقدم أَن أَول من لقن ابن حزم مبادئ العلوم والقرآن: نساء قصره، ثم أقام في الوزارة مـــن بعد بلوغه حتى صار له ست وعشرون سنة لم يكن له فيها طلب يذكر. وقد رووا عنـــه أن قال: "إنني بلغت إلى هذه السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات"[1].

ولنا أن نشكر كل الشكر المجتمع النقاد الذي عاش فيه ابن حزم، فإليه يرجع الفضـــل في توجيهه إلى طلب العلوم والانكباب عليها حتى كان لتاريخنا منه فصل ضاف قلما أتحفنا بمثله غيره.

أما السبب المباشر في انقطاعه إلى العلم فقد حدث به الوزير الإمام أبو محمد بن العـــربي قال: «أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقـه: أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفـــل فيـــه، فجلس و لم يركع، فقال له أستاذه (يعني الذي رباه) بإشارة: «أن قم فصل تحية المسجد» فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: «أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المســـجد واجبـــة؟» وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً. (قال): فقمت وركعت وفهمت إذن إشارة الأستاذ

(١) إرشاد الأريب. وفيه أن (أجبر) عند أهل الأندلس بمعنى (أقضي) عند أهل المشرق.

إليّ بذلك. (قال): فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت، دخلت المسجد فبادرت بالركوع، فقيل لي: (اجلس اجلس، ليس هذا وقت صلاة) فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت عليّ به نفسي وقلت للأستاذ: «دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله ابن دحون» فدلني، فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى فيه، وسألت الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس ﷺ فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة.

والمقري يحدد لنا التاريخ الذي بدأ فيه ابن حزم الطلب بقوله: «أول سماعه سنة ٣٩٩هـ» والذهبي جعله سنة (٤٠٠هـ) وقول المقري يقوي ابن بشكوال في الصلة (رقم ٤٠٨) إذ يذكر مع التاريخ أستاذه الذي قرأ عليه فيه فيقول: «وأول سماعه من ابن الجسور قبل الأربع مئة».

وهناك من يذكر سبباً ثانياً في طلبه الفقه، يرويه عن عمر بن واجب قال: «بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب، إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب، ثم سأل الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عليه فاعترض فيه، فقال له بعض الحضار: "هذا ليس من منتحلاتك". فقام وقعد ودخل منزله فعكف، ووكف منه وابل فما كفَّ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة قال فيها: "أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب"[1].

شيوخه وكبار تلاميذه

سمع ابن حزم من: أبي عمر أحمد بن الحسين الطلحنكي، ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة، ويوسف بن عبد الله القاضي، وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي، ومحمد بن سعيد بن سات، وعبد الله بن ربيع التميمي، وعبد الله بن محمد بن عثمان، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد، وعبد الله بن يوسف بن نامي.

وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون الذي مر ذكره آنفاً، وروى عن القاضي يونس بن عبد الله (انظر حديثه في ص ٨ من طوق الحمامة) وأبي عمر ابن الجسور، وأحمد بن محمد،

(١) تذكرة الحفاظ. وكف: سال قليلاً قليلاً.

وعلي بن سعيد العبدري من أهل جزيرة ميورقة وغيرهم وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي[1].

وذكروا من شيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبا الخيار، وعنه – على ما يظهر – أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماماً متفرداً، قال الضبي: «مسعود.. فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر، ذكره أبو محمد بن حزم وكان أحد شيوخه»[2].

وعين ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) ثلاثة من شيوخه مع الفنون التي قرأها عليهم، أولهم أبو سعيد الفتى الجعفري (ص٦٦): ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع بقرطبة، يروي شيخه الشرح عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس. فعلم من هذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة في المساجد بالأندلس، لا يتحرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثمون. وثانيهم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي (ص١١٧) وكان أُستاذه في القرآن والحديث والنحو واللغة. ومجلسه مقصود بالرصافة (ص٦٨).

وثالثهم والد صديقه أبي بكر المصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي (ص١١٨)، وكان قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي، طلب عليه الحديث.

وله غير هؤلاء شيوخ كثيرون، فقد أجمع المترجمون له أنه سمع سماعا كثيرا، وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر الشيوخ المحدثين بقرطبة[1]. ووصفوه بالاستكثار من علوم الشريعة والأدب، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء.

وقرأ عليه رهط جم، والذين أكثروا الرواية عنه جدا: تلميذه أبو عبد الله الحميدي وابنه الفضل أبو رفع، والإمام الوزير أبو محمد بن العربي. وهذا الأخير صحبه سبعة أعوام وقرأ عليه أكثر تصنيفاته، قال:

«صحبت الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته، حاشا المجلد الأخير من كتاب (الفصل) وهو يشتمل على ستة مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه فيكون الفائت نحو السدس[1]. وقرأنا من كتاب (الإيصال) أربعة مجلدات من كتاب الإمام

(١) إرشاد الأريب، وتذكرة الحفاظ، والصلة لابن بشكوال وطوق الحمامة (٥٢، ٥٣، ١٠٦، ١٢٢، ١٢٤) إلخ.
(٢) بغية الملتمس رقم ١٣٦١.
(١) طوق الحمامة ١١٨.
(١) المطبوع من هذا الكتاب خمسة أجزاء ولا يعرف لها سادس.

أبي محمد بن حزم سنة ٤٥٦ ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى ما ذكرته من الناقص، ومما لم أقرأه من كتاب (الإيصال).. وربما كان له شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجول فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه، ولي بجميع مصنفاته ومسموعاته إجازة منه مرات عديدة كثيرة، آخر ما كان بخط اليحكمي رحمه الله»[٢].

وممن سمع عليه أيضاً: علي بن سعيد البعدري المتقدم الذكر في شيوخه، فإنه لما حل ابن حزم جزيرة ميورقة أخذ عنه العبدري الفقه واتبع المذهب الظاهري، حتى إذا رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد ترك مذهب ابن حزم إلى المذهب الشافعي[٣].

ومنهم: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠هـ: وهو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس. نشأ بها وطلب العلم في البلاد الأندلسية، وأخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم ورحل إلى الشرق سنة ٤٧٦هـ وحج ولقي شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها. وله مؤلفات أعظمها (سراج الملوك)، وله كتاب البدع (وهذا الكتاب وكتاب البدع لابن وضاح: مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب الموافقات) وبين وفاته ووفاة ابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة ودفن في الإسكندرية[١].

هذا بعض ممن أقرأهم وممن قرأ عليهم لا على سبيل الاستقصاء[٢]. وحري بمن طلب العلم للعلم كابن حزم أن يستكثر من الشيوخ والطلب، ويجهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين العلماء، وإن نظرة فيما تحاور به هو وخصمه الباجي من كبار علماء الأندلس، كافية في أن تقفنا على عزيمته ونيته في طلب العلم، وإذن لا نستغرب ما اغترف منه، ولا نستكثر عليه أن يحوز ما حاز:

دخل الباجي وابن حزم في مناظرة، فقال له الباجي: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت في السوق» فكان من جواب عالمنا المهذب الدقيق قوله:

---

(٢) إرشاد الأريب.

(٣) التكملة لابن الأبار، رقم ١٤٦٧.

(١) عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة العدد ٣٣٤).

(٢) انظر بعض ذكرياته عن أيام الطلب ص ٦٦، ٦٧، ١١٧، ١١٨ من (طوق الحمامة).

«هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلاَّ علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة»[1] فأفحمه وحق له ذلك.

وقال له مرة بعد انقضاء مناظرة بينهما: «تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة!» أراد (أن الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر)[2].

وهكذا لم يحظ ابن حزم بنصيبه الأوفى من العلم حتى انصرف إليه بكل عزائمه وأخلص له، ولم يخلط به مأرباً آخر قط. حتى إذا تمت له أدواته فيه تفرغ لنشره بين الناس فنفع الله به من شاء من خلقه في حياته، ومن لا يحصيهم إلاَّ هو بعد مماته. وما أصدق كلمة ابن حزم في نفسه:

مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل باد وحاضر

دعاء إلى القرآن والسنن التي تأسى رجال ذكرها في المحاضر[3]

كذلك كان رحمه الله.

علمه

انصرف ابن حزم إلى الطلب وأقبل على دراسة العلوم الشائعة لعصره من المنقول والمعقول، حتى أربى فيها على الغاية، فحفظ القرآن والسنن والآثار، وطالع التاريخ والأخبار وكتب الفلسفة. وقد متّع بحافظة نادرة المثال حتى قال اليسع بن حزم الغافقي: «أما محفوظ أبي محمد فبحر عجاج وماء ثجاج... لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل دين..»[1].

وكان – على ما قال الذهبي – إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر. وشهد الغزالي بأن كتابه (في أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه. برز على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات وكان – على حد قول صاعد – أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة

(١) المقري ١: ٣٥٨.
(٢) إرشاد لأريب.
(٣) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ رقم الترجمة (٨٨٨).
(١) تذكرة الحفاظ، العجاج: المتلاطم، الثجاج: الغزير الدفاق.

والشعر ومعرفته بالسنن والآثار. وقال الحميدي: «كان أبو محمد حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين».

ولأبي مروان بن حيان: «كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة». وقال الذهبي: «ابن حزم رجل من العلماء الكبار، فيه أدوات الاجتهاد كاملة»[1] تمثل ابن حزم كل هذه العلوم التي درسها وصار له في كل منها رأي واجتهاد، وترك في أكثرها تواليف جمة ضخمة تدل على ثروته الواسعة فيها وتمكنه القوي من ناصيتها، وكان له – إلى ذلك – طبع حاد وصراحة متناهية ومعارضة قوية لمخالفيه، حتى تبرم به الفقهاء والسلاطين فطاردوه بأنواع المقاومة من سجن وتشريد وإحراق كتب ونهي الناس عن سماعه حتى صار في الأندلس أحق من المتنبي بالكلمة المشهورة: «مالئ الدنيا وشاغل الناس». لقد ملأ ابن حزم المغرب كله بكتبه وردوده وأدبه وجدله ومذهبه، وشغل أهله طرفاً صالحاً من حياته وأحقاباً طوالاً بعد مماته حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة، وبحق ما قال فيه الفتح بن خاقان:

«ما تمنت به الأَندلس أن تكون كالعراق، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق[2]، وما أدراك ما العراق يومئذ؛ عالم يعج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً فيما سبق، ونهضة علمية ما حلم بمثلها إنسان.

وسنفرد بالذكر أسلوبه في حياته مع الناس، بعد الكلام على مذهبه.

وخير ما يعرفك بعبقريته ومكانته أن تطالع بإمعان أَيّاً شئت من آثاره القليلة الباقية في الدين أو الأدب أو الكلام، فستجد ثمة بحراً زاخراً من العلم، وطرقاً متشعبة من المعارف يضل سالكها، إلاَّ أنك واجد ابن حزم – على هذا كله – متمكناً من موضوعه، قابضاً على ناصيته، متصرفاً فيه تصرف الفارس في الحلبة، وتلك صفة نادرة في العلماء الواسعي الثقافة، فأكثرهم ينتشر عليه أطراف موضوعه فتوجهه بدل أن يوجهها. يأخذ بيدك فلا يزال بك موغلاً في أغوار البحث ينبهك إلى ما يشاء ويصرفك عمّا يشاء، حتى يوصلك إلى الهدف

(١) تذكرة الحفاظ.
(٢) مطمح الأنفس ص ٦٣.

الذي نصبه لك قبل البدء، فابن حزم صاحب طريقة متقنة ومنهج مضبوط منطقي متزن. وستجد مصداق هذا بوضوح إذا وصلت إلى رسالته (في المفاضلة بين الصحابة).

خصه الله بالتعمق والغوص على الأسرار في كل ما يقرأ ويسمع ويرى، فبينما تراه في كتابه (طوق الحمامة) عالماً من أساطين علماء النفس، الخبيرين بدخائلها، الغائصين على أسرارها الدارسين لمظاهرها وبوادرها وعواقبها، تراه في بحوثه في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) واحداً من علماء الكلام البارعين، ذوي الحجة الدامغة والذهن اللقن، جدلاً محنكاً لو حاول أن يريك الليل في رابعة النهار لفعل، إذا بك تراه في كتابه (المحلى) فقيهاً مجتهداً ذا بصر ثاقب في معاني القرآن والسنن، مستنبطاً دقيقاً لأحكام الدين وفروع الفقه، واسع الإلمام بطرق المذاهب الفقهية خبيراً بحجج الشافعية والمالكية والحنفية، مواهبه أقصى ما يتمناه العلماء: فكر ثاقب، وبصر نافذ، وملاحظة دقيقة، ونبل نفس، يزين ذلك كله إقامة إلى جانب الصدق طول حياته.

ليس للظاهرية مثله في جميع العصور، وأكاد أقول: ما رأيت أحداً بعد الصدر الأول من الأئمة، فهم الشريعة حق الفهم، وأفهمها بإخلاص وصدق وحماسة مثل رجلين: ابن حزم هذا في المغرب وبابن تيمية في المشرق، أرسلهما الله على أهل الدس والدخائل الخبيثة، الذين أرهقوا جسم الإسلام بما حشوه من بدع المجوسية والنصرانية واليهودية، فكانا عليهم وعلى ما أتوا به صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود.

ألقيا عن الإسلام ما علق به، ولقيا في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد ما يكرم الله به كل مصلح مخلص، حتى أبرزاه أبيض نقياً كما بدأ فجزاهما الله خير الجزاء.

ملأ ابن حزم بعد موته كتب الفقه والحديث والتفسير، فقلما يؤلف مؤلف في هذه الفنون إلاَّ اعتمد على مؤلفاته أو استشهد بأقواله أو ذكر مذهبه. وهو في حياته ما ادخر وسعاً في الإحاطة بكل ما وصل إليه حتى كان له رأي في المصادر الأمهات نحن عارضون له بعد قليل.

ومن الحتم علينا أن ننبهك إلى رسالة له في فضل الأندلس أدرجها المقري في كتابه (نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٥ – ١٢٨) لأنه يطلعك على معلمة (دائرة معارف) كاملة لمعارف الأندلسيين وعلمائهم ومؤلفاتهم، بل إنه كتبها ليفاخر بها المشرق كله – وهو منبع العلوم

والعلماء – بعلم الأندلس وعلمائها، فلا يذكر مؤلفاً لمشرقي في فن إلاَّ ذكر ما يقابله لأندلسي في الفن نفسه مفضلاً الثاني على الأول، ومن الخير لك أن تطالعها لأنك مصيب بها فائدتين: الأولى أنك تدرك بعض الإدراك مدى الأُفق الذي حلقت فيه عبقرية ابن حزم، والثانية أنها تغنيك عن فهرس وتصنيف للعلوم والعلماء في الأندلس حتى زمن كتابتها.

جاء في تذكرة الحفاظ للذهبي (ترجمة ابن حزم):

ذكر لابن حزم قول من يقول: (أجل المصنفات الموطأ) فقال:

«بل أولى الكتب بالتعظيم (الصحيحان) و (صحيح سعيد بن السكن) و (المنتقى) لابن الجارود، و (المنتقى) للقاسم بن أصبغ، و (مصنف الطحاوي) و (مسند البزار) و (مسند ابن أبي شيبة) و (مسند أحمد بن حنبل) و (مسند ابن راهويه) و (مسند الطيالسي) و (مسند الحسن بن سفيان) و (مسند سنجر) و (مسند عبد الله بن محمد المسندي) و (مسند يعقوب بن شيبة) و (مسند علي بن المديني) و (مسند ابن أبي غرزة) وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله ﷺ صرفاً.

ثم بعدها التي فيها كلام غيره: مثل (مصنف عبد الرزاق) و (مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) و (مصنف بقي بن مخلد) وكتاب (محمد بن نصر المروزي) و (كتاب أبي بكر من المنذر الأكبر، والأصغر). ثم (مصنف حماد بن سلمة) و (مصنف سعيد بن منصور) و (مصنف وكيع) و (مصنف الفريابي) و (موطأ مالك بن أنس) و (موطأ ابن أبي ذيب) و (موطأ ابن وهب) و (مسائل أحمد بن حنبل) و (فقه أبي عبيد) و (فقه أبي ثور)».

فما ظنك بمن استحضر ذهنه على البديهة تلك الأمهات الفخام لفن واحد، واعرف بعد هذا أن المصنفات التي ذكرها لا تجدها في موضع واحد في أي كتاب أو فهرس فتحته في المكتبة العربية، ثم انظر مبلغ إحاطته وتمكنه وفحولة أحكامه التي يرسلها في كبار المصنفين الأئمة، مقارناً بينهم وموازناً بين آثارهم الجليلة، تؤمن بسعة علمه وبعد غوره، حتى كان من اعتداده بنفسه – على تواضعه المشهور – أن قال في أحد أئمة الأندلس الكبار بقيّ ابن مخلد حين عرض لتفسيره: «أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره»[1] وقال عن مسنده: «مسند بقي روى فيه عن (١٣٠) صاحب ونيف، ورتب

(١) المقري ١: ٥٨٠، وبقي ولد في رمضان سنة ٢٠١ هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦هـ.

حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث» ، «وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم، أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور». ثم قال لافظاً نتيجة رأيه في بقي: «فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام وكان متخيراً لا يقلد أحداً وكان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي».

سقت إليك أقواله في بقي لترى الفرق بينه وبين من شاركوه في العلم الغزير من الأئمة العظام المجتهدين، لقد تفرد بينهم بميزة حسن الموازنة وإتقانها، إنه فاضل بين مسنده ومصنفه وبين مسندات غيره ومصنفاتهم فدل على سعة إحاطة بفنه ثم حكم له بالتفضيل، ثم وضعه حيث يستحق إلى جنب البخاري ومسلم والنسائي. وكأنه – رحمه الله – أحد مؤرخي العلوم والآداب على الطريقة الفنية الغربية لعصرنا الحديث.

ولا تستغرب بعد هذا احتجاج العلماء على اختلاف فنونهم بآراء ابن حزم الذي أسعده الله فيسر له كل ما يفتح العبقرية منذ نعومة أظفاره. والذي هيأ الله له «فجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً، وسمع سماعاً جماً»[1]. وستجد أمراً مألوفاً إذا فتحت أي رسالة صغيرة في الحديث أو غيره مثل (الإجابة: لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)[2] التي أخرجناها قبل شهور، فوجدت مؤلفها الزركشي يستشهد بأحكام ابن حزم في الحديث تخريجاً وتأويلاً وتجريحاً وتوثيقاً.

وحسبك هذا واعجب معي من هذه الذخيرة التي خلفها لنا ابن حزم.

مصنفاته:

غرف ابن حزم من جميع العلوم التي كانت في متناوله، وترك كتباً في المنطق والفلسفة، إلاَّ أنه قد استكثر جداً من علوم الشريعة وأوغل فيها، لذا كانت أكثر مؤلفاته شرعية، ومع أنه صنف المصنفات القيمة في كل العلوم التي تحقق بها، نراه قد عني العناية كلها بأمر واحد هو تأييد المذهب الذي اعتمد عليه حتى آخر حياته، عنينا به مذهب الظاهرية، فقد نافح عنه وطلب له الحج والمؤيدات إلى أن مات، وترك في ذلك آثاراً كثيرة تطفح بنصرته والحملة

(١) ابن بشكوال في الصلة.
(٢) طبع المكتبة الهاشمية بدمشق.

على خصومه وشرح أصوله وفروعه، ببيان قوي سهل محبوب يذكرنا ببلاغة الجاحظ، ولا شك أن ابن حزم – في سعة معارفه وبلاغة أسلوبه – هو جاحظ الأندلس بلا منازع.

ومن المؤسف حقاً أن يضيق علماء عصره وحكامه، بحرية ابن حزم وصراحته، حتى أشهروا عليه وعلى كتبه حرباً عواناً لا هوادة فيها، وحتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوا كتبه علناً في إشبيلية كما سيأتي، فكان ما عرفنا اسمه من مؤلفاته قليلاً وأقل منه ما وصل إلينا، ومع ذلك فإنه شيء عظيم.

ولقد ذكر أبو مروان بن حيان في كلام له أنه كمل من مصنفات ابن حزم وقر بعير لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية. اهـ. ولقد بلي من حساده بأصناف البلاء وشكاهم في شعره، ومن قوله في إحراق ابن عبّاد كتبه:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي ويترل إِن أَنزلْ ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رَقَّ وكاغْد وقولا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلاّ فعودوا في المكاتب بدأةفكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

قال صاعد: أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع، اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه في الفقه الحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين، نحو أرب مئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. ثم قال صاعد: «وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلاّ لأبي جعفر بن جرير الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً». ذكر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير:

«أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر أحصوا أيام حياته مذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ هـ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة، فصار منها لكل يوم أربع عشرة ورقة. وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلاّ بكرم عناية الباري به وحسن تأييد»[1]. اهـ .

(١) رشاد الأريب، نفح الطيب.
(١) طبقات الأمم، نفح الطيب، تذكرة الحفاظ، إرشاد الأريب، أخبار الحكماء للقفطي.

ولا بد من التنبيه على أمر ذي بال وهو أن ابن حزم أدمج كثيراً من رسائله في كتابه الكبير (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وتستطيع بقليل من مقابلة أسمائها بمواضيع فهرس الكتاب أن تجد شبهاً بين بعض مواضيع كتابه وبعض أسماء كتبه: كالكلام على تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وكقوله في الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة، وكرسالته هذه (في المفاضلة بين الصحابة) وغيرها.

وإليك الآن أسماء كتبه التي وصلت إلينا مرتبة على حروف المعجم[٢]:

١- إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد.

(بروكلمان، المعلمة الإسلامية).

٢- الاتصال

هكذا ذكره في كشف الظنون ٢: ٢٥٨

٣- أجوبة (كالأجوبة على المسائل المستغربة من البخاري لابن عبد البر)

قال في كشف الظنون بعد ذكر كتاب ابن عبد البر: ولأبي محمد بن حزم عدة أجوبة عليه.

٤- الإحكام لأصول الأحكام

(بروكلمان، مطمح الأنفس، كشف الظنون)

مطبوع في مجلدين

٥- الأخلاق والسير

طبع (بالقاهرة ١٩٠٨)

٦- أخلاق النفس

ذكره ياقوت

٧- الاستقصاء

(٢) اعتمدنا في حصر مؤلفاته على المصادر الآتية: كشف الظنون، تذكرة الحفاظ، نفح الطيب، إرشاد الأريب، أخبار الحكماء، طبقات الأمم، مطمح الأنفس، الفصل، مجلة المجمع العلمي العربي، ابن خلكان، المعلمة الإسلامية، بروكلمان، وبعضها لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه عرضاً. وعلى من يريد معرفة أماكن وجودها اليوم أن يرجع إلى (بركلمان).

لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه في رسالة الزركشي (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) (ص ٧٩ طبع المكتبة الهاشمية بدمشق)

٨- أسماء الصحابة الرواة وما لكل منهم من الأحاديث (بروكلمان، الذيل)

٩- أسماء الله الحسنى (بروكلمان، الذيل)

قال الغزالي: «وجدت في أسماء الله الحسنى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه» تذكرة الحفاظ

١٠- الأصول والفروع (بروكلمان، الذيل)

١١- إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوارة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل[١].

(بروكلمان، الذيل، كشف الظنون، إرشاد الأريب)

١٢- الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها (ياقوت، المقري) واسمه في المقري: الإمامة والخلافة.

١٣- الإيصال إلى فهم كتاب (الخصال الجامعة لمحصل[٢] شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) [والسنة والإجماع]

(بروكلمان، الذيل)

قال في كشف الظنون بصدد الكلام على الكتاب (الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام): «شرحه ابن حزم وسماه (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)

وهو شرح كبير أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله» زاد ابن خلكان: «والحجة لكل طائفة وعليها وهو كتاب كبير».

قال الإمام الوزير أبو محمد بن العربي (أحد كبار تلاميذ ابن حزم القارئين عليه أكثر تواليفه): كان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلداً بخط يده، وكان في غاية الإدماج.

(١) في معلمة الإسلام: "تبديل اليهود..." بحذف كلمة إظهار.
(٢) في بعض المصادر: لجمل ولعله تصحيف.

(إرشاد الأريب)

١٤- البيان عن حقيقة الإيمان

(الذيل)

١٥- التحقيق في نقد ذكريا الرازي في كتابه (العلم الإلهي)

(الذيل)

أشار إليه ابن حزم في كتاب الفصل: ١ : ٣

١٦- التقريب لحدود المنطق

(الذيل، صاعد، كشف الظنون)

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، لا بألفاظ الفلاسفة. جاء في كشف الظنون (١: ٣١٩): «تقريب في المنطق لابن حزم الظاهري: وهو مختصر جعله مدخلاً إليه وأورد الأمثلة الفقهية بألفاظ عامية بحيث أزال سوء الظن عنه». وقد عاب هذا الكتاب كثير ممن ترجموا له، فقال صاعد في (طبقات الأمم ص ١١٨):

«بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه. فكتابه من أجلِ هذا كثير الغلط، بَيّن السقط»

وقال أبو مروان بن حيان (إرشاد الأديب ترجمة ابن حزم):

«وله في بعض تلك الفنون (يعني المنطق والفلسفة) كتب كثيرة غير أنه لم يخل فيها من غلط وسقط لجراءته في التسود على تلك الفنون لا سيما المنطق، فإنهم زعموا أنه زل هنالك، وضل في شكول المسالك، وخالف أرسطاطاليس واضعه، مخالفة من لم يفه غرضه ولا ارتاض».

١٧- التلخيص لوجوه التخليص (الذيل) وفي بعض المصادر: (التلخيص والتخليص) في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث.

١٨- تنوير المقباس (الذيل)

١٩- التوفيق إلى شارع النجاة باختصار الطريق (الذيل)

٢٠- الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد (الذيل)

زاد ياقوت: والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها.

٢١- جمهرة الأنساب (بروكلمان، المعلمة الإسلامية، كشف الظنون)

عينت المعلمة الإسلامية وضع هذا الكتاب في سنة ٤٥٠هـ وذكرت أن ابن خلدون يعتمد عليه ويذكره كثيرا في كتابه. نشر وترجم في مدريد عام ١٨٩٢ م.

وجاء في النشرة الشهرية لدار الكتب (تموز/يوليه ١٩٣٨) عن هذا الكتاب ما يلي:

أوله: (الحمد لله مبيد القرون الأول، ومزيل الدول، خالق الخلق...) صدره بجملة من الأحاديث الدالة على فضل النسب، وبين أن من فوائده اختيار الخليفة من القرشيين، وذكر بابا من أقسام الفن جملة. ثم ذكر أولاد عدنان من ولد إسماعيل، وأولاد كنانة، وأولاد النضر، وأولاد فهر، وأولاد عبد المطلب، وأولاد أبي طالب وغيرهم على سبيل الإجمال. ثم ذكر قبائل العرب وأنسابهم وبطونهم وأفخاذهم وما تفرع منهم[١].

٢٢- الحدود[٢]

٢٣- الدرة في تدقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده والقول به في الملة والنحلة باختصار وبيان (الذيل)

٢٤- رسالة عن حكم من قال: إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين (الذيل)

وفي الجزء الثالث من (الفصل) ص ٨٣ هذا العنوان: بقاء أهل الجنة والنار أبدا.

٢٥- رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف؟ كذا ذكر بروكلمان في (الذيل)

٢٦- السيرة النبوية (الذيل، تذكرة الحفاظ)

قال الذهبي: في مجلد.

٢٧- شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (الذيل، ياقوت)

---

(١) نسخة دار الكتب هذه مأخوذة بالتصوير الشمسي عن الأصل المخطوط الخاص بالأستاذ بروفنسال.

(٢) تهذيب التهذيب ٧: ١٨٥.

٢٨- الصادع في الرد على من قال بالتقليد (الذهبي، ياقوت)

في إرشاد الأديب: الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد.

٢٩- طوق الحمامة في الألفة والألاف.

أشهر من أن يذكر، وطبع مؤخرا بدمشق (١٣٤٩هـ). والغريب أن صاحب كشف الظنون ذكر بهذا الاسم كتابا للسيوطي وأهمل كتاب ابن حزم. والمطبوع من هذا الكتاب (في ليدن ١٩١٤م ثم في دمشق) هو مختصره حسبما أثبت في آخره.

٣٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل

معروف، مطبوع في خمسة أجزاء، ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) أنه ثلاثة مجلدات، وهو على ما جاء في إرشاد الأريب – وإليه أميل – ستة مجلدات وقد قرأ منها ابن العربي خمسة فقط والظاهر أن السادس مفقود.

٣١- فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها (الذيل)

٣٢- فصل هل الموت آلام أم لا (الذيل)

٣٣- في الإجماع ومسائله (على أبواب الفقه) (الذيل)

٣٤- في الاعتقاد (تذكرة الحفاظ)

رسالة نقضها أبو بكر بن العربي.

٣٥- في الإمامة (الذيل)

لعله الذي مر باسم (الإمامة والسياسة) ولابن حزم فصل في الإمامة في كتابه الكبير (الفصل) ٤: ٨٧

٣٦- في الرد على ابن نغريلا اليهودي (الذيل)

٣٧- في الرد على الهاتف من بعد؟ (الذيل)

٣٨- في الغناء الملهي، أمباح هو أم محظور (الذيل)

٣٩- في مسألة الكلب؟ (الذيل)

٤٠- في المفاضلة بين الصحابة (الذيل، مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ – ٧٠٤) هي التي ستقرؤها بعد.

٤١- فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد و لم يسبق إلى ما قاله.

قال الذهبي (تذكرة الحفاظ): «ذكر اسم هذا الكتاب هو في أثناء الفرائض من المحلى. ولا ريب أن الأئمة الكبار تقع لهم مسائل ينفرد المجتهد بها ولا يعلم أحدا سبقه إلى القول بتلك المسألة، قد تمسك فيها بعموم أو بقياس أو بحديث صحيح عنده، والله أعلم».

٤٢- كشف الالتباس لما بين الظاهرية وأصحاب القياس (الذيل) وفي بعض المصادر: كشف الالتباس بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس.

٤٣- المجلى شرح المحلى (الذهبي، الذيل)

في ثمانية مجلدات

٤٤- المحلى بالآثار: في الفقه

مطبوع معروف، قال الذهبي: «على مذهبه واجتهاده» وروى قول الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل (المحلى) لابن حزم و (المغني) للشيخ الموفق» (تذكرة الحفاظ)

٤٥- مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل: صغير طبع مرارا

٤٦- مراتب الإجماع (الذيل)

٤٧- مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض

(الذيل، مطمح الأنفس، كشف الظنون، الفصل)

٤٨- منتقى الإجماع (الذيل)

ذكره الذهبي في التذكرة وزاد ياقوت: «وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف»

٤٩- الناسخ والمنسوخ (الذيل)

طبع في مصر بهامش تفسير الجلالين.

٥٠- النبذة الكافية في أصول أحكام الدين (الذيل)

٥١- النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية عن أقوال أهل البدع والفرق الأربعة المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة. (الذيل)

٥٢- نقط العروس (الذيل، معلمة الإسلام)

صغير جمع فيه كل غريبة ونادرة مفيدة، وهو – على ما جاء في معلمة الإسلام – في تواريخ الخلفاء.

٥٣- نكت الإسلام نشر وترجم إلى الإسبانية في (غرناطة سنة ١٩١١).

جزء رآه أبو بكر بن العربي ورد عليه قال: «فيه دواهي فجردت عليه نواهي» تذكرة الحفاظ

* * *

هذا ما وصل اطلاعنا إليه، ولا شك أن له كتبا كثيرة ضاعت أسماؤها أيضا، فالمقري يذكر عرضا (٢: ١٣٦) أن له كتبا جمة في التواريخ مثل (نقط العروس). ولو أن مؤرخا لازمه في حله وترحاله لروى لنا أسماء مجلدات كثيرة ما نعلم الآن عنها شيئا.

مات صاحب هذا الكتر الزاخر، بعد أن ملأ الأندلس حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية، وجعل مجالس العلم وأقطاب الفكر معسكرين أنصارا وخصوما. ولكن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته، بل بقيت مستمرة تعمل عملها بعده زمنا طويلا. وإن شئت فاسرد كتاب (التكملة) لابن الأبار أو (الصلة) لابن بشكوال، أو (بغية الملتمس) للضبي، أو غير هذه الموسوعات، لترى: كم من أصحاب العلم والفكر حملوا أنفسهم على الرد أو الانتصلو له، وهذا غاية ما يؤثره ذو رسالة سامية من الآثار.

د – مذهبه

لم يعتنق ابن حزم في الفقه المذهب الشائع في الأندلس لعهده، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس؛ وإنما اتخذ فيه مذهب الإمام الشافعي، وطفق يدافع عنه حتى عرف به بين العلماء ونصب نفسه هدفا لأتباع غيره من المذاهب المستفيضة بالأندلس، «فاستهدف بذلك لكثير

من الفقهاء وعيب بالشذوذ»[1] ولا جرم، ففي جبلة ابن حزم ثورة فطرية على التقليد، فلما اشتد واستحكم عدل عن مذهب الشافعي واجتهد لنفسه على قواعد أهل الظاهر، ولزم دعوة الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه وينافح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله.

إمام هذه الطائفة وأول من قال بالظاهر هو داود بن علي الأصفهاني المتوفى سنة (٢٧٠هـ) «أخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك» من رأي وقياس. وألف كتبا كثيرة في الفقه على أصوله بلغت قريبا من المئتين، على فضل وعلم وورع وصدق. وعلى خطته درج ولده محمد وتتابعت بعدهما أئمة الظاهريين[2].

قال الشهرستاني: «ومن أصحاب الظاهر مثل داود الأصفهاني وغيره ممن لم يجوز القياس والاجتهاد في الأحكام وقال: (الأصول هو الكتاب والسنة والإجماع فقط) ومنع أن يكون القياس أصلا من الأصول وقال: (أول من قاس إبليس) وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة، ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع، ولم تنضبط قط شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد به، لأن من ضرورة الانتشار في العالم، الحكم بأن الاجتهاد معتبر. وقد رأينا الصحابة كيف اجتهدوا وكم قاسوا، خصوصا في مسائل الميراث من توريث الإخوة مع الجد وكيفية توريث الكلالة، وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم...»[1].

وقد ترك الظاهريون المشكلات التي لم تخطر للنبي ﷺ ولا لأصحابه من حملة السنة ووقفوا عندها، وانتشر مذهبهم بعض الانتشار في العراق وفارس وخراسان، وكان منهم أناس في بلاد الشام، في حين لم يكن بالأندلس مشهور منهم لعهد ابن حزم غيره. وقد حفظ الشعراني في ميزانه والرازي في تفسيره والمقريزي، أنماطا وقضايا للظاهرية فانظرها ثمة. وعدوا ممن قال بالظاهر الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة، فهو يتركه القياس وأخذه بالمأثور ووقوفه عند النصوص أشبه الظاهرية.

---

(١) إرشاد الأريب.

(٢) انظر أئمة المدرسة الظاهرية وما خلفوا من الكتب في فهرست ابن النديم.

(١) ٢: ٤٥ على هامش كتاب الفصل لابن حزم.

جاء في رسالة للشيخ محمد الشطي. «ولما كان الإمام أحمد من أئمة الظاهر كداود بن علي الظاهري وابن حزم وغيرهما التزم البعض من متقدمي فقهاء الحنابلة نقل أحكام مذهب داود وغيره ككتاب رؤوس المسائل لأبي الخطاب محفوظ... والرعايتين الصغرى والكبرى لابن حمدان وغيرها من الكتب المعتمدة في المذهب»[1].

والظاهريون بوقوفهم عن النصوص وطرحهم للقياس كانوا إلى الرخصة والتسامح في بعض المسائل وإلى الشدة في بعض، حتى إن المرء ليعجب من بعض أحكام يطبقونها، فمن أمثلة ذلك: أنهم يوجبون غسل الإنسان من لوغ الكلب (لظاهر الحديث) ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير[2] لعدم وجود نص في الغسل من ولوغ الخنزير على التعيين.

وهم يعدون الكلب والخنزير طاهرين، وتطهر جلودهما بالدباغ[1] ولا يشترطون الطهارة للصلاة على الجنازة[2].

ويجوزون للجنب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد[3].

ولهم إزاء أمثال هذه الرخص تشديدات ألجأهم إليها الأخذ بحرفية النصوص، من ذلك:

أنهم لم يشترطوا في البيع صيغة ما كبعض المذاهب واكتفوا بمجرد التراضي، وهذا يسر ظاهر، إلا أنهم أوجبوا فيه الإشهاد فرجع البيع في مذهبهم أشد منه في المذاهب الأخرى.

وأنهم جعلوا أكل لحم الجزور ناقضا للوضوء[4] أخذا بألفاظ الحديث المشهور، والرسول إنما أمر أصحابه بالوضوء بعد أكل لحكم الجزور سترا على الذي أحدث.

وأنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثا بعد النوم، وحكموا بنجاسة الماء الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل[5].

وإليك هذا المثال الأخير لتعرف طراز أخذهم بالظاهر:

---

(١) مجموع يشتمل على رسالتين الأولى في مذهب داود الظاهري جمع محمد الشطي، والثانية في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية جمع برهان الدين ابن قيم الجوزية ص ٣ (دمشق سنة ١٣٣٠هـ مطبعة روضة الشام).

(٢) المصدر السابق ص ٧.

(١) المصدر السابق ص ٧ أيضا.

(٢) ص ١٠.

(٣) ص ٢٠.

(٤) ص ٩.

(٥) ص ٦.

«الماء ينجس إذا بال فيه بائل؛ لحديث «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه» فلو بال في إناء وصبه في الماء

أو بال على شيء فجرى البول إلى الماء فلا ينجس!!»[1].

وأظن في هذا القدر كفاية في إطلاعك على أنماطهم في النظر، وأصبح مذهبهم سمحا سهلا في أمور وشديدا في أمور. ومن الطريف أن تطلع على المسائل التي جمعها الشطي في مذهب داود وتقابلها بأمثالها في المذاهب الأخرى. وقد جاء في ختام الرسالة المذكورة: «ومن أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي»[2].

ولم يخل الأمر من حملة عنيفة يسوقها عليهم خصومهم، شأن كل مذهب، فنرى القلضي أبا بكر بن العربي يصمهم بأنهم: «أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها، وتكلمت بكلام لم تفهمه، وتلقفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول: لا حكم إلا لله» وقال عنهم:

«يقولون: (لا قول إلا ما قال الله، ولا نتبع إلا رسول الله، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر) فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة وتهويل» ثم قال يوصي أصحابه بالطريق إلى تعجيزهم: «فأوصيكم وصيتين: ألا تستدلوا عليهم، وطالبوهم بالدليل، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب، وإذا طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلا.

فأما قولهم: (لا قول إلا ما قال الله) فحق، ولكن أرني ما قال الله. وأما قولهم: (لا حكم إلا لله) فغير مسلم على الإطلاق، بل من حكم الله ان يجعل الحكم لغيره مما قاله وأخبر به، فصح أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري ما حكم الله؟ ولكن أنزلهم على حكمك» وصح قوله: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء... الحديث»[1] اهـ

هذا ولست بصدد شرح آراء الموافقين والمخالفين، فإن جمود المذهب على ظاهر النصوص أورثه بطئا في حركة انتشاره حتى لم يعد طائفة خاصة، ثم انقرض مع الزمن، ولم

(١) المصدر السابق ص ٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧.
(١) تذكرة الحفاظ.

يرزق ما رزقت بقية المذاهب من الانتشار، لفقدانه المرونة الضرورية لكل زمان ومكـــــان، فاندثر ليبقى الأنسب.

خذ أيا شئت من كتب ابن حزم في الدين: الإحكام، أو المحلى أو غيرهما، فستجد أينمـــا قرأت أمثلة من نظره الظاهري ووقوفه عند حرفية النصوص، انظر مثلا نقده لـــــ (فليلـــزم الجماعة) ص ١٩١ فتراه نقدا ظاهريا يتعلق بالألفاظ لا يحيد عن مدلولها، وكذلـــك نقـــده القول المعروف (الشيطان مع الواحد) فقد رده: بأن انفراد الرجل في بيته غير منكر وقد قـــال رسول الله ﷺ (يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده)، ومالي أشـــرع في ضرب الأمثلة ورسالة (المفاضلة بين الصحابة) هذه من أولها إلى آخرها بحث محكم علـــى قواعد مذهبه الظاهري، وقد وفق فيها وفي طريقة معالجة موضوعها توفيقا يشـــــعر بلذتـــه القارئ المدقق.

وكأن القدر وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد، فاتباعه الشافعي أول الأمر جر عليـــه عداوة الفقهاء وتشنيعهم، والقول بالظاهر بعد ذلك، ألب عليه وعلى نحلته أقواما لا قبل لـــه بهم، ومع هذا استصغر الأذى في سبيل ما يرى أنه الحق وصمد لخصومه وكافحهم، ولم يلـق السلاح من يده حتى فارق الحياة، بعد أن ملأ المغرب بدعوته وهو فرد، كما اعترف خصمه العنيد أبو بكر بن العربي على ما يأتي.

ومن قصيدة لابن حزم تراها في موضع آخر أبيات يشرح فيها وجهة النظـــر الظاهريـــة وهي:

فقلت: هل عيبهم لي غير أني لا أقول بالرأي إذ في أريهم أفن

وأنني مولع بالنص لست إلى سواه أنحو ولا في نصره أهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين، بل حسبي القرآن والسنن

وخير لنا في وقفك على جهاده وما تحمله في سبيل دعوته، أن نسوق إليـــــك قـــول أبي مروان بن حيان، فقد لخص لنا مجمل ما لاقى في حياته من اضطهاد وإعـــــراض في ســـبيل مذهبه، قال:

«ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه، ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه إنشاق الخردل، فينفر عنه القلوب، ويقع به الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك ينصونه (يبعدونه) ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به مقطع أثره وهي بلدة من بادية لبلة وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع، يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم، كمل من مصنفاته وقر بعير، لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقة علانية إلخ».

على أنه قد وجد بعض التأييد من حاكم جزيرة ميورقة: العباس بن أحمد بن رشيق، فقد استدعاه إلى جزيرته بعد أن كانت الفتيا فيها على مذهب مالك، فلبى الدعوة ودخلها بعد سنة ٤٣٠هـ فنشر مذهب الظاهرية في كنفه حتى فشا، وكانت تقوم المناظرة بينه وبين خصومه في مجلس الحاكم نفسه، حتى إن أبا الوليد بن البارية الميورقي الفقيه المالكي لما ناظره بمجلس ابن رشيق، لم يستطع الوقوف لابن حزم، وأتى ببعض الهفوات فأغلظ عليه القول ابن حزم، وعظم عليه ما أتى، ثم سجنه ابن رشيق أياما، ولم يطلقه حتى أشهد عليه بالتوبة. وتركه يخرج إلى الحج فتوفي في وجهه. هذه هي كل الحماية التي ظفر بها ابن حزم.

ومن الغريب أن بعض الناس استغلوا تشيعه لبني أمية فرموه ببغض علي؛ أي بالنصب. وما أكثر ما يلقى من نصب نفسه لقول الحق والصدع به، بمزاج مثل مزاج ابن حزم صراحة وصدقا وعدم مبالاة وإهمالا للعواقب تجر عليه ما جرت.

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب نعرف منها آراءهم وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم، حتى قيل على ما مر بك آنفا: «من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي» ولا ريب أن ابن تيمية عيال في هذا على ابن حزم.

هذا وقد أطبق الذين ترجموا له على ورعه وتدينه وزهده وتحريه للصدق، وتواضعه ولين جانبه، مع عمل صالح وجرأة نادرة، وصبر طويل، واحتمال في ذات الله، إلى فضائل جمة. وأنعم بها من مزايا لا تكمل إلا لعدد قليل يبعثهم الله في أحقاب متطاولة، ليقر بهم حقا

أضيع ويهدم باطلا أشيع، ويرجع عباده إلى دينهم الحق، ويمتحنهم الله بما امتحن به أنبيـــاءه الكرام عليهم الصلاة والسلام من أذى الناس وحسدهم، وعذابهم، فيحملون ذلك كله بصبر كبير وصفح جميل ويهدي بسيرتهم هذه أكثر مما يهدي بعلومهم.

وإنك لتلمس خوف ابن حزم من الله واليوم الآخر، في كل ما تقرأ له، بلغت الحماســـة لدينه من نفسه كل مبلغ، وملكت عليه وقته وتفكيره فطرح الدنيا وجاهها وغرورها، ونبـذ المناصب والوزارات لينشر الدين غريبا مشردا طريد سجون وحكام ووشايات. وهـــذا مـــا تفعله العقيدة إذا حلت قلبا كبيرا ونفسا مخلصة. وقف قليلا عند ما ختم به رسالته (طـــوق الحمامة) ليغمرك جانب من هذا الإيمان العظيم، لقلب طافح بشكر الله، قال – وقد عـــرض لما أصابه من النكبات وقد مر بك أول هذا القول ص ٣٠ – : «لا جعلنا الله من الشـــاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ، والذي ترك أعظم مـــن الذي تحيف، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحد ولا يؤدى شكرها، والكل منحـــه وعطاياه، ولا حكم لنا في أنفسنا، ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكل عارية فراجعة إلى معيرهـــا، وله الحمد أولا وآخرا وعودا وبدءا وأنا أقول:

إذا ما صح لي ديني وعرضي فلست لما تولى ذا اهتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين»[1].

هـــ – أدبه

أولى من هذا المكان ببيان أدب ابن حزم، كتاب برأسه يخصص لعرض أدبه الواسع العميق وتستجلي فيه صفاء نفسه الكبيرة وخطرات فكره العجيب. ولكنا نريد أن نرسم لمترجمنـــا صورة قريبة من الكمال بقدر الإمكان، فلا مناص لنا إذن، من الإلمام بأدبه في كلمة موجزة.

الأدباء الموهوبون قليلون، وربما لم يكن لبعض العصور إلا أديب واحد، بل ربما لم تظفـــر عصور متعاقبة بأديب، والذين يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم وينقلوننـــا بسحر بيانهم وقوة روحهم إلى أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم ونشعر بما شعروا ونحلـــق في الآفاق التي حلقوا... هم صفوة هذا القليل. وأنا لا أعرف من هؤلاء في القرون الخمسة التي

(١) طوق الحمامة ص ١٥٣.

تلت الهجرة غير اثنين فقط: الجاحظ في المشرق وابن حزم هذا في المغرب، على تفاوت بين الرجلين وميزات لكل منهما على الآخر.

كلا الرجلين عالم متمكن في الدين، إمام مجتهد في مذهبه، وكلاهما جادل وكافح ووضع الكتب والرسائل في نصرة مذهبه ومهاجمة خصومه. وكلاهما كان من الفصحاء الأبينا الذين يمتزج كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورقة، وتستعذبه الآذان تقطيعا ورنينا. ثم كلاهما غرف من علوم عصره ما استطاع، فكان رجل دين وأدب واجتماع وفلسفة ومنطق وتاريخ وأخبار ونوادر. وكلاهما لقي من حسد خصومه وكيد أعدائه ما عرضه للمحن وأذى الحكام، وأخيرا كلاهما ترك من تواليفه مكتبة عظيمة ضاع أكثرها وبقي منها النزر اليسير، دليلا على سعة آفاقه وعظمة ثقافته.

فأما ما يفترقان فيه فالمزاج، كان الجاحظ هادئا ساكن الطائر على دهاء ومصانعة، وكان ابن حزم صلبا صريحا عنيفا حاد المزاج، ذا لسان أمضى من سيف الحجاج. ثم هناك بعد ذلك، عالمان كبيران تنقل فيهما ابن حزم، وتمتع حتى تمكن؛ ولم نعلم للجاحظ فيهما أثرا يذكر: الأول عالم الشعر، فلقد كان ابن حزم شاعرا بليغا مرهف الحس بعيد الأثر في النفس، ولم يمتع الجاحظ من الشعر في ورد ولا صدر، والثاني عالم الحب، فقد نهل منه ابن حزم وعل، وشرب كأسه حتى الثمالة، وبلا من أحواله وأعراضه وأحزانه ومفارحه شيئا كثيرا حتى لقد تفرد في المشرق والمغرب بالإيغال فيه والغوص على أسراره. وأكاد أقول: إنه فيه إمام مجتهد كما هو في الدين إمام مجتهد. ولم يكن – فيما علمنا – للجاحظ في هذا اللون من الحب نصيب.

وابن حزم على هذا لم يترو انزواء العلماء، بل عوضه الله عن ربح عزلتهم وتأملاتهم نظرة فاحصة عميقة، وذكاء سريعا وقادا، فنزل إلى الساحات والأسواق، وغشي المجالس والمجتمعات، وخالط الفقهاء والعوام والصناع والنساء والعطارين والفتيان والأمراء والخلفاء، فترك لنا معارف زاخرة عن مجتمعه لا نجدها في شيء من كتب التاريخ. والغريب أن هذا كله محشور بين دفتي رسالة مختصرة عن كتاب في موضوع الحب هي: طوق الحمامة. فما ظنك لو سلم لنا تراث ابن حزم كله، إذن لنعمنا بحياة خصبة نحياها حالمين في فردوسنا الأندلسي.

عرفنا ابن حزم كثيرا من أسرار الأسر النبيلة ووقائع الغرام فيها على الرغم من الحجاب الغليظ والرقابة الدقيقة، وأنهم إلى التصون في علائقهم هذه أقرب منهم إلى التبذل، كما أطلعنا على مجتمعات النساء بباب العطارين في قرطبة. ولقد تكفل بفضح الهوى الساحقة التي ارتطم فيها أناس نساك تنطعوا في نسكهم وتكبروا به على المستورين، فما هي إلا جولة حتى هووا من حالق صوامعهم إلى قيعان الفساد، كل هذا بأسلوب قصصي ساحر جذاب. والشيء الخطير حقا هو أن ابن حزم حين يؤلف، يستمد من تجاربه الشخصية أكثر مادته، لقد خاض الحياة وتقلب في نعيمها وتمرغ في بأسائها وخبرها علوا وسفلا خبرة العالم النفسي الدقيق في ملاحظاته وتقييدها. لقد انعكست في فكره وكتبه الأندلس كلها بأجناسها وعلومها وآدابها وعاداتها وسموها وإسفافها وترفها وفتنها وأسرارها فجلاها لنا في مرآة صافية لا تعلوها غبرة ولا صدأ.

وفق في بيان هذا كما وفق قرينه الجاحظ، وما أظن تصوير الجاحظ للحسود ببعيدة عن ذهنك حين وصف تغير سحنته وتحول لونه وخوص عينيه[1]... وجميع العوارض (الفسيولوجية)، فوازنها بما سيمر بك من دراسة ابن حزم للتغيرات الطارئة على المرأة في حضرة رجل أو الرجل إذا أحس امرأة! في نبرة الصوت وإطالة الكلام، وتكلف الحركات... وإن تفوق ابن حزم في هذا على صاحبه راجع إلى أن القرن الخامس في الأندلس أبسط آفاقا في الثقافة وألوانها من زمن الجاحظ.

ولك أن تقابل بين وصف الجاحظ للحسد ووصف ابن حزم له في رسالة (فضل الأندلس) لقد أحسن الرجلان تصويرا لأن كلا منهما يصف ما يعاني ويجد.

* * *

لم يصل إلينا من آثار ابن حزم في الأدب إلا القليل والظاهر أن له طائفة صالحة من الشعر حتى استطاع ابن بشكوال أن يجمع له ديوانا على حروف المعجم[1].

وذكر هو في كتابه طوق الحمامة ص (١١٩) إتلاف صديق له جميع ما كاتبه به من نثر أو شعر. وإذا عرفنا أن المقاطيع الصغيرة الباقية في طوق الحمامة، هي من قصائد طوال في

(١) انظر ذلك في رسائل الجاحظ ص ٥ طبعة السياسي.

(١) قال ابن بشكوال في الصلة: وله في الآداب الشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم. وقد جمعه أيضا الحميدي. انظر جذوة المقتبس ص ٢٩٣.

الأصل أدركنا مبلغ الضائع من شعره، والذي في الطوق دون الألف من الأبيات، وأنا أقدرها كاملة بعشرة آلاف بيت في موضوع واحد هو الحب.

وله في طبقات السبكي (١٨٤/٢) قصيدة طويلة بلغت أبياتها ١٤٠ أجاب بها ملك الروم (نقفور) عن رسالته التي أرسلها إلى المسلمين يهدد ويتوعد. والقصيدة تزخر بالقوة والتبكيت، والفخر والوطنية، والاعتداد بجميع أقاليم العرب. وقد أظهر فيها اطلاعه الواسع على التاريخ والجغرافية والملاحم، وختمها بمدح الرسول ﷺ وتقريع من يسميهم (عبدة عيسى) والهزء بمزاعمهم على أسلوبه الخاص، فانظرها في مظنتها.

لم يتكسب ابن حزم بشعره قط، ولم يمدح إلا نادرا وكان مدحه لأقرانه في الجاه والعلم، فهو إذن يقول الشعر إرضاء لفنه الخالص كما يقولون، وتفريجا لهمومه وأحزانه، وترجمانا عن نزواته وخلجاته.

ومع اشتغاله بالعلوم الدينية وغيرها، لم يكن شعره ليشبه في وجه من الوجوه ما يسمى (شعر الفقهاء). وهو شاعر فحل مطبوع، قبل أن يكون فقيها، وقبل أن يكون عالما. والأدب هبته الأصلية والعلم طارئ عليه، ولم يؤثر فيه من الناحية الشعرية، بل لا نكون إلى الغلو إذا قلنا: إن ابن حزم طبع العلوم والدين والجدل والتأليف... بالطابع الأدبي الجميل. وإنه على كل حال في الطليعة من بلغاء الأندلس شعرا ونثرا.

وعلة التفوق في جميع الموضوعات التي طرقها ابن حزم هو أنه لا يعالج إلا ما أوسعه بحثا ودرسا وتفكيرا فيه. أما في الأدب خاصة فيرجع السبب في إجادته وسموه إلى أنه لم يصف إلا ما شاهد وكابد وشعر به، لم يكن عالة على غيره في وصف طبيعة أو ترجمة عاطفة أو شكوى أو سرور أو حزن... قال في مقدمة الطوق:

«وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلى بحلي مستعار»[1].

هذا هو السر في تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ونفاذها إلى أعماق النفوس.

لغة ابن حزم من السهل الرقيق الممتنع، لا يكاد يستعمل لفظة غير مأنوسة، وهو أبعد ما يكون عن الحوشي والتعقيد، تقرأ له في الأدب كتابا بكامله مثل طوق الحمامة نثرا وشعرا فلا تكاد تشعر بحاجة إلى الرجوع إلى المعاجم، بعيد عن الصنعة المتكلفة، غني عن اللعب

(١) ص ٣.

بالألفاظ، أغنته عنها تلك البحور الدافقة على ذهنه من المعاني الخصبة والعواطف الصادقة المشبوبة، فليس إلا أن يقول وكثيرا ما كان يقول الشعر الجيد على البديهة بسرعة لا تجارى.

وإذا لجأ إلى المجاز في بيانه، أمتعك بأصدقه وأقربه ثم حشد فيه صورا طافحة بالألوان الزاهية السارة. انظر إلى تصويره آخرة الحب، وغرور المرء بأوله:

كمغتر بضحضاح قريب فزل فغاب في غمر المدود

تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس، ومجاز أصدق من الحقيقة، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه، وما أدركت قط فهما أعمق في بيان مزالق الحب من هذا.

ويريد أن يبين عن حال عاشق متيم متكتم لا يفصح عن حبيبه على رغم ضناه، فيطلب له مجازا يقر رحاله فينتزع مراده بلطف مما ترى العين وتسمع الأذن:

كخط يرى رسمه ظاهرا وإن طلبوا شرحه لم يبن

كصوت حمام على أيكة يرجع بالصوت من كل فن

تلذ بفحواه أسماعنا ومعناه مستعجم لم يبن

وانظر تلطفه في تشبيه الهلال:

كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره .....

وقوله في قوس قزح:

ولاح في الأفق قوس الله مكتسيا من كل لون كأذناب الطواويس

والبيت الأخير يعج بالألوان البراقة، وقد أبدع فيه بما لا مزيد عليه.

والغريب أن صاحبنا يلذ أن يحاكي أحيانا أرباب الصنعة للتسلية فقط، فيتكلف لذلك ما لو رامه أحدهم لجاء بغاية الاستكراه. وأنت تعلم أن الأقدمين مازالوا يعجبون من تشبيه امرئ القيس شيئين بشيئين في قوله:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

ويقطعون لصاحبه بالانفراد في الإجادة حتى جاء بشار ببيته:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم أتى المتكلفون يقلدون فلا يبلغون، وعن لابن حزم أن يجاريهم فسبقهم إذ شبه ثلاثة بثلاثة في بيت واحد:

كأن الحيا والمزن والروض عاطرا دموع وأجفان وخد مورد

بل شبه خمسة بخمسة في بيت واحد فأتى أبعد ما يكون من التكلف وأقرب إلى الطبع وأحظى في الإجادة:

كأني وهي والكأس والخمر والدجى ثرى وحيا والدر والتبر والسنج[1]

وانظر نظمه قصيدة أعجازها من معلقة طرفة بن العبد (طوق الحمامة ص ٧٤)

وفي أثناء شعره حكم جيدة، رمى بها طبع موات وبصيرة نافذة، أراد أن يبين عن أثر العادة وقوة تحكمها في الإنسان فقال:

فلو يتغذى المرء بالسم قاته وقام له منه غذاء مجرب

وتأمل قوله:

أفعال كل امرئ نتبي بعنصره والعين تغنيك عن أن تطلب الأثرا

وهل ترى قط دفلى أنبتت عنبا أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا

وما أسرع ابن حزم حين يلقي حكمه، إلى الإتيان بالصورة المقررة التي لا تدع مجالا لريب الفكر وتردده، هو مغرم بالصور موفق في إجادتها وصدقها. وإنها لتستقر في الأذهان على الدهر لإحكامها وقربها. ولقد قال الأول:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

فلما أتى الشاعر العالم بالنفس المجرب في الحب، أخذ المعنى (خاما) فردده في نفسه وفكره ثم أخرجه بهذه الصورة:

بلى إن في قرب الديار لراحة كما يمسك الظمآن أن يدنو الورد

(١) كذا في الأصل (طوق الحمامة ص ١٥) ولعل التحريف عن (السبج) بالباء وهو الجرز الأسود.

والشطر الأخير آية في الروعة والسحر وكلمة (يمسك) منه محط الإعجاز، والتشبيه هنا هو الذي يقرر المعنى ويوطد له حتى يتمكن.

* * *

لنثر ابن حزم خصائص نثر الجاحظ تقريبا، إلا أنه يتفوق عليه بميزتين اثنتين: الأولى خلوه من الاستطرادات التي قد تمل كثرتها قارئ الجاحظ، والثانية ترتيب معانيها ترتيبا يكاد يكون منطقيا. ثم يستقل أبو عثمان بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح.

وإذا كان شعر ابن حزم مأنوس اللفظ، قريب المتناول، سلس الأسلوب، فأحر بهذه السمات أن تكون في نثره أظهر.

وسأعرض عليك قطعة من طوق الحمامة، لو دسستها في كتاب للجاحظ، ما استطاع ناقد عارف مهما أوتي من دقة البصر أن يميزها مما حولها: معان خصبة، في جمل صغيرة مقطعة تقطيعا موسيقيا، لذيذ الجرس، حلو النبرات، فيها دلالة صريحة على أن اللغة طوع يد ابن حزم يدع منها ويأخذ ما شاء كيف شاء، تتوارد عليه مفرداتها وتراكيبها ومترادفاتها من كل جانب، فيعقد منها الفقر المزدوجة التي تسحر اللب وتطرب السمع، قال:

"وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة، وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطعهم بعد المودة، وتباغضهم بعد المحبة، واستحكام الضغائن، وتأكد السخائم في صدورهم.. لكاشفا ناهيا لو صادف عقولا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة.. ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل، فعهدتها أصفى من الماء، وألطف من الهواء، وأثبت من الجبال، وأقوى من الحديد، وأشد امتزاجا من اللون في الملون، وأنفا استحكاما من الأعراض في الأجسام، وأضوأ من الشمس، وأصح من العيان، وأثقب من النجم، وأصدق من كدر القطا، وأعجب من الدهر، وأحسن من البر، وأجمل من وجه أبي عامر، وألذ من العافية، وأحلى من المنى، وأدنى من النفس وأقرب من النسب، وأرسخ من النقش في الحجر" فهل يخطر على بالك شيء بعد هذا الاستيفاء الذي جمع فيه ابن حزم كل المحاسن والأطايب ليخبر عن شمائل تلك المرأة؟ وهل رأيت فنا كفنه وعذوبة كعذوبة جمله لفظا ومعنى وطيب موقع؟ لقد أتى بها في جمل قصيرة ملحنة، تدل على سعة محفوظ وحضور ذهنه وإحاطته بلغته وتمكنه من معانيه، فانظر بعد ذلك كيف انقلب مودة المرأة إلى أضداد

تلك الصفات، وزد إن كنت مستطيعا على ما ذكر ابن حزم فقرة واحدة، إنه جمع لنا مساوئ الدنيا ومرائرها في هذه النغمات:

"ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة: أفظع من الموت، وأنفذ من السم، وأمر من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمضى من عقم الرياح، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو، وأشد من الأسر، وأقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار، وأنأى من الجوزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصائب، وأشنع من خرق العادات، وأقطع من فجأة البلاء، وأبشع من السم الذعاف، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات، وقتل الآباء وسبي الأمهات [1]..".

هذا ولا يفوتنك لطف مذهبه في إدخال ألفاظ فنه المجردة في هذه القطعة الأدبية، فإن (امتزاج اللون بالملون، واستحكام الأعراض في الأجسام، والعيان..) وما شابهها من ألفاظ المشتغلين بالمنطق والفلسفة والكلام... مما لا تهضمه صفحات الأدب، إلا إذا أتيح لها صواخ موهوب مفن كابن حزم.

وقد ذكرت لك في بحث حبه القصة الشائعة التي رسمها هو نفسه بريشته، ولا شك أنك ستولي انتباها خاصا للعبه بالنفوس بمثل هذه الجمل الرائعة ".. فلقد أثارت وجدا دفينا وحركت ساكنا، وذكرتني عهدا قديما، وحبا تليدا، ودهرا ماضيا، وزمنا عافيا، وشهورا خوالي، وأخبارا بوالي، ودهورا فواني؛ وأياما قد ذهبت، وآثارا قد دثرت..، زاد الشجى، وتوقدت اللوعة، وتأكد الحزن، وتضاعف الأسف...، وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل، والمرآة الهندية...إلخ" لقد افتن كل الافتنان، واحتال ألطف الاحتيال حتى أضفى على معانيه هذه الحلل البراقة، والنور اللألاء، ومكن للمعنى من أطرافه وحواشيه حتى يقر في الصدر ويفوز من النفس بأبلغ الأثر. وهذه ميزة ابن حزم على المتكلفين في التزام السجع وحشر المترادف.

إنه إذا قصد إلى معنى طريف لم يهجم بك عليه بادئ الرأي، ولكنه يأخذ بيدك في طريق ملتف فلا يزال بك كالنحلة من زهرة إلى زهرة ومن ثمرة إلى ثمرة ومن روضة إلى ينبوع،

(١) طوق الحمامة ص١٣٢.

حتى تطمئن وتظن كلما وقفت على روعة من الروائع أنها هي المقصودة بالذات الممـــهد لها بما سبق، فما أسرع ما يخلف ظنك حين يقفك موقفا أحلى من الأول ولا ينفك بـــك في لف ودوران لذيذين... هكذا حتى يستقر بك على غرضه فإذا بك في سدة عدن، وإذا كـلن ما سبق تمهيدات يغري بعضها ببعض، خذ هذا المثال:

"ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها. فما للدنـــو مـــن السلطان، ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمـــن بعد الخوف، ولا التروح على المال... من الموقع في النفس ما للوصل؛ ولا سيما بعد طـــول الامتناع وحلول الهجر... وما أصناف النبات بعد غب القطر، ولا إشراق الأزاهـــير بعـــد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النـــور، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر.. بأحسن من وصل حبيـــب [1]..." أو هذا المثال [2]:

"ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محـــب لمحبوبه. ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، وانبساط مدبري الدول، فمـــا رأيت أشد تبجحا ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلـــب محبوبـــه عنـــده.. وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان".

وماذا أختار لابن حزم؟ فيكفيك ما في الفصول السابقة واللاحقة وخاصة حديثه عن حبه وعن نكباته، ففيه أصدق صورة عن فنه. ولقد قص قصة عن قاض وقور عشق عشقا عفيفـل بقيت حسرته تزداد حتى أوردته حتفه، ثم يذيلها بشمائل هذا القاضي تذييلا يذكرنا بصفـــة الجاحظ لقاضي البصرة سوار. قال ابن حزم: "هذا، على أن أبا عبد الله (يعني القاضي) أكرم الله نزله، ممن لم يكن له وله قط، ولا فارق الطريقة المثلى، ولا وطئ حراما قط، ولا قـــارف مسكرا، ولا أتى منهيا عنه يخل بدينه ومروءته، ولا قارض من جفا عليه، وما كان في طبقتنا مثله[1]".

(١) طوق الحمامة ص٥٦.
(٢) ص٦٧.
(١) طوق الحمامة ص ١٦٨.

* * *

لست أستطيع الإفاضة في عرض ألوان ابن حزم الأديب، وكل ما فعلته وثبات سريعة تعطي عن الرجل فكرة فقط. غير أنه لا مندوحة لي – والرسالة التي أنشرها في الدين – أن أعرض لأثر ثقافته في أدبه، فلا يجمل بين طيها وابن حزم ذلكم العالم الديني المجتهد الإمام.

اشتغال المرء بصناعة ما، يجعل ألفاظ أدواتها وأفعالها وأشيائها كثيرة الدوران على لسانه، بحكم دؤوبه وممارسته لها، والمرء أكثر ذكرا لما يعانيه ويكد خاطره. وهذه ظاهرة نجدها بارزة في كثير من الأدباء فتندس مفردات الحرفة التي تزاولها أسرهم في آثارهم من حيث لا يشعرون. وفي أدبنا العربي طوائف من هذا النمط، فبعض الشعراء دارت في أشعارهم كلمات ومصطلحات تتعلق بالدين أو المنطق أو النحو أو الفلسفة أو غيرها، والمتنبي استعمل ألفاظ الفلاسفة والحكماء حتى أغرب في ذلك وسمجت أبياته الحاملة لهذه الألفاظ. ولأمر ما سموا بعض الأشعار أسماء خاصة فقالوا: شعر الفقهاء، وشعر الكتاب، وشعر النحاة، يريدون بذلك إبعاد هذه الألوان عن ساحة الشعر. إلا ابن حزم فإنه على رغم ما حمل شعره من ثقافته الدينية والنحوية والتاريخية، بقي خالصا من الشوائب، للتوفيق الذي وهب له في (تأديب) العلم إن صح هذا التعبير. لا يشعر قارئه، وهو يقرأ في شعره أمورا هي من أدب الدين أو من النحو أو التاريخ، أنه فوجئ بما يبعده عن جوه العلوي الساحر. وسترى أنه – لقوة طبعه وجبروت ذهنه – وفق في هذه الناحية من حيث أخفق المتنبي، وإليك الأمثلة، قال:

على كل من حولي رقيبان رتبا وقد خصني ذو العرش منهم بثالث

يعني بهما الملكين اللذين يحصيان حسنات المرء وسيئاته. وقال:

كأنما هو توحيد تضيق به نفس الكفور فتأبى حين تودعه

وقال:

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات بيض نضانض

وقال:

يرجون ما لا يبلغون كمثل ما يرجي محالا في الإمام الروافض

وقال:

وكأني زماني عبشي يخالني أهت على عثمان أهل التشيع

يشير إلى بغض الأمويين للذين أعانوا على قتل الخليفة عثمان ابن عفان، وتعقبهم لهم بالقتل. وقال:

كذب المدعي هوى اثنين حتما مثل ما في الأصول: أكذب ماني

فكما العقل واحد ليس يدري خالقا غير واحد رحمان

فكذا القلب واحد ليس يهوى غير فرد مباعد أو مدان

هو في شرعة المودة ذو شكـ ـك بعيد عن صحة الإيمان

وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان

وقال:

كذلك يعقوب نبي الهدى إذ شفه الحزن على يوسف

شم قميصا جاء من عنده وكان مكفوفا فمنه شفي

وقال:

كذلك فعل السامري وقد بدا لعينيه من جبريل إثر ممجد

فصير جوف العجل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممدد

وقال مشيرا إلى قضية نحوية:

أبت عن دنيء الوصف ضربة لازم كما أبت الفعل الحروف الخوافض

... إلخ.

فالتوحيد والكفر والإيمان وأهل التشيع والروافض والثانوية... قضايا تتعلق باختصاصه الديني، كما أن عصا موسى مع الحيات، والنبي يعقوب وقميص يوسف، والسامري الذي قبض قبضة من أثر جبريل فقذفها في فم العجل فخار، كلها قصص وردت في القرآن الكريم. وقتل عثمان وما نشأ حوله من شيعة وأمويين يناصب الفريق منهم الفريق الآخر العداء، وشخصية ماني والثانوية.. أمور معروفة استمدها من ثقافته التاريخية الواسعة. والفعل والحروف الخوافض قضية معروفة في النحو. وستأتيك عند الكلام على حبه، مقطوعة شعرية له ذهب بها إلى حل الهوى العفيف وأصمى بها المتنطعين بضربة قاطعة، إنها اتخذت شكل فتوى شرعية مؤيدة بالحجج ومناهضة للخصوم بجدل قوي محكم، وهي بعد هذا وهذا من الشعر الرائق الجميل.

وأختم هذا الفصل بوصف نزهة حضرها، تضيفها إلى ما اطلعت عليه – مع قلته – من نعته للجمال في الطبيعة والناس، وقد اخترتها لأنها جمعت نثرا وشعرا في موضوع واحد قال:

"تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا. فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى، فتمددنا في رياض أريضة[1]، وأرض عريضة، للبصر فيها منفسح وللنفس لديها منسرح، بين جداول تطرد كأباريق اللجين، وأطيار تغرد بألحان تزري بما أبدعه معبد وابن الغريض، وثمار مهدلة قد ذللت للأيدي وذللت للمتناول، وظلال مظلة، تلاحظنا الشمس من بينها فنتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات، لها خرير يقوم ويهدأ، ونواوير مونقة مختلفة الألوان، تصفقها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سجسج[2]، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا؛ في يوم ربيعي ذي شمس ذليلة، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف، وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخضرة والخريدة

(١) معجبة للعين.

(٢) معتدل لا حر ولا قر.

الخجلة، تتراءى لعاشقها من بين الأستار، ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة. وكـــان بعضنـــا مطرقا كأنه بحالة أخرى، وذلك لسر كان له، فعرض لي بذلك وتداعبنا حينا، فكلفـــت أن أقول على لسانه شيئا في ذلك، فقلت بديهة، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا وهي:

ولما تروحنا بأكناف روضة مهدلة الأفنان في تربها الندي

وقد ضحكت أنوارها وتضوعت أساورها في ظل في ء ممدد

وأبدت لنا الأطيار حسن صريفها فمن بين شاك شجوه ومغرد

وللماء فيا بيننا متصرف وللعين مرتاد هناك ولليد

وما شئت من أخلاق أروع ماجد كريم السجايا للفخار مشيد

تنغص عندي كل ما قد وصفته ولم يهنني إذ غاب عني سيدي

فيا ليتني في السجن وهو معانقي وأنتم معا في قصر دار المجدد

فمن رام منا أن يبدل حاله بحال أخيه أو بملك مخلد

فلا عاش إلا في شقاء ونكبة ولا زال في بؤس وخزي مردد

فقال هو ومن حضر: آمين آمين[1]".

هذا وقد مر بك من شعر ابن حزم في موضعه، طائفة إلا تكن وافية فإنها مفصحة بعـــض الإفصاح عن طبعه في الشعر ورقة عاطفته، وعذوبة لفظه، وحلاوة مدخله. ولا بـــأس في أن أزيدك إلى ما تقدم، حفنة جد قليلة مع تنبيهك إلى أن كتابه (طوق الحمامة) علـــى صغـــر حجمه يصلح أن يكون له ديوان شعر ونثر.

فمن قوله يصف دهره وما لقي فيه:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا

حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عينا

(١) طوق الحمامة ص٩٧- ٩٨.

حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا

كأن الذي كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى[1]

وقال يشكو ما لقي من أهل بلده من الضياع:

ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا غرو أن يستوحش العاشق الصب

فإن يترل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب[2]

ومن لطيف دعابته قوله:

وذي عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول:

أمن أجل وجه لاح لم تر غيره و لم تدر كيف الجسم: أنت عليل؟؟

فقلت له: أسرفت في اللوم فاتئد فعندي رد لو أشاء طويل:

ألم تر أني ظاهري وأنني على ما أرى حتى يقوم دليل[3]

فلم يشأ ابن حزم أن يدع (ظاهريته) حتى في الحب والجمال.

ومن قوله في الشوق لأحبابه:

لئن أصبحت مرتحلا بجسمي فقلبي عندكم أبدا مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم[1]

وقصد يوما أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقيه أبو عـــامر وأعظم قصده وقال له: "يا سيدي مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم؟!!" فأنشده ابن حـــزم بديها:

فلو كانت الدنيا دوينك لجة وفي الجو صعق دائم وحريق

لسهل ودي فيك نحوك مسلكا و لم يتعذر لي إليك طريق[2]

---

(١) معجم الأدباء والصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨.

(٢) معجم الأدباء.

(٣) المصدر السابق ونفح الطيب.

(١) نفح الطيب.

وقال في الفراق:

أقمنا ساعة ثم ارتحلناوما يغني المشوق وقوف ساعه

كأن الشمل لم يك ذا اجتماع إذا ما شتت البين اجتماعه[٣]

ومن قوله في الحكم ما أرسله يعتذر عن تخلف حظه:

لا تلمني لأن سبقة حظ فات إدراكها ذوي الألباب

يسبق الكلب وثبة الليث في العدو ويعلو النخال فوق اللباب[٤]

إلى غير ذلك من الأشعار التي كانت بحق كما نعتها في مقطوعته التي قرع فيها ابن عمه:

وأبعث في أهل الزمان شواردا تلينهم وهي الصعاب النوافر

ومن قوله يفتخر بعلمه وعصاميته ويذكر جاهه الذي صدف عنه:

بلغت من الدنيا ذرى أربي في لذة العيش والسلطان والنشب

فأذهبت دول الأيام منزلتي وزاد فقدي للذات في كربي

وكان مالي لهذا كله تبعا بل صار عونا لأعدائي على طلبي

لكن رجعت وقد جد الزمان إلى كتر من العلم والأخلاق والأدب

فأعجز الدهر أن يودي بواحدة منها وأقصر عني واهي السبب

لا أختشي نضع الأيام منزلتيمدى الزمان وعندي أغلب الطلب

لا يستطيعون عزلي عن ولايتها إذ كل وال لهم بالعزل في العقب

هذا بلا كلفة مني ولا حرسولا عديد ولا إنفاق مكتسب

وكل من كان في دنياي يصحبني ناديته حين خانتني فلم يجب

كلام من جرب الأمرين واتضحت له المذاهب من جد ومن لعب

أنا ابن من دبر الدنيا بخاتمه عشرين عاما وعشر بعد لم يرب

---

(٢) المصدر السابق ١ : ٤٢٨ فما بعد.

(٣) ابن خلكان.

(٤) نفح الطيب.

وإن مترلتي في العلم مترلة في الملك حظ كحظ الصادق النسب

مازلت أذخره دهري وأنفقه(دأبا) كمثل اللجين المحض والذهب

وإنني لبخيل بالسلام إذا بخلت بالعلم من لفظي ومن كتبي

لو استطعت منحت الناس كلهم ما قد تجمع في حفظي وفي كتبي

أأبذل المال يفني البذل حاصله ولست أبذل ما ينمي على النهب

سائل بأي علوم العالمين تجد عندي ينابيع ذاك العلم من كتبي[1]

هذا ما أمكنت منه خطتي في الترجمة، وما واتت عليه الفرصة، وليس أدب ابن حزم بالذي تستوفى إحدى نواحيه في هذه الصفحات، لأنه – وخاصة في رسالة طوق الحمامة – : أديب عالمي سبق عصره قرونا، وإني لأرجو أن أتيح لنفس فرصة أخرى فأتكلم على أدبه خاصة، إذا يسر الله لي جمع ما تفرق من شعره ونثره.

و – حبه

شاء الله لابن حزم أن يكمل من حيث نقص كثيرون، فهيأ كل شيء لهذه النفس السامية حتى خفقت بالحب النبيل العف الطهور، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين.

والأندلس لعهد ابن حزم مرتع الجمال العجيب: في طبيعته وفي أهله رجالا ونساء، عجت بالحور من مختلف الأجناس، من آسية وإفريقية وأوربة فتوالد من تمازج الأعراق جيل جديد تم للأندلس به جمال خاص أثر في رجالها، فلطف طباعهم، وطبع أدب الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به.

وابن حزم منذ نعومة أظفاره، صافي النفس، رقيق الشمائل مرهف الحس، مشبوب العاطفة. يزين ذلك كله تهذيب (أرستقراطي) متوارث، وعقل واسع وعزيمة ضابطة مع خوف من الله عز وجل.

والذي عجل تفتح قلبه، إشراف أرقى الأندلسيات على تربيته، وإحاطته إلى زمن استتمام رجولته بسيدات هن أرقى نساء مجتمعه. فصبا وخفق بالحب قلبه، ثم تمكن واشتد، ونفس

(١) مجلة المقتبس: المجلد الأول.

عنه بمقاطيع من الشعر تفيض رقة وحرقة. وليس لأحد أن يستغرب من إمام كابن حـــزم أن يملكه الجمال، ويأسر لبه، فما كان رجال الشريعة يوما من الدهر غلف القلوب، ولا عمـــي العيون، ولا متبلدي الحس، بل إن ثقافتهم بطبيعتها لتهديهم إلى معجزات الله في الجمـــال، وتحدوه على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها.

وإن من أعرض عن نداء عواطفه التي أودع الله في قلبه، وتهاون بنظام بنى الله عليه الكـون منذ بدء الخليقة، لكائن لم تكمل آدميته، رجلا كان أو امرأة. والله الـــذي مـــيز الإنســـان بالتفكير السامي هو الذي غرس في قلوب كل جنس نوازع نحو الجنس الآخر، وجعل بينهما مودة ورحمة، لتتم حكمته في عمران الدنيا، والعازفون عن ســـنة الله في بريتـــه معطلـــون ناقصون، وما جعل الله يوما من القربات إليه تعطيل نظام أحكمه بيديه.

ولقد بهرج ابن حزم – رحمه الله – هذا الضرب من الورع الكاذب، وزيفه أشد تزييـــف فقال:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى وسيان عندي فيك لاح وساكت

يقولون: جانبت التصاون جملة وأنت عليهم بالشريعة قانت

فقلت لهم: هذا الرياء بعينه صراحا وزي للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل منعه في محكم الذكر ثابت

إذا لم أواقع محرما أتقي به مجيئي يوم البعث والوجه باهت

فلست أبالي في الهوى قول لائم سواء لعمري جاهر أو مخافت

وهل يلزم الإنسان إلا اختياره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت[1]

إذن لقد أحب ابن حزم ولا مناص، والحب السامي اضطراري لا اختياري، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية والطبيعة الشاعرة. وكان من نعمة الله على المكتبة العربية، أن يسلم لها مختصر لكتاب (طوق الحمامة)، الكتاب الذي قصره مؤلفه على الحب ودواعيه وحالاته وآثاره وعوارضه ويعنينا منه بوجه خاص أمران لا تتم لنا صورة صادقة عن حياة ابن حزم، حتى نعرض لهما: [أما الأول فأخبار حبه وآثاره في نفسه]، وأما الثاني فهو اختباراته في هذا الميدان، ودراسته العميقة لمجتمعه في الحب، ثم دقة وتحليل وفق إليهما في دراسته النفسية العميقة. ونحن فيما نسوق إليك عيال على هذا المصدر الوحيد، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئا عن حياته الشعرية هذه، ولبقيت سرا مجهولا، ولم ننعم إلا بصورة شوهاء عن حياته.

أطلعنا ابن حزم على حوادث ثلاث في تاريخ قلبه، وكلها أصابه في صباه وحداثة سنه، وكلها كان له الأثر البليغ في حزن نسه، وإثارة عواطفه، وفجيعة شبابه.

فأما الأولى فتبين لنا أثر الحب الأول إذا صادف قلبا خاليا، كيف يتمكن حتى لا يولع المحب إلا بما شابه صفة محبوبه الأول قال:

"وعني أخبرك: أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه. وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تواتيني نفسي على سواه، ولا تحب غيره البتة. وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله".

ثم ذكر ملاحظته الخاصة بخلفاء بني مروان، وكيف تتابعوا جميعا على محبة الشقراء من النساء، حتى أتى أغلبهم أشقر أشهل نزاعا إلى أمهاتهم. فأيد بذلك نظريته في ابتغاء الإنسان الصفة التي عليها محبوبه الأول. وهذا هو أسلوبه في أكثر الكتاب يشرح العارض، ويصف أحواله، ثم يؤيده بالشواهد التي عانى أو عاين أو سمع.

(١) طوق الحمامة ص٣٣.

وأما الثانية ففاجعة بحبيب حل من قلبه أسمى محل، فغبر ابن حزم بعدها لا يطيب له عيش، ولا يجد عنها سوى، وقد أثرت في نفسه أبلغ الأثر حتى ما كان ينتفع بنفسه بعد، وحتى فاضت قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر العاطفي ذكر منها مع الأسف أبياتا متفرقة، نثره في سرد في الحادث أشعر منهن وأبلغ، قال في باب البين:

"وعني أخبرك: أني أحد من دهي بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة. وذلك أني كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بجارية لي كانت فيما خلا، اسمها (نعم) وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لي، وكنت أبا عذرها. وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن.

فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة) ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة علي مسارعا طائعا. وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده، ومما قلت فيها:

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت وسائر أرباب الحجال نجوم

أطار هواها القلب عن مستقره فبعد وقوع ظل وهو يحوم

ومن مراثي فيها قصيدة منها:

كأني لم آنس بألفاظك التي على عقد الألباب هن نوافث

ولم أتحكم في الأماني كأنني لإفراد ما حكمت فيهن عابث

وفيها:

ويبدين إعراضا وهن أوالف ويقسمن في هجري وهن حوانث[1]

والحقيقة أن هيام ابن حزم بنعم بلغ الغاية في الشدة، حتى أنه بعد موتها لم يكن ليسلوها في يقظة ولا منام، والمرء يرى في أحلامه ما تهتف به نفسه الباطنة. لقد رآها مرة في نومه

(١) ص ٨٨.

فسر بها كل السرور، وخلد لنا بشر نفسه في هذه الأبيات الصادقة القوية، دليلا على المحل الذي حلته من قلبه، محل لم يترل غيرها أحد قط:

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة وليل سلطان وظل ممدد

وعهدي بها تحت التراب مقيمة وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد

فعدنا كما كنا وعاد زماننا كما قد عهدنا قبل الوعود أحمد[٢]

وأما الثالثة فقصة حب لم يستجب له، بقي شديدا متسعرا سنين طويلة ثم برد فجأة حين رأى محبوبته بعد غياب، وقد غاض جمالها لعدم تعهده. والقصة على طولها طريفة جدا، لأنها تشرح بإسهاب لذيذ مطاردة ابن حزم للجارية، وتمنعها. ثم هي إلى ذلك تصف لنا مجتمع ابن حزم وصفا دقيقا لا نجد تفصيله في مكان آخر، وحسبنا أن الذي يقوم ببيان هذا كله هو ابن حزم نفسه، ولا تنس أن ذلك كان منه أيام الصبا قبل تفرغه لطلب الفقه، قال:

"وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي إلفة المحبة، جارية نشأت في دارنا، وكلنت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، وعديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان في المنع والبخل، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها، غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحسانا جيدا، فجنحت إليها وأحببتها حبا مفرطا شديدا، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فهما لفظة – غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع – بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة.

فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت في دخلتنا[١] ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه

(٢) ص ٩٥.

(١) الدخلة مثلثة الدال: البطانة.

ويلطف محله، فلبثن صدرا من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة، وفحوصها[٢] مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنسا بقربها، متعرضا للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره، وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج[١] في الآثار، ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول:

إني طربت إلى شمس إذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة في خلق جارية كأن أعطافها طي الطوامير[٢]

ليست من الإنس إلا في مناسبة ولا من الجن إلا في التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة[٣] والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حي تخطو في مجاسدها[٤] تخطو على البيض أوحد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول:

لا تلمها على النفار ومنع الوصـ ـل بل[١] ماذا لها بنكير

---

(٢) الفحوص: جمع فحص وهو كل موضع يسكن.

(١) القيافة معرفة آثار الناس، ومدلج قبيلة اشتهرت بحذقها في القيافة بين العرب.

(٢) الطوامير: الصحف.

(٣) العبهرة: الممتلئة الجسم الناعمة الطويلة.

(٤) المجسد (كمبرد): ثوب يلي الجسد (قاموس).

(١) في الأصل: كم. وما: نافية.

هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور

وأقول:

منعت جمال وجهك مقلتيا ولفظك قد ضننت به عليا

أراك نذر للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيا

وقد غنيت للعباس شعرا هنيئا ذا لعباس هنيا

فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز[٢] قاليا وبكم شجيا

ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث[٣] بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك. ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد، بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت [اشتدت] الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير، رحمه الله، ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربع مئة.

واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها[١] – وقد ارتفعت الواعية – قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب: فلقد أثارت وجدا دفينا، وحركت ساكنا وذكرتني عهدا قديما، وحبا تليدا، ودهرا ماضيا، وزمنا عافيا، وشهورا خوالي، وأخبارا بوالي، ودهورا فواني، وأياما قد ذهبت، وآثارا قد دثرت، وجددت أحزاني، وهيجت بلابلي. على أني كنت في ذلك النهار مرزأ مصابا من وجوه وما كنت نسيت، ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة، وتأكد الحزن، وتضاعف الأسف، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيبا فقلت قطعة منها:

يبكي لميت مات وهو مكرم وللحي أولى بالدموع الذوارف

---

(٢) فوز: معشوقة العباس بن الأحنف.

(٣) لعل الصواب: المحدثة.

(١) الضمير يعود إلى الجارية صاحبة القصة، والواعية: الصراخ والصوت.

فيا عجبا من آسف لامرئ ثوى وما هو للمقتول ظلما بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربع مئة وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربع مئة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي: "هذه فلانة" وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار[1] الذي كان البصر يقصد نحوه متبورا[2] ويرتاد فيه متحيرا، وينصرف عنه متحيرا، فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا، ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وإنما النساء رياحين: متى لم تتعاهد نقصت، وبنية: متى لم يهتبل بها استهدمت. ولذلك قال من قال: "إن حسن الرجال أصدق صدقا وأثبت أصلا وأعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير: مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن". وإني لو نلت منها أقل وصل، وأنست لي بعض الأنس، لخولطت طربا، أو لمت فرحا، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني، وهذا الوجه من أسباب السلو، صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء، ولا عهد يقتضي المحافظة، ولا سلف ذمام، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه.

* * *

وانظر الآن إلى الإرادة القوية والعفة والأصيلة كيف تغلبتا على ابن حزم، حين استحكم واستوى، في موقف لا يسلم فيه إلا القليل، لقد جاز امتحانا بغاية النجاح، وقهر هواه وملك لبه، وكان على حد قول الرافعي رحمه الله:

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

(١) النوار، كرمان الزهر.

(٢) علق مصحح الطبعة ما يلي: كذا في الأصل ولعل الصواب مبتارا أي مختبرا.

قال: "ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعواما كثيرة، وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت وأتت كما أقول:

خريدة صاغها الرحمن من نور جلت ملاحتها عن كل تقدير

لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور

لكنت أحظى عباد الله كلهم بالجنتين وقرب الخرد الحور

وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف، وقد طبق وصف شبابها قرطبة، فبت عندها ثلاث ليال متوالية، ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية.

فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده منسي الغزل، ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفا على لبي أن يزدهيه الاستحسان، ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل".

ولا تحسبن ما يلقى من المكابرة في حبه أمرا هينا، أو تظنن أن حبه لم يبلغ من القوة بحيث يتغلب على عفته وصلابته. بل اعلم أن عاطفته تشتد كأقوى ما تشتد في فحول الرجال، وهواه مضطرم عاصف لا يقف له شيء، وإن الذي ينعى إليه بعض من يحب من بلد نازح فيجد لذلك من الوجد والحزن ما تضيق معه الأرض على رحبها، حتى يفر بنفسه نحو المقابر ويهيم على وجهه بينها وهو ينشد[1]:

وددت بأن ظهر الأرض بطن وأن البطن منها صار ظهرا

وأني مت قبل ورود خطب أتى فأثار في الأكباد جمرا

وأن دمي لمن قد بان غسل وأن ضلوع صدري كن قبرا

ثم يتصل به بعد حين كذب هذا النعي فلا يكاد يستقر فرحا ثم ينشد:

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥.

بشرى أتت واليأس مستحكم والقلب في سبع طباق شداد

كست فؤادي خضرة بعد ما كان فؤادي لابسا للحداد

جلى سواد الغم عني كما يجلى بنور الشمس لون السواد

إن الذي يهيم هذا الهيام ويستخفه نعي وبشرى ذلك الاستخفاف، فتفيض لوعته كما يطفح فرحه، إن هذا لرجل ممكن له في دنيا الحب حتى بلغ فيها درجة الفناء على تعبير الصوفيين، فإذا سلط على حبه هذا العظيم دينه وورعه، عرفنا مبلغ قوة التدين فيه وأنه شيء لا يكاد يفي بوصفه البيان.

* * *

هذا ما قصه علينا ابن حزم من أحاديث صبوته في صباه. وهو حين يتكلم فيما يعرض للحب والمحبين من أحوال، أسرع ما يكون إلى إيراد الشاهد في نفسه أو في غيره. وبهذا اطلعنا على خصائص حبه وتاريخ قلبه، وأنه حب مكين يتأصل ببطء بعد امتحان طويل، ولكنه ثابت لا يسلو عنه قط. قال في باب (من لا يحب إلا مع المطاولة):

"وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرا وأخذي معه في كل جد وهزل. وكذلك أنا في السلو والتوق: فما نسيت ودا لي قط، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت، ولا أقول: في الألاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك. وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانعلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة، وإنه لشجى يعتادني، وولوع هم ما ينفك يطرقني، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو. وفي ذلك أقول شعرا منه:

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا وريت حين ارتياد زنادها

ولكن على مهل سرت وتولدت بطول امتزاج فاستقر عمادها

فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها

يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة تتم سريعا عن قريب نهادها

ولكنني أرض عزاز صليبة منيع إلى كل الغروس انقيادها

فما نفذت منها لديها عروقها فليست تبالي أن يجود عهادها[1]"

وهذه غاية في الإخلاص وصدق المحبة والوفاء. وعلى هذا الغرار فليكن الحب المخلص والعلاقة البريئة وحفظ العهد.

ومن رزق حظ ابن حزم من العشق، لم يروه منه شيء، وكلما نهل طلب مزيدا، لأن القلب الصاد الحب ظامئ أبدا، مستزيد كلما روي، بهذا حكم ابن حزم وأيد حكمه بهذه الحادثة التي رواها عن نفسه قال:

"وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل، ولا زادني إلا ظمأ؛ وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفه عنه سريعا. ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتني إلا مستزيدا، ولقد طال بي ذلك، فما أحسست بسآمة، ولا رهقتني فترة، ولقد ضمني مجلس مع من كنت أحب، فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادي وغير شاف وجدي، ولا قاض أقل لبانة من لبانتي، ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت تلوذا، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس:

وددت أن القلب شق بمدية وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري

فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ما حييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر[1]

ولست بحاجة إلى التنبيه عن سمو هذه العاطفة و روعة هذا الشعور الصادق، عبر فيه ابن حزم عن ذات صدره و لم يشأ الإغراق على طريقة الشعراء. وقد يبدو في شعره هذا شيء من الأثرة (الأنانية) لم يتصنع فيه الإيثار المألوف في الغزل، لأنه إنما أحب لنفسه فترجم عن هذا الحب بأصدق عبارة و أدق صورة. ومن الطريف أن جدلا قام بينه وبين أبي عبد الله بن كليب في القيروان، حول هذه النقطة، كان فيها مجادله داعية إلى الإيثار فقال محمد:

(١) طوق الحمامة ص٢٢ . النهاد: المناهضة. والعهاد: المطر.

(١) طوق الحمامة ص ٥٩.

- إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فماذا أصنع؟

- ابن حزم - أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره.

محمد - لكني لا أرى ذلك، بل أوثر هواه على هواي، ومراده على مرادي وأصبر ولو كان في ذلك الحتف.

ابن حزم -إني إنما أحببته لنفسي، ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها.

محمد - هذا ظلم من القياس: أشد من الموت ما تمني له الموت، وأعز من النفس ما بذلت فيه النفس.

ابن حزم - إن بذلك نفسك لم يكن اختيارا بل كان اضطرارا، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها. وتركك لقاءه اختيارا منك، أنت ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها.

محمد - أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب"[1].

وحينا نرى ابن حزم يتحفنا بثمرات دراسته القيمة لأحوال المحبين، فيطلعنا على الفرح الشديد ينعم به من أيقن بمحبة حبيبه، وعلى الغم القاتل يقاسيه من حرم عطف من يحب، والحالات النفسية التي يلقى بها المحب حبيبه غير مختار.ثم سريرة نفسه وماأوقع له هو في الحالين، في نثر بديع يأخذ هو بمجامع القلوب، قال:

"ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجحا ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه وصحة مودته له، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، و مواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان: قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء." ثم قال عن نفسه:

"ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد و أنفذ من السيف: لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن: أبادر

(١) انظر طوق الحمامة ص: ٤٢.

إلى أقصى غايات التذلل لو نفع، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح. وأتحلل بلساني، وأغـــوص على دقائق المعاني ببياني. وأفنن القول فنونا وأتصدى لكل ما يوجب الترضي"[1].

و أمر آخر في ابن حزم يثير الدهشة و الإعجاب، وهو أنه وصل في خبرته وتجاربـــه إلى نتائج ما يماري فيها الإنسان لاستنادها على دراسة نفسية عميقة مع ملاحظة وانتباه وتـأمل، وكأني به في وصفه التغيرات(الفسيولوجية) التي تطرأ على المحب في حضرة حبيبه، واحدا من كبار علماء النفس في عصرنا العشرين قال: "وشيء أصفه لك تراه عيانا،وهو أني ما رأيـت قط امرأة في مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها، إلا و أحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلـــك. ورأيت التهمم لمخارح لفظها و هيئة تقلبها لائحا فيها، ظاهرا عليها، لا خفاء به، والرجـال كذلك إذا أحسوا بالنساء. وأما إظهار الزينة وترتب المشي وإيقاع المزاح عند خطور المـرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان.والله عز وجل يقـول: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون} [النـور: ٣٠/٢٤] وقال تقدست أسماؤه: {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتـهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانـــهن أو بنـي أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفـل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين مـــن زينتـهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور: ٣١/٢٤] فلولا علم الله عـــز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب، ولطـف كيدهـن في التحيـل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغـلمض الذي ليس وراءه مرمى. و هذا حد التعرض فكيف بما دونه"[1].

* * *

(١) طوق الحمامة ص ٦٧.

(١) طوق الحمامة ص ١٢٤.

ستقرأ قريبا كلمة ابن حزم في ترفعه عن الحرام، وعصمته منه، آخر الكلام عن أخلاقه، وستطلع الآن على السبب في أنه ما حل مئزره على حرام قط منذ عقل، وأنه بريء الساحة نقي الحجرة، وهو يعود في جملته إلى رقابة أسرته وتوجيه شيخه قال:

"وكان السبب فيما ذكرته (يعني من عفته العجيبة) أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة وتمكن غرار الفتوة مقصورا محظرا علي: بين رقباء ورقائب؛ فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو علي المذكور عاقلا عاملا عالما ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح والزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كان حصورا، لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة: علما وعملا ودينا وورعا، فنفعني الله به كثيرا وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي"(٢).

ونجاة ابن حزم من الحرام مع كثرة اختلاطه بالنساء وأنسهن إليه، وإفضائهن إليه بأسرارهن، واطلاعه منها على مالا يتيسر لغيره... إحدى الأعاجيب التي لا تتأتى لبشر إلا في الفرط النادر.

ويدهشني منه الخروج عن المألوف من الغلط؛ فيما شاع من تعريف الصالح والفاسق، فقد ألف الناس لهاتين الكلمتين معنى بعيد الوقوع غير فطري. يشك فيه كل من أمعن في سيرة المختارين من البشر... حتى وضع لهما ابن حزم الحدود المعقولة الواقعية، مستفيدا من خبرته في خبايا الصدور وأسرار النفوس قال:

"إني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطا بعيدا. والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي: إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت. والفاسدة هي التي: إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش، تحيلت في أن تتوصل إليها في ضروب من الحيل. والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض (للمناظر) الجالبة للأهواء، ولا يرفع بصره إلى الصور البديعة التركيب. والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء

(٢) طوق الحمامة ص ١٢٥.

كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء"[1].

وهذا نعت معقول، ونظن أن الصالح – بالمفهوم الشائع – الذي لا يؤثر فيه الجمال ولا تحدثه نفسه بشيء حياله... كائن لم يخلقه الله قط. وبعد فهذا هو ابن حزم في حبه ونبله وسمو عواطفه وعزة نفسه ورقة حسه وطهارة ذيله... عظيم نادر المثال في الرجال المحبين، كما كان عظيما نادر المثال في المفكرين أولي الأذهان الحداد و القرائح الصافية والعبقرية العجيبة.

ز _ أخلاقه

البيت الذي درج فيه ابن حزم بيت فضل وتهذيب ونبل، فلا عجب إذا نشأ كريم الخلق، جم المزايا، طيب النفس. ولقد عرفت – مما مر – كثيرا من سجاياه ورأيت إجماع من ترجم له على صدقه وتحريه وتدينه وزهده وورعه وحشمته وسؤدده وتواضعه[1] وعفته.

عني والده – وكان جليلا محتشما كبير الشأن – بتنشئته أحسن العناية، و رأى هو من أفراد أسرته السرية من كانوا مثال الكمال وعلو الأخلاق، وعاش محاطا بجماعة من طبقته فلم يصب بمعاشرة سفلة الناس، وكان بمنأى عن الحاجة التي تعرض صاحبها للذل والاحتيال، وجد الدنيا تجر أذيالها في داره فتقلب في نعيمها ما شاء، وبلغ من جاهها حتى منصب الوزارة، ثم صدف عن ذلك كله، وعكف على طلب العلم والمعالي.

أما أبوه الذي عرف أن السعادة لا تدوم لكائن، فقد أخذ ولده بتوطين نفسه على الخشونة والقلة والنكد، وكان فيما أوصاه به قوله:

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها[1]

وأول ما شاهدناه من كبر نفسه زهده في جاه حاضر، ودنيا مقبلة مع مجد طريف وتالد في الوزارة له ولأبيه قبله، مع تحريه الحق مهما جر عليه، ثم صلابته في المضي فيه متحملا المكاره والشدائد. ولابن بشكوال كلمة جمعت أخلاقه في جملة واحدة وهي قوله: "كان... عاملا بعلمه".

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٣.

(١) المقري والذهبي وابن بشكوال وياقوت والفتح بن خاقان.

(١) نفح الطيب.

ولم يذكروا من هناته إلا "طول لسانه واستخفافه ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع تمرد"[٢].

وإذا طرحنا نحن جانب المبالغة في هذا القول، وجدنا عذره في ذلك ما سترى من مزاجه وحماسته في سبيل ما يعتقد أنه الحق، ثم اندفاعه في الجدل والنضال عن مذهبه، مرخيا لحدته العنان. ونحن نعرف أن أصحاب العقائد من الناس أبعد عن المجاملة والمداراة.

أما فيما لا يمس العقيدة والعلم فقد كان ابن حزم مطبوعا- كما قال -" على التأني والتربص والمسالمة[٣] ما أمكنت." وعلى مقدار تشدد هذه الطبقة فيما يمس العقيدة تجد فيهم تساهلا وتسامحا فيما يمس أنفسهم وحظوظهم، لدرجة يظنها الجاهل عجزا ورهبة. وما هي بهما وإنما وجهوا مواهبهم وعزائمهم جهة واحدة سامية صرفوا إليها جهودهم و وقفوا عليها تفكيرهم وقواهم، وجعلوها محورا تركز فيه كل شعورهم، فلا يشغلهم عنها شاغل مهما أكبره الناس واهتموا به. وهذا السر في زهد الأنبياء ومن وليهم من طبقات المصلحين أولي العقائد في حظوظ أنفسهم وعدم الانتصار لها، ومقابلتهم السوء بالإحسان[١]، حتى ليتجرأ عليهم – مع قوتهم – أضعف الناس ومن لا يدفع عن نفسه. ولعل هذا أيضا يفسر لك إعراض ابن حزم عن دنيا نشأ فيها ووزارة ذاق حلاوتها.

* * *

أما "وقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة" فلم أجد عليه شاهدا قط، ليس في مخالفته أئمة الاجتهاد في آرائهم ما يعد من هذا القبيل، وما كان تركك اجتهادا ليعد طعنا في صاحبه. والذي أعرفه أن ابن حزم كان جم التواضع جم الأدب مع الأحياء والأموات، وإليك الدليل:

جاء في طوق الحمامة قبل أبيات له:

(٢) تذكرة الحفاظ.

(٣) طوق الحمامة ص ٥٤.

(١) سيأتي شاهد هذا في ابن حزم بعد قليل.

"و أنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم، فلهم فضل التقدم والسابقة؛ وغنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم وجريا في ميدانهم وتتبعا لطريقتهم التي أنهجوا وأوضحوا"[1].

ومن كان أديبا مع الذين سبقوه من الشعراء فأحر به أن يكون أكثر أدبا مع الفقهاء وأئمة الاجتهاد.

هذا كله مع استقلال في التفكير، واعتداد بالنفس، واستغناء عن كل أحد، في جميع ما نظم وأرسل وألف وفكر: "وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار"[2].

ومع هذا التواضع لم يبارحه كرمه قط، حتى في حال محنته، وكان داره في مغتربه بشاطبة، منزلا لإخوانه مدة مقامهم بها[3]. وأنا لم أنص عن كرمه والزمن مقبل عليه، وداره محط الرحال بقرطبة، ومقصد أرباب الحوائج والمنتجعين، ينالون فيها من ماله وجاهه، لأن هذا أمر مألوف لا غرابة فيه، وإنما الكرم الأصيل هو الذي لا يفارق صاحبه في أشد أيامه عليه. أما الخلق النادر في الرجال، في مثل زمن ابن حزم الرهيب، فهو الوفاء وعزة النفس. وأيام المحن وتقلبات الدول هي أصدق الظروف لامتحان الأخلاق، فيها يحيق المكروه بأصحاب الوفاء وفيها يغيض الوفاء ويستفيض الغدر، ويشيع الرياء ويغيب الإخلاص.

فمن صادق رجلا دالت سلطته تبرأ منه في سلطة خصمه تجنبا لأذاه، أو آذاه تقربا لذي السلطان. وأعزاء النفوس أيام الرخاء يضطرون إلى إهانتها في الشدائد، إلا أن أناسا قليلين يستحلون الموت والعذاب الأليم في سبيل أخلاقهم. ومن هذا القليل النادر صاحبنا ابن حزم.

أخبر عن نفسه – وهو الصادق بإجماع– فقال:

"لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلي بلقية واحدة، ووهب لي من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثة ساعة حظا أنا له شاكر وحامد، ومنه مستمد ومستزيد. وما شيء أثقل علي من الغدر، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضطرار من بيني

(١) طوق الحمامة ص ٩٦.
(٢) طوق الحمامة ص ٣.
(٣) طوق الحمامة ص ٨٢.

وبينه أقل ذمام وإن عظمت جريرته، وكثرت إلي ذنوبه. ولقد دهمني من هذا غير قليل، فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيرا"[1].

ووضح أكثر من ذلك في موضع آخر بكلمة تكاد تكون صورة صادقة لحياته مع الناس قال:

"وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنيني معهما عيش أبدا، وإني لأبرم بحياتي باجتماعها، وأود التثبت من نفسي أحيانا لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما: وفاء لا يشوبه تلون، قد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته، وعزة نفس لا تقر عن الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه. فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها. وإني لأجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا افرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه، وفي ذلك أقول:

لي خلتان أذاقاني الأسى جرعا ونغصا عيشتي واستهلكا جلدي

وفاء صدق فما فارقت ذا مقة فزال حزني عليه آخر الأبد

وعزة لا يحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالأموال والولد[1]

وما مر معك من حياة ابن حزم شرح ضاف لكلمته هذه.

وإنه ليغلو في خلق الوفاء حتى لينقلب نوعا من الإلفة التي لا صبر له على فراقها، بل يغرق أكثر من ذلك فيفي لما يألفه من الأشياء قال ص ٢٢: "فما نسيت ودا لي قط، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء. وقد استراح من لم تكن هذه صفته، ومللت شيئا بعد معرفتي به... وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس و مركوب ومطعوم..".

* * *

(١) طوق الحمامة ص ٧٨.

(١) طوق الحمامة ص ١١٤.

لابن حزم إلى جانب فضائله أشياء ربما عدها بعض الناس من العيوب. ومما يعجبني أن يدل عليها هو نفسه بصراحته المعهودة وصدقه المألوف. فقد ذكر السر في كثرة اطلاعه على شؤون النساء وأسرارهن وعدم نسيانه لحوادثهن فقال: "وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به"[1] وفي موضع آخر. "ولقد اطلعت من سر معتقل الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم. وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظنا في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت في"[2] وذكر لنفسه بعد ذلك صفة أخرى وهي الكتمان، فقد أفادته في الغوص على أسرار النساء، ووفى هو بعد ذلك فلم يبح بشيء اطلع عليه قال:

"فلم أزل باحثا عن أخبارهن، كاشفا عن أسرارهن، وكن قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني على غوامض أمورهن، ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء"[1].

هذا، وأميز صفات ابن حزم وأبعدها في الدلالة على رجولته وصلابته ومتانة خلقه: أنه مع تربيته في حجور النساء وترعرعه بينهن، ومخالطته لكثير منهن، واطلاعه على كثير من أسرارهن... مع هذا كله لم يخرج عن عفته لحظة من اللحظات،مع اعتقادي بأنه لو عرض لغيره بعض ما عرض له ما ثبت أمام نفسه لحظة واحدة. وهذا خلق عظيم يقدره من عرف النفس البشرية وضعفها في هذا الباب.

وأحب شيء لدي أن أستمع لهذه النفس الكبيرة الصادقة، وهي تتبرأ مما قد يقع في خلد كل قارئ لكتابه (طوق الحمامة)، وكأنها تعطيه بعض العذر في ظنه السوء، لأن من خبر من جماعات النساء ما خبر مؤلف الطوق لا يعقل بحال أن ينجو من الحرام. ونحن نميل إلى هذا الظن أيضا، ولكن في رجل غير ابن حزم:

قال بعد ذكر حوادثهن وأسرارهن:

"وإني لأعرف هذا وأتقنه، ومع هذا يعلم الله – وكفى به عليما – أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجرة. وإني أقسم بالله أجل الأقسام: إني ما حللت

(١) طوق الحمامة ص ٤٧.
(٢) ص ١٢٤.
(١) طوق الحمامة ص ١٢٥.

مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى مذ عقلت إلى يومي هـــذا. والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى، والمستعصم فيما بقي"[1].

ح–مزاجه

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طول حياته، وجر عليه ما جر مـــن تـــأليب الناس. وقد كان رحمه الله يعزو حدته لمرض فيه. ويستطيع من قرأ له فصلا كـــاملا مـــن فصوله التي يجادل فيها المخالفين، أن يجد في أسلوبه مناكر لا يمكن التسامح بهـــا، فـــهو في نقاشه معهم غير هادئ ولا واسع الصدر، فكثيرا ما يستنزل عليهم لعنة الله وغضبه وقتالـــه، وكثيرا ما يصفهم بالضلال والمروق والكفر والفسوق، وأكثر من ذلك طعنـــه في عقولهـــم وعلومهم ونياتهم. وستقرأ من هذه الخيرات في رسالته (في المفاضلة) طائفة صالحة، فوطـــن النفس على تحملها مذ الآن.

وليس لنا إلا أن نأسف لهذه الهفوات يقع فيها عالم جليل قلما جاد الزمان بمثلـــه، وهـــو كان أحق الناس باتباع سنة أمر الله بها في قوله: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمـــة والموعظـــة الحســـنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين} [النحل: ١٢٥/١٦] وقوله: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلـــهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} [العنكبوت: ٤٦/٢٩] وقوله: {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هـــي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} [فصلت: ٣٤/٤١].

ولو كان للمرء أن يخرج على طبعه وجبلته لاستأصلنا شرورا كثيرة، فلندع ما لا حيلـــة فيه، ولنتلمس العذر لهذه النفس الخيرة والعقل الكبير.

لم تترك الصراحة والحدة والصلابة لابن حزم صديقا ولا شفيعا عند النـــاس، يجتـــهد في الرأي الاجتهاد الصائب، ويتصيد الحجج القوية المحكمة، ثم يشوه ذلك كله بعبارات التقريـــع حتى يزهد السامع في خير الكلام وشره، وحتى لا يكون عنده في اجتهاده الصائب وحجتـــه السديدة شافع لهفوته و حدته. وقد مرت بك آنفا كلمة ابن حيان: "ولم يكـــف يلطـــف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقه بتدريج، بل يصك به معارضيه صك الجنـــدل، وينشـــقه

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥. هذا ومعلمة الإسلام تجعل زمن كتابته (طوق الحمامة) حول سنة ٤١٨ هـــ، فإن صح هذا كان كلام ابن حزم المذكور بعد أن اجتاز مرحلتين خطيرتين: دور المراهقة والفتوة وأكثر دور الشباب، وسنه حينئذ ٣٤ سنة، وكان قد مضى على انقطاعه عن مجامع صباه وعكوفه على العلم والتأليف والدعوة سنون ثمان.

إنشاق الخردل. "وأنه مع ما أوقعه عنفه فيه من المصائب والتغريب والسجن وإحراق الكتب، بقي "غير مرتدع ولا راجع".

قال الذهبي: "وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه، وشرد عن وطنه، وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار، ووقوعه في أئمة الاجتهاد، بأقبح عبارة وأفظع محاورة وأمنع تمرد. "ولست أجد في صفة لسانه كلمة أصدق من كلمة ابن عريف:"كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين" ولا والله ما يستويان فقد أفادت شدة الحجاج فوطدت ملكا وقطعت مفاسد وأمنت مخاوف ثم خلد نفعها إلى الأبد وزال ضررها بزواله. ولم يفد عنف ابن حزم شيئا بل أفسد عليه ما يرجو من نشر خير ودعوة إلى حق، ثم مات وبقيت آثار لسانه تمض كل من يقرأ كتبه سواء كان من الفرق التي نالها بالقوارص أم لم يكن:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

أما صلابته فهي في ثباته على هذا الأسلوب في علائقه مع الناس، على رغم كل ما ناله، وبقي رحمه الله طول حياته يتلقى عواقب مزاجه مما لا يحمله أقوى الرجال رجولة. ولا يزيده ذلك إلا مضيا في سبيله، وعناد في جداله وحماسة في كفاحه وعنفا في خطابه. لقد أوتي العلم، ولم يؤت سياسته وسياسة العلم – على ما قالوا – أعوص من إتقانه. قال ابن حيان: "وأكثر معايبه – عند المنصف له – جهله بسياسة العلم".

ولست أريد قدحا في ابن حزم، وقد قدمت له العذر المقبول من مزاجه وطبعه، وأنا أعلم حق العلم أن اندفاعه وغلوه في الدعوة وحماسته لها لم تكن إلا عن عقيدة وإخلاص وتفان فيما يرى أنه الحق، ومن كان في هذه المرتبة من الجهاد لم يبال الهفوات الصغار تصدر من هاهنا وهاهنا. وقد أشار إلى هذا ابن حيان بعض الإشارة حين قال: "كان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه، على استرسال في طباعه، وبذل بأسراره، واستناد على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون} [آل عمران: ١٨٧/٣]. على هذه الطباع قامت علائق ابن حزم مع الناس موافقين ومخالفين، فلننظر فيها وفي آرائهم فيه، في حياته وبعد مماته.

ط–هـ والناس

"من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون"

"ابن حزم"

أكثر ابن حزم من الحساد والأعداء ببعده عن المصانعة وانتقاده أكثر فقهاء عصره، وويل للفقهاء وويل منهم ويلا كثيرا إذا دبت بينهم العداوة والحسد. لقد تألبوا على ابن حزم وكفروه وضللوه وحذروا منه العوام والسلاطين وطاردوه بدعايتهم من بلد إلى بلد ومن بادية إلى بادية، وحذرته الملوك وتفادت لقاءه وتقربت إلى العامة باضطهاده. لقد لقي في حياته أذى كثيرا، وحمل صدره آلاما كبارا، وكان ينفس عن نفسه بعض الوقت في أبيات يرسلها تفيض عزة كما تفيض شكوى من الحساد جاء في كتابه طوق الحمامة ص ٧٩ "إن قوما من مخالفي شرقوا بي، فأساؤوا العتب في وجهي، وقذفوني بأنني أعضد الباطل بحجتي، عجزا منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله، وحسدا لي، فقلت وخاطبت بقصيدة بعض إخواني - وكان ذا فيهم – منها (الأبيات غير متتابعة):

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات ضال نضانض

يريغون في عيني عجائب جمة وقد يتمنى الليث والليث رابض

ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما يرجى محالا في الإمام الروافض

عانى ابن حزم من عصرييه ما يعاني كل عبقري: نكران فضل، وجحود إحسان، وحسدا وطعنا واتهاما. ومن حسن الحظ أن الزمان سمح لقليل من شعره بالسلامة، فلمسنا فيه شكواه وآلامه، لمسا يغنينا عن كثير من تفاصيل الترجمة، قال وقد صرح بالعوامل التي غيبت فضله عن مواطنيه، من أبيات بعث بها إلى قاض الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي (الغرب)

ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهب

ولي نحو آفاق العراق صبابة ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب

فإن يترل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب!

فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب

هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب

فيا عجبا: من غاب عنهم تشوقوا له، ودنو المرء من دارهم ذنب

وإن مكانا ضاق عني لضيق على أنه فسح مهامه سهب

وإن رجالا ضيعوني لضيع وإن زمانا لم أنل خصبه جدب[1]

لقد جرب الناس منذ القدم فوجدوا أن"المعاصرة حرمان" وأن أزهد الناس في عالم أهله وجيرانه. وقلما ظهر فضل فاضل في حياته في غير غربة. وقال من قصيدة:

أنا العلق الذي لا عيب فيه سوى بلدي وأني غير طاري

تقر لي العراق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل داري

طووا حسدا على أدب وفهم وعلم ما يشق له غباري

فمهما طار في الآفاق ذكري فما سطع الدخان بغير نار[1]

وقد تقدم لك في الكلام عن مصنفاته، قوله في إحراق كتبه، وله أشعار كثيرة طافحة بشكوى الحسد وآلامه من حساده وتقريعه الشامتين بنكبة الناس على ما عموا عن إدراكه من فضله، من مثل قوله:

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك

ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة طورا وطورا يرى تاجا على ملك[2]

ومن شدة بلاء ابن حزم أنه كان في أسرته من ناصبه العداء والحسد، هذا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الوزير الكاتب الأديب ،يضن عليه بعطفه، ويخذله، ويعين الزمان عليه وكان من حقه أن يعينه على الزمان، وتدب إليه عقارب الحسد لفضل ابن عمه، وكان عليه أن يكون أول فخور به. أرسل إليه رسالة عاقة جافية، اضطر ابن حزم أن يجيبه عليها بما يلي:

(١) ياقوت، المقري. المهامه: الفيافي، السهب: الواسعة.

(١) ياقوت – والعلق: التحفة النفيسة التي تعلق.

(٢) ياقوت والمقري.

[1][سمعت وأطعت لقوله تعالى: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون} [الأعراف: ١٩٨/٧] وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة السلام: ((صل من قطعك واعف عمن ظلمك)) ورضيت بقول الحكماء: (كفاك انتصارا ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه) وأقول:

تتبع سواي امرأ يبتغي سبابك إن هواك السباب

فإني أبيت طلاب السفاه ونزهت عرضي عما يعاب

وقل ما بدا لك من بعد ذا وأكثر فإن سكوتي خطاب

وأقول:

كفاني بذكر الناس لي ومآثري ومالك فيهم - يا ابن عمي - ذاكر

عدوي وأشياعي كثير، كذاك من غدا وهو نفاع المساعي وضائر

وإني وإن آذيتني وعققتني لمحتمل ما جاءني منك صابر]

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته:

"قرأت هذه الرقعة العاقة، فحين استوعيتها أنشدتني:

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها، فقالت لي نفسي: قد عرفت مكانها، بالله لا قطعتها إلا يده فأثبت على ظهرها ما يكون سببا إلى صونها فقلت:

نعقت و لم تدر كيف الجواب وأخطأت حتى أتاك الصواب

وأجريت وحدك في حلبة نأت عنك فيها الجياد العراب

وبت من الجهل مستصحبا لغير قرى فأتتك الذئاب

فكيف تبينت عقبى الظلوم إذا ما انقضت بالخميس العقاب

لعمري ما لي طباع تذم ولا شيمة يوم مجد تعاب

(١) هذه المراسلة في نفح الطيب للمقري الجزء الأول ترجمة ابن حزم.

أنيل المنى والظبا سخط وأعطي الرضا والعوالي غضاب

وأقول:

وغاصب حق أوبقته المقادر "يذكرني (حاميم) والرمح شاجر"[1]

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر

ألم تتعلم يا أخا الظلم أنني برغمك ناه منذ عشر وآمر

تذل لي الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر

وأبعث في أهل الزمان شواردا تلينهم وهي الصعاب النوافر

فإن أثو في أرض فإني سائر وإن أنأ عن قوم فإني حاضر

وحسبك أن الأرض عندك خاتم وأنك في سطح السلامة عاثر

ولا لوم عندي في استراحتك التي تنفست عنها والخطوب الفواقر

فإني للحلف الذي مر حافظ وللترعة الأولى بحاميم ذاكر

هنيئا لكل بما لديه فإننا عطية من تبلى لديه السرائر

بهذه الشدة كانت معاملة أقربائه، وقديما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

* * *

إجماع فقهاء عصره على تضليله، ونزعته السياسية في عصبيته لبني أمية على غيرهم من قريش، وتوحش الحكام عادة ممن سبقت له سلطة وانتزعت منه... جعلت من حياة ابن حزم معارك متلاحقة لا ينفض عن نفسه غبار معركة حتى تقوم له أخرى يذكيها حساده ومنافسوه. جادل اليهود والنصارى أشد جدال وأقساه، ثم نازع أرباب المذاهب من

(١) الشطر الثاني من مقطوعة قيلت في حرب الجمل: فإنه لما اشتدت المعركة أتى محمد بن طلحة إلى السيدة عائشة فقال: "يا أماه مريني بأمرك" قالت: "آمرك أن تكون كخير ابني آدم إن تركت" فحمل فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وقال: "حم لا ينصرون" واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال:

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعا لليدين وللفم

يذكرني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

المسلمين فلم يرفق بهم في شيء قط، "و كانت له معهم مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة"[1]، واستطاع أن يجلب جماهير إلى مذهبه، مما حرك خصومه أن يرصدوا له ويسدوا عليه الطرق. و لم يتنفس إلا أياما قليلة في جزيرة ميورقة، تحت ظل حاكمها ابن رشيق، وكان قد دخلها لينشر مذهبه الظاهري بدعوة من الحاكم نفسه على ما مر بك سابقا.

قامت مناظرات عديدة بينه وبين الفقيه أبي الوليد الباجي، فكان إذا غلبت حجة ابن حزم عيره الباجي بغناه، وأدل عليه بالفقر، وقد مر معك جواب ابن حزم المفحم للباجي.

وسبب الخصام بينهما هو محمد بن سعيد من أهل ميورقة فإنه على ما ذكر ابن الأبار "صدر[2] إلى ميورقة وقعد لإقراء الفقه والأصول، ولما دخلها أبو محمد ابن حزم كتب ابن سعيد هذا إلى الباجي فسار إليه من بعض سواحل الأندلس وتضافرا جميعا، وناظراه فأفحماه وأخرجاه منها، وكان ذلك سبب العداوة بين الباجي وابن حزم".

قال المقري[3] "وجد لكلام ابن حزم طلاوة، إلا أنه كان خارجا عن المذهب، و لم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه. واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (سبحان الله يا مقري) وحل بجزيرة ميورقة فحل فيها واتبعه أهلها. فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره وشهر باطله[1] وله معه مجالس كثيرة".

هكذا قال المقري، وقد رأيت فيما سبق (ص٣٨) أن الباجي كان يتقعر في التنقير على ما يعيب به ابن حزم حتى إذا لم يجد عمد إلى ذكر غناه، ومع هذا فانظروا الإنصاف وقول الصدق عند ابن حزم حين عرض لذكر خصمه الباجي فقال:

"لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم." لقد كان ابن حزم في هذا كبير النفس نبيلها.

وأشد من جرد على ابن حزم لسانه فيما أحسب: القاضي أبو بكر ابن العربي، بعد أكثر من مئة عام، وقد عرفت رأيه الظالم في الظاهرية فتأمل شهادته في ابن حزم، قال:

---

(١) إرشاد الأريب.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٤٤٣.

(٣) نفح الطيب ١/ ٣٥٤.

(١) كان ذلك نحو عام ٤٤٠هـ على ما ذهبت إليه معلمة الإسلام.

"[٢]...وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، فلما عـــدت وجـــدت القـــول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم: نشـــأ وتعلـــق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل واستقل بنفسه، وزعم أنه إمـــام الأئمـــة يضع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه، ويقول عن العلمـــاء مـــا لا يقولوا، تنفيرا للقلوب عنهم، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله تعالى فجاء فيه بطـــوام، واتفق بين قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا فيتضاحك مع أصحابـــه منهم. وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ونسبة كان يوردها على الملـــوك، فكـــانوا يحملونه ويحموه لما كان يلقي إليهم في شبه البدع والشرك. وفي حين عودتي مـــن الرحلـــة ألفيت حضرتي منهم طافحة، ونار ضلالتهم لائحة، فقاسيتهم مع غير أحـــزان، وفي عـــدم أبصار إلى حسان يطؤون عقبي(؟) تارة تذهب لهم نفسي وأخرى تنكسر بهم ضرسي. وأنـــا ما بين إعراض عنهم وتشغيب بهم.

وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت السلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهـــي، وجاء آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة الغرة. والأمر أفحش من أن ينتقض..."

هذا وإليك قصيدته التي يشرح فيها ما لاقى من الناس فيما خص موقفه الديني فقط:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل العدا محن

فقلت هل عيبهم لي أني لا أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن

وأنني مولع بالنص لست إلى سواه أنحو ولا في نصره أهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين ، بل حسبي القرآن والسنن

يا بردذا القول في قلبي وفي كبدي ويا سروري بهم لو أنهم فطنوا

دعهم يعضوا على صم الحصى كمدا من مات من قوله عندي له كفن

إني لأعجب من شأني وشأنهم واحسرتا إنني بالناس ممتحن

ما إن قصدت لأمر قط أطلبه إلا وطارت به الأظعان والسفن

أما لهم شغل عني فيشغلهم أو كلهم بي مشغول ومرتهن

(٢) تذكرة الحفاظ.

كأن ذكري تسبيح به أمروا فليس يغفل عني منهم لسن

إن غبت عن لحظهم ماجوا بغيظهم حتى إذا ما رأوني طالعا سكنوا

دعوا الفضول وهبوا للبيان لكي يدري مقيم على الحسنى ومفتتن

وحسبي الله في بدء وفي عقب بذكره تدفع الغماء والإحن

هذه المقاومة الشديدة، وإن ضايقت ابن حزم ونغصت عيشه، أجدت على المكتبة العربية وعلى العلوم أعظم الجدوى: فقد اضطرته إلى أن يجرد لسانه وقلمه و يتجول مجاهدا في سبيل دعوته واعظا ومعلما ومؤلفا، قال في رسالته (مداواة النفوس ص ٣٠): "انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة: وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري وحيي فكري وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف".

فإلى هؤلاء يعود إذا فضل غير مباشر بما ننعم به من ثمرات هذا الفكر الخصب، والله سبحانه زاوج في هذه الدنيا بين الخير والشر، فليس عليها خير محض ولا شر محض.

والظاهر أن الحملة عليه لم تنقطع بمماته، ولم تقتصر على ابن عربي كما ستعرف بعد قليل.

ترى هذا النمط من المتحاملين وإلى جانبه وطرازا آخر من الناس، أخذوا أنفسهم بقول الحق فذكروا المحاسن والهفوات، من هؤلاء أبو مروان بن حيان وقد مر بك أكثر قوله فيه بمناسبات مختلفة وخاتمته قوله: "...إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء".

قال الذهبي عقب روايته لكلام ابن حيان: "هذا القائل منصف، فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي وهضمه لمعارف ابن حزم".

وبعد أن أورد ابن حيان شعره في نعي نفسه قال:

"ويا لبدائع هذا الحبر علي وغرره، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها و الطامسين لمحاسنها. وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه، فأزهد الناس في عالم أهله، وقبله ردي العلماء بتبريزهم على من يقصر عنهم، والحسد داء لا دواء له".

قلت (المتكلم ابن بسام):

"ولعمري ما عقه، ولا بخس حقه"[1].

ومن هؤلاء المنصفين الحافظ الكبير العدل الحجة الإمام الذهبي فقد شهد بأن "ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة. تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهبة كما يقع لغيره. وكل أحد يأخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ".

وصف ابن حزم مثبطات مجمعه الأندلسي وصفا دقيقا، ولئن كان أجاد وطبق المفصل، إنما كان يصف ما عانى منه هو نفسه خاصة. والوصف بالجملة عام ينطبق على كل عالم نبغ بالأندلس فلنختم هذا الفصل بكلمته فإن فيها تاريخا وبلاغا قال:

"وأما[2] جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر: أزهد الناس في عالم أهله. وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده. وقد تيقنا ذلك.

بما لقي النبي ﷺ من قريش، وهم أوفر الناس أحلاما وأصحهم عقولا وأشدهم تثبتا، مع ما خصوا به من سكانهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس، والله يؤتي فضله من يشاء. ولاسيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قولوا: سارق مغير ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط،.وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفي أي زمن قرأ؟ ولأمه الهبل. وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفا دائما يعليه على نظرائه، أو سلوكا في غير السبيل التي عدوها، فهنالك حمي الوطيس على البائس وصلو غرضا للأقوال وهدفا للمطالب ونصبا للتسبب إليه ونهبا للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه.وربما نحل ما لم يقل وطوق ما لم يتقلد، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه وبالحراء – وهو المبرز السابق إن لم يتعلق من السلطان بحظ- ألا يسلم من التالف وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غمز ولمز، وتعرض له وهمز واشتط عليه وعظم يسير

(١) مجلة المقتبس ١: ٦.

(٢) نفح الطيب ٢: ١٣٠.

خطبه، واستشنع هين سقطه، وذهبت محاسنه وسترت فضائله، وهتف ونودي بما أغفل، فتنكسر لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته وهذا عندنا يصيب من ابتدأ يحوك شعرا، أو يعمل بعمل رياسة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النصب إلا النلهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد.)

هذا ما تناهت إليه حاله مع الفقهاء والحكام وقد مضى الجميع إلى ربهم يحاسبهم وهو سبحانه يضع الموازين القسط، ولا تظلم عنده نفس شيئا.

وموضع الإشفاق في نكد ابن حزم أن خصومة الناس له لم تقطع بموته بل استمر حظه السيئ ينسج حول اسمه ذيولا من الانتقاص و التعنت في محاسبته، حتى نهى الشيوخ فيما بعده عن قراءة كتبه، وحتى صرت ترى العالم أو المؤلف، إذا استفاد من حكم لابن حزم أو اقتبس شيئا من كلامه في تصانيفه عقب عليه بما يشعرك بعدم الاحترام، ولست أحيلك على كتب الفرق التي خاصمها ابن حزم واشتد عليها[1]، وإنما أعرض عليك مثلا واحدا منتزعا من كتاب لأحد أعلام أهل السنة، تجد له أمثالا كثيرة في تضاعيف المؤلفات نقل الزرقاني في (شرح المواهب) رأي ابن حزم في تفضيله أزواج النبي محمد ﷺ على السيدة فاطمة وغيرها، فلم يسعه إلا أن يجود بهذه العبارات: (قاله من لا يعتد به !!!!...وهو قول ساقط مردود ضعيف لا مستند له نظر ولا نقل!!)[1].

وليس كل من خالف الجمهور في مسألة يقال له هذا، وليس ابن حزم بالذي يرسل القول ضعيفا من غير مستند له من نظر أو نقل، وسترى قوة حين تصل إلى رسالته ((في المفاضلة بين الصحابة))

(١) ولا بأس أن تطلع من ذلك على عواطف إمام مجتهد شيعي هو بلدينا وعصرينا السيد محسن الأمين العالمي من معتدلي الإمامية والقائلين بالتقريب بين مذاهب المسلمين، ولك أن تقيس على عواطفه –

– نحو ابن حزم عاطفة غيره من الشيعة ممن هم أقل اعتدالا وأشد عصبية. قال يذكر رأيه في كتاب ابن حزم الكبير الفصل في الملل والأهواء والنحل: "وأمامنا الآن الجزء الثالث من كتاب ابن حزم المسمى بالفصل في الملل والنحل، المطبوع بمصر، وقد وجدنا فيه من الكذب والافتراء على الشيعة مصادمة الحقائق بالإنكار وإظهار النصب والعداوة لأهل البيت وشيعتهم وأتباعهم وإطلاق لسانه بالسوء ما تقشعر منه الأبدان فاكتفينا بإيراد شيء من ذلك وتفنيده لأن استقصاء سخافاته كلها وتفنيدها يطول به الكلام وأكثره واضح البطلان" . اهـ أعيان الشيعة ١: ٩٦.

(١) شرح المواهب ٣:٢٢٥ وممن ذهب في ابن حزم هذا المذهب، السبكي في طبقاته فقد قال عن كتابه (الفصل): (كتابه هذا من أشهر الكتب، وما برح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه لما فيه من الازدراء بأهل السنة، وقد أفرط فيه في التعصب علي أبي الحسن الأشعري حتى صرح بنسبته إلى البدعة. اهـ انظر كشف الظنون ٢:٥٧١

والظاهر أن خصومة الناس للرجل حيا وميتا رزق من الله لا يؤتيه في الغالب إلا المخلصين الأحرار، الصداعين بالحق الجباهين به . جعل الله جزاء ابن حزم من جهاد أكثر مما لاقى في حياته من عنت الناس وأذاهم وكيدهم.

ي_ وفاته

استقرت النوى[1] بهذا المجاهد العظيم، بعد أن طوف مدن الأندلس ورحل إلى القيروان وجزيرة(ميورقة): يلفظه بلد إلى بلد، وتقذفه بادية إلى بادية، حتى أراد الله له الطمأنينة فاستراح إلى الأبد في قريته بالبادية من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم: مطاردا منفيا. استأثر الله بروحه في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦هـ[2] ودفن بقريته (متلجتم) التي هي ملكه وملك آبائه قبله. وختمت بوفاته إحدى وسبعون سنة قمرية وأحد عشر شهرا إلا يومين. قضاها في كفاح ونضال، ومرارة ونفي وإيذاء وتشريد، صابرا محتسبا مستسيغا ما يناله باحتمال عجيب وثبات عنيد، لا يجد لكل ذلك خطرا في جنب الله ولقد نعى – رحمة الله – نفسه بأبيات أنشدها وكأنه يطلع في صفحة الغيب، قال:

كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم : أودى علي بن أحمد

فيا رب محزون هناك وضاحكوكم أدمع تذرى وخد مخدد

وأترك ما قد كنت مغتبطا به عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد وألقى الذي أنسيت ذكرا بمرصد

فورا حتى كان زادي مقدما ويا نصبي إن كنت لم أتزود[1]

وبوفاته بدأ يشق طريقه إلى الخلود، وطفقت حسرة الناس تعظم لفقده وأخذوا يشعرون شعورا قويا بعظم النكبة فيه.

فعرفوا له _ حسب العادة في الشرق_ مترلته وعبقريته، وبوؤوه المكان اللائق به فكان أفحل ذهن انبثقت عنه الأندلس في الأندلسية في جميع عصورها. وهو في رأيي الذهنية الفريدة التي تمثل الثقافة الأندلسية أصدق تمثيل ، ولست أرى هذه الميزة لآخر سواه .

---

(١) ذكر الذهبي عن أبي الخطاب بن دحية أن ابن حزم "قد برص من أكل اللبان وأصابه زمانة" – تذكرة الحفاظ.

(٢) هناك تاريخ آخر تفرد به محمد بن الغزال، فقد روى عنه الذهبي أنه قال: "توفي في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين" ثم قال الذهبي: "وأرخه في سنة ست غير واحد" ا هـ. قلت: وقد أجمع المترجمون له على أن الوفاة في سنة ست فلا يلتفت إلى الرواية الشاذة.

(١) إرشاد الأريب. مجلة المقتبس: المجلد الأول. وفي إرشاد الأريب رواية ثانية لعجز البيت الرابع هذا نصها: وألقى الذي آنست منه بمرصد.

خلف من البنين غير أبي رافع الذي تقدم ذكره مرارا: أبا أسامة يعقوب وأبا سـليمان[٢]، فنشروا معارف أبيهم وحفظوها جهد طاقتهم. رحمه الله وجزاه عن الحق وأهله خيرا.

(٢) معلمة الإسلام (ابن حزم).

القسم الثاني رسالة في المفاضلة بين الصحابة تأليف ابن حزم الأندلسي الظاهري

عني بتحقيقها و مقابلتها و التعليق عليها و فهرستها

سعيد الأفغاني

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

أعثرني على هذه الرسالة، اشتغالي بالبحث في السيدة عائشة، وحداني على إعدادها للطبع أنها كرسالة (الإجابة)[1] ذات علاقة بالسيدة عائشة، لأن ابن حزم ألفها ليشرح مذهبه في المفاضلة، ومذهبه يجعل أمهات المؤمنين أفضل الناس بعد الأنبياء ثم يجعل أفضلهن خديجة وعائشة.

هذه الرسالة محفوظة في دار الكتب الظاهرية ضمن مجموعة خطية رقمها (٤٥أدب) حجمها ١٣,٢ × ١٧,٢ س.م مكتوبة بخط نسخي. وكثيرا ما يلتزم الناسخ ترك التنقيط. ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن وقت صلاة العصر من يوم السبت السابع والعشرين من رجب سنة ٧٥٥هـ . وفي أعلى الصفحة الأولى من الكتاب هذا الكلام: ((كتاب فيه المفاضلة بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين)) في سطرين، وتحتهما ((تصنيف ابن حزم الظاهري))

وفي أسفل الصفحة أثبت الناسخ هذه الأبيات:

إن لله رجالا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي قطنا

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

بخط غير منقوط وجعل كلمة (سفنا) سطرا رابعا. وفي ذيل الصفحة أعاد اسم المؤلف (ابن حزم الظاهري)

أما الناسخ فغير معروف، والظاهر أنه عامي لأن الأغلاط في النسخة فاشية، والآيات الكريمة محرفة، وفيها نقص في مواضع كثيرة مخل بالمعنى، مما يدل على أن ناسخها لا نصيب له من العلم.

(١) "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة" للإمام الزركشي، طبعتها المكتبة الهاشمية بدمشق قبل شهور.

لم أكد أقرأ هذه الرسالة حتى عزمت على استنساخها وتهيئتها للنشر، فدفعتها إلى الناسخ وشرعت أحضر مقدمتها، وإني لعاكف على التدقيق في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) إذا بي أقرأ هذا العنوان: (في المفاضلة بين الصحابة) فدهشت وجعلت ألتهم سطور الموضوع فإذا هو عين ما في ذاكرتي من النسخة الخطية مع خلاف يسير فوقفت النسخ وطفقت أقابل بين المخطوط والمطبوع، فإذا الأمر كما قررت، فوقعت في حيرة وهرع إلي أمين المكتبة فشده لما عرف، وأخبرني أن هذه النسخة المخطوطة استنسخها منذ أكثر من عام ناشر فاضل في مصر، وفكر في طبعها اثنان من أجلاء العلماء بدمشق،وهذان وذلك لا يعرفون أنها هي المطبوعة في كتاب ابن حزم الكبير. ولم نقض عجبا مما وقع وكيف خفي الأمر على أولئك الأجلاء وغيرهم وهو حادث لم يعهد مثله تاريخ دار الكتب قط.

عدلت عن المضي ثم بدا لي أن أنفذ ما كنت عزمت عليه لأمرين: الأول طرافة البحث و كون صاحبه سلك فيه طريقة منطقية محكمة، فمن الخير أن تفشو بين الناس ويستفيدوا منها مجلوة في قالب علمي متقن. والثاني أن بالمطبوع نقصا عن المخطوط في بعض المواضيع وفي المخطوط نقص عن المطبوع في بعض، هذا إلى خلاف يسير في بعض الجمل وتحريف ونقص في أسماء بعض الأعلام في المطبوع والمخطوط معا، فأخذت أسجل الفروق وأصحح الخطأ وأعلق حيث الحاجة إلى التعليق.

ورجعت في ضبط الأعلام إلى كتب الطبقات المشرقية والمغربية، وأخذت أترجم لهم تراجم سلكت فيها طريقة خاصة بهذا الكتاب: فما كان من الأعلام بحيث لا يجهله أحد كأبي بكر الصديق رضي الله عنه مثلا أو كان محدثا من جمهرة المحدثين، اكتفيت بذكر نسبه وصنعته وولده ووفاته وبعض ميزاته أحيانا، ومن كان منه ذا شأن خاص في هذا الكتاب كمكي بن أبي طالب الذي اعترض على ابن حزم أو غيره ممن اعتمد ابن حزم كلامهم أو رده عليهم أفضت فيها بعض الإفاضة[1].

ومع أن كثيرا من هؤلاء الأعلام أندلسي لا تجد له ترجمة في كتبنا، اغتبطت بفوزي بالترجمة لهم، وهم فوق المئة والخمسين في رسالة ابن حزم هذه. ولم يعجزني غير عشرة منهم بعد أن أشهدت الله على بذل الجهد، وأعذرت إلى نفسي في إفراغ وسعها. وقد جعلت هذه التراجم مرتبة على الحروف وذيلت بها الرسالة ولم أبعثرها في حواشي الصحف، لأن

(١) أضفت إلى أعلام الرسالة شيوخ ابن حزم وتلاميذة الذين ذكرتهم آنفا في دراستي له فقط.

ذلك أرفق بالقارئ من جعلها مبعثرة في الحواشي فتشتت ذهنه، وربما لم يكن لبعض القـــراء في هذه التراجم حاجة، هذا عدا التشويه الذي يحمله الكتاب فقد يكون أحيانا في الســـطر الواحد خمسة أعلام فيرتبط به خمس حواش، وهو شيء ينبو عنه الذوق السليم.

ثم التزمت في ترقيم النسخة طريقة تجعل القارئ على إلمام بتفاصيل النسختين وتباينـــهما من غير أن أكلفه عناء الرجوع إلى الحواشي حيث يمكن الجمع في المتن. وسأنبه على ذلـــك في ذيل هذه الكلمة.

وأمر آخر عنيت به، وهو أن هذا البحث في الخطية والمطبوعة كأنه جملة واحدة، فمـيزت بين المواضيع المختلفة وجعلت له أبوابا وعناوين تنبه القارئ إلى تغير الموضوع وتطرد عنـــه الملل، ولو يكن إلا هذا لكان سببا كافيا في إفرادها بالنشر نشرا مضبوطا (مفننا).

***

أجمل ما يعجبني من ابن حزم في هذه الرسالة ما قمت من التزامه ترتيب أفكاره طريقـــة منطقية محكمة: مهد لبحثه بكلمة عن معنى الفضل ووجوه المفاضلة حتى إذا قرر مـــا يريـــد منها ورسم خطة البحث بعد تحديده أدرج رأيه في فضل أزواج الرسول ﷺ بلا احتجاج لـه، ثم استعرض آراء المخالفين فعرضها عرضا شافيا، ثم شرع في تمهيد الاحتجاج لرأيـــه، ورد الآراء المختلفة، وهنا ينتهي ما جعلته بابا أول.

في الباب الثاني يسرد حججه في فضل الأزواج مستمدة من الكتاب والســـنة وصحيـــح الخبر، واقفا عند النصوص، ممعنا فيها تدقيقا وتحليلا واستنباطا. ويورد لك جميـــع حجـــج المخالفين، ويناقش نصوصها مناقشة فنية من جهة الحديث والأصول. وهنا يبدو لك تمكنـــه العظيم من علوم الدين، ثم ينصب نفسه محاميا عدلا، فيذكر جميع الاعتراضات والشبه الـــتي ترد على مذهبه، وينقد ما يقدم بين يدي الشبهة على أنه حجة، متنا وسندا حتى إذا دفـــع جميع الاعتراضات ذكر الرأي في فضل عائشة وخديجة على سائر أمهات المؤمنين. ويتم بهذا، الشطر الأعظم من الموضوع.

وفي الباب الثالث يعين لنا أفضل الصحابة بعد أمهات المؤمنين، مهتما بصـــورة خاصـــة بجدال الشيعة وآرائهم، ويقيم البراهين على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، أكثر جـــهادا من علي وأعلم وأوسع رواية وفتيا وأقرأ وأتقى وأزهد وأكثر صدقة وأســـبق إلى الإســـلام

و... من علي وسائر الصحابة. ويعدد فضائل الصديق في القرآن والحديث، ثم يجعل عمر في المرتبة التالية له، ثم يوازن بين عثمان وعلي فيفضل عثمان لأسباب ذكرها. ثم يجعل بعد الخلفاء الراشدين طبقة البدريين ثم أهل المشاهد على الترتيب... ويلي الصحابة في الفضل التابعون. ويختم كتابه بكلام محكم سديد في عدم فضل القرابة، وأن الدين لم يجعل لقريب فضلا لمحض قرابته، ويناقش النصوص التي يؤولها الجاهلون، ويبين ببيان شاف أن الإسلام سوى بين الناس كافة، تسوية صريحة واضحة عامة شاملة لا يعروها شذوذ ولا استثناء.

***

هذا عرض موجز لطريقته في ترتيب موضوعه: تقرير للأسس ثم بسط للدعوى، ثم استعراض آراء الخصوم وشبههم، ثم دفع للشبه وبرهان للدعوى، وهي طريقة محكمة كاملة.

والرسالة تعلم الحوار المضبوط، والمناقشة الدقيقة، والجدل الصحيح القوي، وتبدو لنا براعة ابن حزم في تحليل النصوص وجودة الاستنباط منها ودقة الفهم لها، بالغة الغاية خاصة في ص ٢٤- ٢٦ من الأصل المخطوط حين يرد اعتراض المحتج بحديث: ((أسامة أحب الناس إلي))، ((الأنصار أحب الناس إلي)) لقد وازن الروايات المختلفة، وعرض للراوين لها تعديلا وتجريحا وتجلى لنا إماما بارعا في الحديث وفنونه، شديد التمكن منه، كثير التدقيق فيه.

وانظر غوصه ودقته حين يقرر الفروق بين السيادة والفضل واستنتاجه من خطبة الصديق مالا يخطر ببال مخلوق، ومع هذا لا يسع قارئها إلا التسليم بما ذهب إليه مع الإعجاب والإكبار.

وأمر آخر أعجب، وهو أن في عقيدتك وعقيدة عامة المسلمين، حتى الذين يفضلون الصديق على الإمام علي، أن عليا أكثر جهادا وزهدا، فاقرأ إذن هذه الرسالة، وأمعن في حجج ابن حزم وأدلته ثم أخبرني: هل بقي لعقيدتك السالفة من أثر قط؟

وهو في هذه الرسالة – كما في سائر كتبه – ظاهري قوي الظاهرية واضحها، وقـــاف عند النصوص، بل عند حرفيتها يستنبط منها ما شاء الله له، وتلك أبرز صفاته في مؤلفاته.

تراه بعد أن يقرر فضل أبي بكر رضي الله تعالى عنه، لا يفرض عليك بعده مذهبا ما، هـو يرى عليك من الحتم أن تعتقد بفضل أمهات المؤمنين وأن أفضلهن خديجـــة وعائشـــة، وأن أفضل الناس بعدهن الصديق، لأن النصوص على هذا تواردت، وأنت حر في أن تعتقد بعـــد ذلك بفضل من شئت، عمر، علي، أسامة، بلال.. من شئت، لا يتحتم عليك شـــيء، لأن النصوص هناك وقفت. قال بعد ذكره للحديث الذي ينص على أن أحب الناس إلى النـــبي عائشة ثم أبوها:

(فقطعنا بهذا ثم وقفنا، ولو زادنا رسول الله ﷺ لزدنا لكنا لا نقول في شرع من الديـــن إلا بما جاء به النص).

وأنت خبير أن هذا الموضوع هو الذي خلق المذاهب السياسية في صدر الإسلام، وهـــو الذي فرق الفرق، وخلف لنا البلاء الأطول، مما دسه المغرضون والدخـــلاء وذوو الطوائـــل والنيات الفاسدة، فجعلوه من الدين وما هو إلا خطط سياسية مستترة، الدين منها بريء.

أما تزييفه فهم بعض الناس لـــ (ذوي القربى والقرابة) فشيء ما رأيت في حياتي كلامـــا أسد منه ولا أضبط، ولا أكثر إحكاما ولا أقوى قوة. هو آخر ما يبلغه عقل كامل منصـــف يقف عند النصوص الصحيحة، وأشهد ما ترك بعده لقائل مقالا قط، وأن الله آتاه فيه فصـــل الخطاب.

وأما الخاتمة التي أظهر فيها ميزة الإسلام وروحه، ظاهرة صريحة غير متعتعة، فهي مجيـــدة حقا، ممتازة صدقا، وإذا لم نجد هذه النزعة السامية الإنسانية النبيلة في الإسلام فأين لعمـــري نجدها؟ التسوية بين البشر كافة هي سمة الإسلام قبل أربعة عشر قرنا، طبقـــها المســـلمون الأولون عملا فنعم بخيرها أجناس وطوائف شتى، وهي آخر ما يطمح إليه الإنسانيون مـــن فلاسفة أوربة وأمريكة.. فلينتظروا

***

ولا يسعني في الختام إلا أن أبدي حسرة شديدة على شيء في مزاج ابن حزم، لا حيلة لنا فيه، ولعله هو نفسه أيضا لم تكن له حيلة فيه، هو هذا العنف والسباب الذي يتخلل جدلـه، والذي لولاه لكان من الكاملين حقا، ولكن الكمال لله والعصمة لأنبيائه، ومن أين لغـــيرهم أن يكمل من كل وجه.

في هذه الرسالة جمل نستحي منها ونعتذر لها ونود لو لم تكن:

لأنها لا تقدم في قوة البحث ولا تؤخر، وأستغفر الله إنها عيب البحث الوحيد، وإذا كـــان المجادل الضعيف يستر ضعفه بالتهجم على خصمه والطعن فيه، فإن سيلان هذه الجمل علـــى قلم رجل قوي العلم متين الحجة كابن حزم، لمن أغرب الأمور.

وددت كما قلت لو استطعت أن أحذف من الرسالة أمثال قوله:

(إن عارضنا معاند أو جاهل أو قليل الحياء)، (وهذه القحة المجردة والبهتان)، (كذب هـذا الآفك)، (كذب هذا الجاهل)، (اعترض بعض أهل القحة..)، (هذه مجاهرة بالباطل)، (قحـة الروافض وجهلهم وسخفهم)، (ولو كان لهؤلاء الأرذال حياء أو علم).. إلخ وددت إتلافها، ولكن ما حيلتي بأصول الإخراج، وأمانة التاريخ، وعملية النشر؟ فلنقبل ابن حزم على علتـه،

ولنروض أنفسنا على المرور بهذه الهنات وقد عرفت من دراسة حياته أن مزاجه هذا جر عليه ألوان البلاء، فما استطاع عنه زحزحة قط.

غفر الله لابن حزم، وألهم خصومه مسامحته، فقد قدس في حياته الحق تقديسا، ورفع من شأن العقل الحر، وترك لنا بين الأمم تراثا ممتازا لم يتح لغيره أن يضارعه بمثله. أثابه الله وأسعده برضوانه، كفاء ما نصر الحق والدين، واحتمل في سبيلهما ما احتمل، وأكرم علمه الواسع وعقله الحصيف وفكره الخصب. ورحم ذلك الجهاد الطويل والنضال المتواصل والصبر على الناس.

دمشق:

سعيد الأفغاني

تنبيه: الأرقام في الهامش تشير إلى صحف الأصل المخطوط. وما بين ( ) زيادة النسخة الخطية على المطبوع، وما بين [ ] زيادة المطبوع على المخطوط. وما بين (( )) في الحاشية النص في المطبوع وقد يشار إليه أحيانا بحرف: ط.

فالقارئ بلمحة واحدة يدرك الخلاف بين النسختين والزيادات والنواقص بأخصر طريق وألطفه، دون أن يقطع على نفسه تساوق الحديث وتسلسل المعاني.

الباب الأول

تمهيد

[في بيان الفضل والمفاضلة وعرض الآراء المختلفة]

قال الإمام أبو محمد رحمه الله:

الكلام في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة (ومن بعدهم) واختلف المسلمون فيمن هو أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم السلام.فذهب بعض أهل السنة وبعض المعتزلة وبعض المرجئة وجميع الشيعة: إلى أن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وقد روينا هذا [القول] أيضا[1] عن بعض الصحابة (عمار بن ياسر والحسن بن علي) وعن جماعة من [التابعين و] الفقهاء. وذهبت الخوارج كلها وبعض أهل السنة وبعض المعتزلة وبعض المرجئة: إلى أن أفضل الناس[2] بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ثم[3] عمر.

وروينا عن أبي هريرة [رضي الله عنه]: أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، جعفر بن أبي طالب، وبهذا قال أبو عاصم النبيل[1] وهو الضحاك بن مخلد وعيسى بن حاضر. قال عيسى: وبعد جعفر حمزة [رضي الله عنه] وروينا عن نحو عشرين من الصحابة: أن أكرم الناس بعد[2] رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وروينا عن أم المؤمنين عائشة [رضي الله عنها] مات رسول الله ﷺ و[ثلاثة] رجال لا يعتد [أحد] عليهم بفضل: سعد[3] بن [معاذ] وأسيد بن حضير وعباد[4] ابن بشر. وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين [رضي الله عنها]: أنها تذكرت الفضل ومن هو خير، فقالت:((ومن [هو] خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول ﷺ)). وروينا عن مسروق بن الأجدع وتميم بن حذلم[1] وإبراهيم النخعي

---

(١) "نصا".

(٢) "الصحابة".

(٣) "و".

(١) في الأصل: (النبيلي) والتصحيح عن ط و تهذيب التهذيب.

(٢) "على".

(٣) "يعد" في الأصل (يعتمد) والتصحيح عن الإصابة فقد جاء في ترجمة عباد بن بشر: وقالت عائشة: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ و... إلخ. وفي ترجمة سعد بن معاذ روي عنها بهذا اللفظ: كان في بني عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر.

(٤) في الأصل عياذ والتصحيح عن ط وعن كتاب الإصابة.

(١) في الأصل: حذام وهو خطأ، والتصحيح عن ط وكتاب (تهذيب التهذيب).

وغيرهم: أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، عبد الله بن مسعود. قال تميم وهو من كبار التابعين: ((رأيت أبا بكر وعمر فما رأيت مثل عبد الله بن مسعود)). وروينا عمن[٢] أدرك النبي ﷺ : ((أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، عمر بن الخطاب وأنه أفضل من أبي بكر [رضي الله عنهما])). وبلغني عن محمد بن عبد الله الحاكم النيسايوري: أنه كان يذهب إلى هذا القول. وقال داود بن علي الفقيه [رضي الله عنه]: ((أفضل الناس بعد الأنبياء (عليهم السلام) أصحاب رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة: الأولون من المهاجرين، ثم الأولون من الأنصار، ثم من بعدهم منهم. ولا أقطع[٣] على إنسان منهم بعينه أنه أفضل من الآخرين[٤] من طبقته)). وقد روينا[٥] عن متقدمي العلم ممن[٦] يذهب إلى هذا القول. وقال لي يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري[٧] غير ما مرة: [أن] هذا هو قوله ومعتقده.

[رأي ابن حزم]

* قال أبو محمد* :والذي نقول به وندين الله تعالى به[١] ونقطع على أنه الحق عند الله تعالى[٢]: أن أفضل الناس بعد الأنبياء [عليهم السلام]، نساء رسول الله ﷺ ثم أبو بكر.ولا خلاف بين أحد من المسلمين في أن أمة محمد ﷺ أفضل الأمم بقول[٣] الله عز وجل: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وأن هذه (الآية) قاضية على قول الله[٤] عز وجل لبني إسرائيل: (وأني فضلتكم[٥] على العالمين) و [أنها] منبئة أن[٦] مراد الله تعالى بذلك[٧]: (على) عالمي[٨] الأمم حاشا هذه الأمة.

* قال أبو محمد*: ثم نقول وبالله [تعالى] التوفيق: إن الكلام المهمل دون تحقيق المعنى المراد بذلك الكلام فإنه طمس للمعاني، وصد عن إدراك الصواب، (وتعجيز) وتعويج[٩] عن

(٢) "عن بعض من".
(٣) "تقطع".
(٤) "آخر".
(٥) "رأينا".
(٦) "من".
(٧) "النمري".
(١) "عليه".
(٢) "عز وجل".
(٣) "لقول".
(٤) "قوله تعالى".
(٥) "وفضلناكم".
(٦) "لأن".
(٧) "من ذلك".
(٨) "عالم".
(٩) "تعريج".

الحق، وإبعاد عن الفهم، وتخليط وعمى. فلنبدأ بعون الله وتأييده بتقسيم وجوه الفضل التي يستحق[١٠] بها التفاضل وتفسيرها، فإذا استبان معنى الفضل، وعلى ماذا تقع هذه اللفظة، فبالضرورة نعلم حينئذ: أن من وجدت فيه هذه الصفات أكثر، فهو أفضل بلا شك.

[وجوه التفاضل]

فنقول ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

إن الفضل [ينقسم إلى] قسمين[١] لا ثالث لهما: فضل اختصاص من الله تعالى[٢] بلا عمل، وفضل مجازاة [من الله تعالى] بعمل. فأما فضل الاختصاص [دون عمل]، فإنه يشترك فيه جميع المخلوقين من الحيوان النطق والحيوان غير الناطق والجمادات والأعراض: كفضل الملائكة في ابتداء خلقهم على سائر الخلق، وكفضل الأنبياء [في ابتداء خلقهم] على سائر الجن والإنس، وكفضل إبراهيم ابن النبي ﷺ على سائر الأطفال، وكفضل، ناقة صالح [عليه السلام] على سائر النوق، وكفضل ذبيح[٣] إبراهيم على سائر الذبايح، وكفضل مكة على سائر البلاد، [وكفضل المدينة بعد مكة على غيرها من البلاد]، وكفضل المساجد على سائر البقاع، وكفضل الحجر الأسود على سائر الحجارة، وكفضل شهر رمضان على سائر الشهور، وكفضل يوم عرفة ويوم الجمعة[١]، وعاشوراء والعشر على سائر الأيام، وكفضل ليلة القدر على سائر الليالي، وكفضل صلاة الفرض على (صلاة) النافلة، وكفضل صلاة العصر وصلاة الصبح على سائر الصلوات، وكفضل السجود على القعود، وكفضل بعض الذكر على بعض، فبهذا هو فضل الاختصاص المجرد بلا عمل. [وأما[٢] فضل المجازاة بالعمل فلا يكون البتة إلا للحي الناطق من الملائكة والإنس والجن فقط. وهذا هو القسم الذي تنازع الناس فيه في هذا الباب الذي نتكلم فيه الآن: من أحق به؟ فوجب أن ننظر أيضا في أقسام هذا القسم التي بها يستحق الفضل فيه والتقدم، فنحصرها ونذكرها بحول الله (تعالى) وقوته. ثم ننظر حينئذ: من أحظى[٣] به وأسعد بالبسوق[٤] فيه؟ فيكون بلا شك أفضل ممن هو أقل حظا فيها بلا شك [وبالله تعالى التوفيق]. فنقول [وبالله تعالى نستعين]:

---

(١٠) "بها يستحق".
(١) في الأصل: قسمان.
(٢) "عز وجل".
(٣) "ذبيحة".
(١) "يوم الجمعة وعرفة".
(٢) "فأما".
(٣) "من هو أحق".

إن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها، وهي: الماهية[٥] وهي عين الفعل و ذاته، والكمية وهي العرض في العمل، والكيف[٦]، والكم، والزمان، والمكان، والإضافة.

فأما الماهية[١]: فهي أن تكون الفروض من أعمال أحدهما موفاة كلها، ويكون الآخر يضيع بعض الفرض[٢] وله نوافل، أو يكون كلاهما يوفي[٣] جميع فرضه ويعملان نوافل زائدة، إلا أن نوافل أحدهما أكثر[٤] من الآخر، كما إذا كان[٥] أحدهما يكثر الذكر في الصلاة والآخر يكثر الذكر في حال جلوسه و ما أشبه هذا، وكإنسانين قاتل أحدهما في المعركة والموضع المخوف وقاتل الآخر في الرد[٦]، أو جاهد أحدهما واشتغل الآخر بصيام وصلاة تطوع. أو يجتهدان فيصادف أحدهما (الحق) ويحرمه الآخر. [فيفضل أحدهما الآخر] في هذه الوجوه بنفس عمله، [أ] وبأن ذات عمله أفضل من ذات عمل الآخر، فهذا هو التفاضل في الماهية[٧] في العمل. وأما الكمية وهي العرض: فأن يكون أحدهما يقصد بعمله وجه الله تعالى لا يمزج به شيئا البتة، ويكون الآخر يساويه في جميع عمله إلا أنه ربما مزج بعمله شيئا من حب الترقي[٨] في الدنيا وأن يستدفع بذلك الأذى عن نفسه، وربما شابه[٩] شيء من الرياء ففضله الأول بعرضه في عمله.

وأما الكيفية: فأن يكون أحدهما يوفي عمله جميع حقوقه ورتبه لا منتقصا ولا مزيدا[١]، ويكون الآخر ربما انتقص بعض رتب ذلك العمل وسننه وإن لم يعطل منه فرضا، أو يكون أحدهما يصفي عمله من الكبائر وربما أتى الآخر بعض الكبائر ففضله الآخر بكيفية عمله.

وأما الكم: فأن يستويا في أداء الفرض ويكون الآخر[٢] أكثر نوافل، ففضله هذا بكثرة عدد نوافله كما روي أن[٣] رجلين أسلما وهاجرا أيام رسول الله ﷺ، [ثم] استشهد أحدهما

---

(٤) "النسوق".
(٥) "المائية".
(٦) "الكيفية".
(١) "المائية من".
(٢) "فروضه".
(٣) "وفى".
(٤) "أفضل".
(٥) "كأن يكون".
(٦) "الردء".
(٧) "المائية من".
(٨) "البر".
(٩) "مزجه".
(١) "متزيدا".

وعاش الآخر بعده سنة ثم مات على فراشه. فرأى بعض الصحابة[٤] [أحدهما في النوم وهو] آخرهما موتا في أفضل حالا من[٥] الشهيد، فسئل[٦] عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال [عليه السلام] كلاما معناه: ((وأين[٧] صلاته بعده؟ و(أين) صيامه بعده؟)) ففضل أحدهما الآخر بالزيادة التي زادها[٨] عليه في عدد أعماله.

وأما الزمان: فكمن عمل في صدر الإسلام، أو في عام [١١] مجاعة أوفي وقت نازلة بالمسلمين، وعمل غيره بعد قوة المسلمين وفي زمن رخاء وأمن: فإن الكلمة في أول الإسلام والتمرة والصبر حينئذ وركعة في ذلك الوقت، تعدل اجتهاد الأزمان[١] الطوال وجهادها وبذل الأموال الجسام بعد ذلك. وكذلك قال رسول الله ﷺ: ((دعوا لي أصحابي، فلو كان لأحدكم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه.)) فكان نصف مد شعير أو تمر في ذلك الوقت، أفضل من جبل أحد ذهبا ننفقه نحن في سبيل الله تعالى[٢] بعد ذلك. قال تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى} [الحديد: ٥٧/١٠]. قال أبو محمد: (و) هذا في الصحابة فيما بينهم، فكيف لمن[٣] بعدهم معهم [رضي الله عنهم أجمعين. قال أبو محمد]: وهذا يكذب قول أبي هاشم محمد بن علي الجبائي و[قول] محمد بن أبي الطيب البلقلاني[٤]، فإن الجبائي قال: ((جائز إن طال عمر امرىء أن يعمل ما يوازي عمل نبي من الأنبياء)). وقال الباقلاني: ((جائز أن يكون في الناس من هو أفضل من رسول ﷺ من حين[٥] بعث بالنبوة إلى أن مات)).

---

(٢) "أحمدهما".
(٣) "في".
(٤) "أصحاب النبي".
(٥) "في أفضل من حال الشهيد".
(٦) "فسأل".
(٧) "فأين".
(٨) "في الأصل: وهو خطأ.
(١) في الأصل: الزمان، والتصويب عن ط .
(٢) "عز وجل".
(٣) "بمن".
(٤) كذا في المطبوع والمخطوط، والذي في كتب التراجم، أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن الطيب الباقلاني. انظر في فهرس التراجم: الجبائي والباقلاني.
(٥) "حيث".

قال أبو محمد* وهذا كفر مجرد وردة (صريحة) وخروج عن دين الإسلام بلا مرية، وتكذيب لرسول الله ﷺ في إخباره أنه[1] لا ندرك أحد [ا] من الصحابة[2]، وفي أخبار [عليه السلام عن] أصحابه [رضي الله عنهم] بأنه ليس مثلهم، وأنه أتقاهم لله وأعلمهم بما يأتي وما يذر. وكذلك أيضا قالت الخوارج والشيعة، فإن الشيعة يفضلون[3] أنفسهم – وهم شر خلق الله تعالى ـ على أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وجميع الصحابة [رضي الله عنهم]، حاشا عليا والحسن والحسين وعمار بن ياسر. والخوارج يفضلون أنفسهم – وهم شر خلق الله وكلاب النار – على عثمان ومن ذكرنا[4]، ولقد خاب من خالف [كلام] الله تعالى وقضاء رسوله[5].

[* قال أبو محمد* وكذلك القليل من الجهاد والصدقة في زمان الشدائد، أفضل من كثيرهما في وقت القوة والسعة]. وكذلك صدقة المرء بدرهم في زمان فقره وصحته (وهو) يرجو الحياة ويخاف الفقر، أفضل من الكثير[6] يتصدق به من[7] عرض غناه وفي وصيته بعد موته. [وقد] صح عن رسول الله ﷺ: ((سبق درهم مئة ألف درهم: وهو إنسان كان له درهمان تصدق بأحدهما، والآخر عمد إلى عرض ماله فتصدق منه بمئة ألف)) وكذلك صبر المرء على أداء الفرائض في حال خوفه ومرضه وقليل تنفله في زمان مرضه وخوفه، أفضل من عمله وكثير نوافله[1] في زمان صحته وأمنه: ففضل من ذكرنا غير [هم] بزمان عملهم. وكذلك من وفق لعمل الخير في زمان آخر أجله، فهو أفضل ممن خلط في آخر زمان[2] أجله.

وأما المكان: فكصلاة في المسجد الحرام [أ] ومسجد المدينة، فهما أفضل من ألف صلاة فيما عداهما. وفضل[3] الصلاة في المسجد الحرام على صلاة في مسجد رسول الله ﷺ، بمئة درجة. والصيام[4] في بلد العدو [أ] وفي الجهاد على صيام في غير الجهاد. [ففضل من عمل

---

(١) "أنا".
(٢) "أصحابه".
(٣) في الأصل: يفضلوا.
(٤) "عثمان وعلي وطلحة والزبير".
(٥) "رسول الله ﷺ".
(٦) "الكبير".
(٧) "في".
(١) "تنفله".
(٢) "في زمان آخر".
(٣) "تفضل".
(٤) "وكصيام".

في المكان الفاضل، غيره ممن عمل في غير ذلك المكان عمله، بمكان[٥] عمله وإن تساوى العملان]

وأما الإضافة: فركعة من نبي أو ركعة معه[٦] أو صدقة من نبي أو صدقة معه [أ] وذكر من[٧] نبي أو ذكر معه أو سائر أعمال البر منه أو معه: فقليل ذلك أفضل من كثير الأعمال بعده. [ويبين ذلك ماقد ذكرنا آنفا من قول الله عز وجل {وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير} [الحديد: ١٠/٥٧]. وإخباره عليه السلام أن أحدنا لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ نصف مد من أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

قال أبو محمد] وبهذا قطعنا [على] أن كل عمل عمله الصحابة[١] بعد موت النبي ﷺ، لا يوازي شيئا من (عمل) البر عمله ذلك الصاحب [بـ] نفسه مع رسول الله[٢] ﷺ ولا ما عمله غير ذلك الصاحب [أيضا] مع[٣] النبي ﷺ. ولو كان غير ما نقول[٤]، لجاز أن يكون أنس وأبو أمامة الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى وعبد الله بن يسر وعبد الله بن الحارث بن جزء وسهل بن سعد [الساعدي رضي الله عنهم]، أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان (وعلي) وأبي عبيدة وزيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وسعد بن معاذ وعثمان بن مظعون وسائر السابقين من المهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم أجمعين) لأن بعض أولئك، عبدوا الله عز وجل بعد موت أولئك، بعضهم بعد موت بعض، بسبعين[١] عاما فيما[٢] بين ذلك إلى خمسين عاما. وهذا ما لا يقوله أحد يعتد به.

[قال أبو محمد] وبهذا قطعنا [على] أن من كان من الصحابة حين موت رسول الله ﷺ أفضل من آخر منهم، فإن ذلك المفضول لا يلحق درجة الفاضل له حينئذ أبدا، وإن طال عمر المفضول، وتعجل موت الفاضل. وبهذا أيضا لم نقطع على فضل أحد منهم [رضي الله

---

(٥) الجار والمجرور متعلقان بـ: فضل.
(٦) "مع نبي".
(٧) "منه".
(١) "عملوه بأنفسهم".
(٢) "النبي".
(٣) "بعد".
(٤) في الأصل: يقول، والتصويب عن ط.
(١) "بتسعين".
(٢) "فما".

عنهم] ، حاشا من ورد فيه النص [من النبي ﷺ] على[٣] من مات منهم في حياة رسول[٤] الله ﷺ، بل نقف في هؤلاء على ما نبنيه [بعد هذا] إن شاء الله تعالى.

[قال أبو محمد] فهذه وجوه الفضائل بالأعمال التي[٥] لا يفضل ذو عمل قط[٦] عمل فيما سواها البتة.

ثم نتيجة هذه الوجوه كلها وثمرتها ونتيجة فضل الاختصاص المجرد دون عمل أيضا (شيئان) لا ثالث لهما [البتة].

أحدهما إيجاب الله تعالى تعظيم الفاضل في الدنيا على المفضول[٧]، فهذا الوجه يشترك فيه كل فاضل بعمل أو باختصاص مجرد بلا عمل من عرض أو جماد أو حي ناطق أو غير ناطق، فقد[٨] أمرنا الله تعالى بتعظيم الكعبة، والمساجد، ويوم الجمعة، وشهر رمضان، والأشهر[١] الحرم، وناقة صالح، وإبراهيم ابن النبي[٢] ﷺ وذكر الله (تعالى) والملائكة والنبيين صلى الله عليهم أجمعين[٣] والصحابة أكثر من تعظيمنا وتوقيرنا غير ما ذكرنا [و] من ذكرنا من المواضع [والأيام] والنوق والأطفال والكلام والناس. هذا ما لا شك فيه وهذه[٤] خاصة كل فضل وكل فاضل، لا يخلو منها فاضل أصلا ولا يكون البتة إلا لفاضل.

والوجه الثاني: هو إيجاب الله تعالى للفاضل درجة في الجنة أعلى من درجة المفضول: إذ لا يجوز عند أحد من خلق الله تعالى (كلهم) أن يأمر بإجلال المفضول أكثر من إجلال الفاضل ولا أن يكون المفضول أعلى درجة في الجنة من الفاضل.

ولو جاز ذلك، لبطل الفضل جملة ولكان فضلا[٥] لا حقيقة له ولا معنى تحته[٦]. وهذا الوجه الثاني الذي هو علو الدرجة في الجنة هو خاصة [لـ] كل فاضل بعمل فقط من الملائكة والجن والإنس[٧] [وبالله تعالى التوفيق.

---

(٣) "ممن".
(٤) "النبي".
(٥) في الأصل: الذي، والتصويب عن ط.
(٦) "ذا".
(٧) في الأصل: المفضل: والتصويب عن ط.
(٨) "وقد".
(١) "والشهر الحرام وشهر رمضان".
(٢) "رسول الله".
(٣) "على جميعهم صلوات الله وسلامه".
(٤) "هذا".
(٥) "لفظا".
(٦) "تحية".

* قال أبو محمد *] وكل[1] مأمور بتعظيمه فاضل، وكل فاضل فمأمور بتعظيمه. وليس البر والإحسان[2] والتوقير والتذلل المفترض في الأبوين الكافرين من التعظيم في شيء، فقد يحسن المرء إلى من لا يعظم ولا يهين: كإحسان المرء إلى جاره وغلامه وأجيره ولا يكون ذلك تعظيما، وقد يبر الإنسان جاره والشيخ [من أكرته] ولا يسمى ذلك تعظيما، وقد يتذلل المرء[3] للمسلط الظالم ولا يسمى ذلك تعظيما. وفرض على كل مسلم البراءة من أبويه الكافرين وعداوتهما في الله تعالى[4]. قال الله عز وجل: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان [وأيدهم بروح منه]} [المجادلة: ٢٢/٥٨]. وقال تعالى[5]: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا [حتى تؤمنوا بالله وحده] (إلا[1] قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك)}، وقال تعالى[2]: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم} [التوبة: ١١٤/٩].

فصح يقينا[3]: أن ما وجب للأبوين الكافرين من بر وإحسان وتذلل، ليس هو التعظيم الواجب لمن فضله الله تعالى لكن[4] التعظيم هو مودة في الله ومحبة [فيه] وولاية له. وأما البر الواجب للأبوين الكافرين والتذلل لهما والإحسان إليهما، فكل ذلك مرتبط بالعداوة في الله تعالى والبراءة[5] منه وإسقاط المودة كما قال [الله] تعالى في نص القرآن [وبالله تعالى التوفيق].

* قال أبو محمد * وقد يكون دخول الجنة اختصاصا مجردا دون عمل، وذلك للأطفال كما ذكرنا قبل.

---

(٧) "ولانس والجن".

(١) "فكل".

(٢) "الإحسان والبر" وفي الأصل والحسان.

(٣) "الإنسان للمتسلط".

(٤) "عز وجل".

(٥): هنا في الأصل: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ولقد كان لكم في إبراهيم إلخ.. وهو تحريف وزيادة من الناسخ.

(١) "إلى".

(٢) "عز وجل".

(٣) "فقد صح بيقين".

(٤) "عز وجل لأن" وهو أوجه.

(٥) "الله تعالى وللبراءة" هذا ولا مرجع للضمير المذكر في (منه) والسياق: أن يقول (منهما).

الباب الثاني

[فضل أزواج النبي ﷺ على سائر الصحابة]

فإذا [قد] صح (كل) ما ذكرنا قبل يقينا بلا خلاف من أحد في شيء فبيقين نعلم[1]: أنه لا تعظيم يستحقه أحد من الناس في الدنيا بإيجاب الله تعالى ذلك علينا بعد التعظيم الواجب علينا للأنبياء عليهم السلام: [أوجب] ولا أوكد مما ألزمنا الله تعالى من التعظيم الواجب علينا لنساء رسول[2] الله ﷺ يقول الله تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} [الأحزاب: ٦/٣٣].

فأوجب الله تعالى لهن حكم الأمومة على كل مسلم. هذا سوى حق إعظامهن بالصحبة لرسول الله ﷺ فلهن [رضي الله تعالى عنهن مع ذلك] حق الصحبة [له] كسائر الصحابة، إلا أن لهن من الاختصاص في الصحبة ووكيد الملازمة له [عليه السلام] ولطف المنزلة معه[3] [والقرب منه] والحظوة لديه ما ليس لأحد من الصحابة [رضي الله عنهم فهن أعلى درجة في الصحبة من جميع الصحابة] . ثم فضلن جماعة[1] الصحابة لحق زائد، وهو حق الأمومة الواجبة[2] لهن كلهن بنص القرآن. فوجدنا الحق الذي به استحق الصحابة الفضل قد شركنهم فيه وفضلنهم [فيه أيضا] ثم فضلنهم بحق (آخر) زائد وهو حق الأمومة[3]. ثم وجدناهن لا عمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد يسبق فيه صاحب من الصحابة إلا [كان فيهن] (ولهن في ذلك مثل ما لغيرهن من الصحابة) فقد كن يجهدن أنفسهن على[4] ضيق عيشهن على الكد في العمل بالصدقة والعتق ويشهدن الجهاد معه ﷺ[5]. وفي هذا كفاية بينه في أنهن أفضل من كل صاحب[6]. ثم لاشك عند كل مسلم بشهادة نص القرآن، إذ خيرهن الله تعالى بين الدنيا وبين [الـ] دار الآخرة والله ورسوله، فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، فهن أزواجه في الآخرة بيقين، فإذا هن كذلك

---

(١) "ندري".
(٢) "النبي".
(٣) "عنده عليه السلام".
(١) ":سائر".
(٢) "الأمومية الواجب".
(٣) "الأمومية".
(٤) "في".
(٥) "عليه السلام".
(٦) في الأصل: من صاحب.

فهن معه [ﷺ] بلا شك في درجة واحدة في الجنة في قصوره وعلى سرره. إذ لا يمكن البتة أن يحال بينه وبينهن في الجنة ولا أن ينحط عليه السلام إلى درجة يسفل فيها عن أحد من الصحابة هذا ما [لا] يظنه مسلم. فإذ لا شك في حصولهن (معه) على هذه المنزلة [فـ] بالنص والإجماع، علمنا أنهن لم يؤتين[1] ذلك اختصاصا مجردا دون عمل، بل باستحقاقهن لذلك باختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، إذ أمره الله تعالى[2] أن يخيرهن [فاخترن الله عز وجل] (فقد[3] حصل لهن أفضل الاختصاص أولا بأن يخيرهن) الله تعالى لنبيه[4] ﷺ وهو أفضل الناس، ثم قد حصل لهن أفضل الأعمال من[5] جميع الوجوه السبعة التي قدمنا آنفا التي[6] لا يكون التفاضل إلا بها في الأعمال، خاصة مما[7] قد حصل لهن على ذلك أوكد التعظيم في الدنيا، ثم قد حصل لهن أرفع الدرجات في الآخرة. فلا وجه من وجوه الفضل إلا ولهن فيه أعلى الحظوظ كلها بلا شك.

ومارية أم إبراهيم داخلة معهن في ذلك لأنها (داخلة) معه عليه السلام في الجنة ومع ابنها معه[8] بلا شك.

فإذا قد ثبت كل ذلك على رغم الأبي، [فـ] قد وجب ضرورة: أن يشهد لهن كلهن: بأنهن أفضل من جميع الخلق كلهم بعد الملائكة والنبيين [عليهم السلام] فكيف ومعنا نص من النبي ﷺ كما حدثنا أحمد بن محمد [بن عبد الله] الطلمنكي حدثنا محمد بن أحمد بن مفرج، حدثنا محمد بن أيوب البرقي[1] حدثنا أحمد بن عمرو بن عبد الخالق [البزار] حدثنا أحمد بن عبدة[2]، حدثنا المعتمر بن سليمان، حدثنا حميد الطويل عن أنس [بن مالك] قال: ((قيل: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟)) قال: ((عائشة)) قال: (([فـ] من الرجال؟)) قال: ((أبوها (إذن))) وذكرنا بإسناد له[3] عن أبي عثمان النهدي قال: أخبرني

(١) في الأصل: لن يتن والتصحيح عن ط
(٢) "عز وجل".
(٣) "ثم قد".
(٤) "ونبيه".
(٥) "في".
(٦) "أنه".
(٧) "ثم".
(٨) "منه".
(١) "الرقي الصموت".
(٢) "عمرو".
(٣) في ط ذكر السند وهو: حدثنا عبد الله بن يوسف بن نامي قال: حدثنا أحمد بن فتح، حدثنا عبد الوهاب بن قيس، حدثنا أحمد بن محمد الأشقر، حدثنا أحمد بن علي القلانسي، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا يحيى بن يحيى ابن خالد بن عبد الله هو الطحان عن خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي إلخ.

عمرو بن العاص ((أن رسول الله ﷺ بعثه إلى جيش ذات السلاسل، قال، فأتيته فقلت: ((أي الناس أحب إليك؟)) فقال: ((عائشة)) فقلت: ((من الرجال؟)) قال ((أبوها)) قلت ((ثم من؟)) قال: ((عمر)) فعد (د) رجالا. فهذان عدلان أنس وعمرو، يشهدان أن رسول الله ﷺ أخبر (هما) [بـ] أن عائشة أحب الناس إليه ثم أبوها. وقد قال الله تعالى[1]: {وما ينطق عن الهوى (*) إن هو إلا وحي يوحى} [النجم: ٥٣/٣-٤].

فصح أن كلامه عليه السلام بأنها[2] أحب الناس إليه، وحي أوحاه الله تعالى إليه ليكون كذلك، ويخبر بذلك لا عن هوى له: ومن ظن ذلك فقد كذب الله تعالى. لكن لاستحقاقها لذلك بالفضل[3] في الدين والتقدم فيه على جميع الناس، الموجب لأن يحبها رسول الله صلى الله عليه (وسلم) أكثر من محبته لجميع الناس، فقد فضلها رسول الله ﷺ على أبيها وعلى عمر وعلى[4] علي وفاطمة تفضيلا ظاهرا بلا شك.

فإن قال قائل [فقل]: إن إبراهيم ابن النبي ﷺ أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي [رضي الله عنهم] لكونه مع أبيه [عليه السلام] في درجة واحدة في الجنة)). قلنا [له وبالله تعالى التوفيق]: إن إبراهيم ابن النبي[5] ﷺ لم يستحق[6] تلك المنزلة بعمل كان منه، وإنما هو اختصاص مجرد، وإنما تقع المفاضلة بين الفاضلين إذا كان فضلهما [واحدا] من وجه واحد، فتفاضلا فيه، وأما إن كان الفضل من وجهين اثنين فلا سبيل إلى المفاضلة بينهما، لأن معنى قول القائل: أي هذين أفضل؟ إنما هو: أي هذين أكثر أوصافا في الباب الذي اشتركا فيه؟ ألا ترى أنه لا يقال: أيهما أفضل رمضان أو ناقة صالح؟ ولا: أيهما أفضل الكعبة أو الصلاة؟ لكن[1] نقول: أيهما[2] أفضل مكة أو المدينة؟ وأيهما أفضل رمضان أو ذو الحجة؟ وأيهما أفضل الصلاة أو الزكاة؟ وأيهما أفضل ناقة صالح أو ناقة غيره من النبيين؟ فقد صح أن التفاضل إنما يكون في وجه يشترك[3] فيه المسؤول عنهما فبسق[4] أحدهما [فيه] فاستحق أن

---

(١) "عز وجل".
(٢) "أنها".
(٣) "الفضل".
(٤) "على علي" وهي زيادة خطأ.
(٥) "رسول الله".
(٦) "ما استحق".
(١) "بل".
(٢) في الأصل: أنما. والتصحيح عن ط.
(٣) "اشترك".
(٤) في الأصل: فبوفيه.

يكون أفضل وفضل إبراهيم ليس عن[٥] عمل أصلا، وإنما هو اختصاص مجرد وإكرام لأبيه ﷺ.

وأما نساؤه عليه السلام فكونهن وكون سائر الصحابة عليهم السلام في الجنة، إنما هو جزاء لهن ولهم على [أعمالهن و] أعمالهم قال الله (تعالى) [بعد ذكر الصحابة رضي الله عنهم]{جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧/٣٢]. وقال (سبحانه) بعد ذكر الصحابة: {وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} [الفتح: ٢٩/٤٨] وقال تعالى مخاطبا لنسائه عليه (الصلاة) والسلام: {ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين} [الأحزاب: ٣١/٣٣] وهذا نص قولنا ولله الحمد. وقال تعالى: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون} [الزخرف: ٧٢/٤٣]. وقال تعالى: {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية} [الزمر: ٢٠/٣٩]. وقال تعالى: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (*) وأن سعيه سوف يرى (*) ثم يجزاه الجزاء الأوفى} [النجم: ٣٩/٥٣-٤١].

فإن قال قائل: [فـ] كيف تقولون في قوله عليه السلام: ((لن يدخل أحد الجنة[١] بعمله)) قالوا[٢]: ((ولا أنت يا رسول الله؟)) قال: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته[٣])) قلنا: نعم هذا [حق] موافق للآيات المذكورة، وهكذا نقول: إنه لو عمل الإنسان دهره كله ما استحق على الله [تعالى] شيئا، إنه لا يجب على الله شيء، إذ لا موجب للأشياء الواجبة غيره تعالى، لأنه المبتدي لكل ما في العالم والخلق[١] له، فلولا أن الله تعالى يرحم[٢] عباده فحكم بأن طاعتهم له يعطيهم بها الجنة، لما وجب ذلك [عليه]. فصح أنه لا يدخل الجنة بعمله مجردا دون رحمة الله تعالى، لكن يدخلها برحمة الله التي جعل بها الجنة جزاء على أعمالهم التي أطاعوه بها. فاتفقت الأحاديث والآيات[٣] والحمد لله [رب العالمين.

---

(٥) "علي".
(١) "الجنة أحد".
(٢) "قيل".
(٣) "برحمة منه وفضل".
(١) "الخالق".
(٢) "رحم".
(٣) "الآيات مع هذا الحديث".

* قال أبو محمد *] فإذا لا شك في هذا كله فقد امتنع يقينا أن يجازي بالأفضل من كان أنقص فضلا، وأن يجازي بالأنقص من كان أتم فضلا. وصح ضرورة أنه لا يجزي أحد من أهل الأعمال في الجنة إلا بما استحقه برحمة الله تعالى جزاء على أعماله[٤] (وأما من لم تكن الجنة له جزاء على عمل)، فلله[٥] تعالى أن يتفضل على من شاء بما شاء، وجائز أن يقدم على ذوي الأعمال الرفيعة (غيرهم) قال تعالى: {يختص برحمته من يشاء} [البقرة: ١٠٥/٢] وقال تعالى: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء} [المائدة: ٥٤/٥] فلا يجوز خلاف هذه النصوص لأحد، لأن من خالفها كذب القرآن. ولولا هذه النصوص لما أبعدنا أن يعذب الله تعالى على الطاعة له، وأن ينعم على معصيته، وأن يجازي الأفضل بالأنقص، والأنقص بالأفضل، لأن كل شيء خلقه وملكه[١] لا مالك لشيء سواه ولا معقب، ولا حق لأحد عليه. لكن قد أمنا ذلك كله بإخبار الله تعالى: أنه لا يجازي ذا عمل إلا بعمله، وأن[٢] يتفضل على من يشاء فلزم الإقرار بكل ذلك وبالله (تعالى) التوفيق.

فلو قال قائل: أيهما أفضل في الجنة وأعلى قدرا: مكان إبراهيم من رسول الله ﷺ أو مكان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي [رضي الله عنهم]؟ قلنا: مكان إبراهيم [أعلى] بلا شك، ولكن ذلك المكان اختصاص مجرد لإبراهيم المذكور لم يستحقه بعمل، ولا استحق أيضا أن يقصر به عنه. ومواضع[٣] هؤلاء المذكورين جزاء لهم على قدر فضلهم وسوابقهم. وكذلك نساؤه [ﷺ] مكانهن أيضا جزاء لهن على قدر سوابقهن وفضلهن[٤] فلا يقال: إن إبراهيم بن رسول الله ﷺ أفضل من أبي بكر [أ] وعمر، ولا يقال أيضا:إن أبا بكر وعمر أفضل من إبراهيم (ابن رسول الله ﷺ).

والمفاضلة واقعة ببين الصحابة وبين نساء رسول الله ﷺ لأن أعمالهم وسوابقهم لها مراتب متناسبة بلا شك. فإن قيل[١]: إنهن لولا رسول الله ﷺ لما[٢] حصلن في تلك الدرجة وإنما تلك الدرجة له [عليه السلام]. قلنا [وبالله تعالى التوفيق]: نعم، ولا شك أيضا في أن جميع

(٤) "عمله".
(٥) "ولله".
(١) "ملكه وخلقه".
(٢) "أنه".
(٣) "ومواضيع".
(٤) "فضلهن وسوابقهن".
(١) "قال قائل".
(٢) "ما".

الصحابة لولا رسول الله ﷺ (كما قلتم) ما حصلوا أيضا على الدرج التي[٣] هم فيها، فإنما هي إذا على قولكم لرسول الله ﷺ كما قلتم. ولا فرق، وبقي الفضل والتقديم[٤] لهن كما كان ذلك ولا فرق.

[فضل أزواج النبي ﷺ على بناته]

[* قال أبو محمد *] فأما[٥] فضلهن على بنات رسول[٦] الله ﷺ فبين بنص القرآن لا إشكال[٧] فيه، قال الله تعالى[٨]: {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء [إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول]} [الأحزاب: ٣٢/٣٣] فهذا بيان قاطع لا يسع أحدا جهله[٩]. فإن عارضنا معارض بقول النبي ﷺ: ((خير نسائها فاطمة بنت محمد ﷺ)) قلنا له وبالله [تعالى] التوفيق: في هذا الحديث بيان جلي لما قلنا و [هو] أنه عليه السلام لم يقل: خير النساء فاطمة، وإنما قال: ((خير نسائها)) فخص و لم يعم، وتفضيل الله تعالى[١] نساء النبي ﷺ [على النساء] عموم لا خصوص، لا يجوز أن يستثنى منه أحد إلا من استثناه نص آخر. فصح أنه [عليه السلام] إنما فضل فاطمة على نساء المؤمنين بعد [ﷺ] فاتفقت الآية مع الحديث.

وقال عليه السلام: ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)) فهذا أيضا عموم موافق للآية. ووجب أن يستثنى ما خصه النبي ﷺ بقوله ((نسائها)) من هذا العموم.

وصح أن نسائه عليه السلام أفضل النساء جملة، حاشا اللواتي خصهن الله تعالى بالنبوة كأم إسحاق وأم موسى وأم عيسى عليهم السلام. وقد نص الله تعالى على هذا بقوله الصادق: {يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك [واصطفاك] على نساء العالمين} [آل عمران: ٤٢/٣] ولا خلاف بين المسلمين في أن جميع الأنبياء (صلى الله عليهم أجمعين أن) كل نبي منهم أفضل ممن ليس نبيا[٢] من سائر الناس، ومن خالف هذا فقد كفر. وكذلك أخبر عليه

(٣) في الأصل: الذي، والتصحيح عن ط
(٤) "التقدم".
(٥) "وأما".
(٦) "النبي".
(٧) "شك".
(٨) عز وجل.
(٩) في الأصل: أحد والتصحيح عن ط.
(١) "عز وجل لنساء".
(٢) "نبي".

السلام فاطمة: أنها سيدة نساء المؤمنين. و لم يدخل نفسه عليه السلام[1] في هذه الجملة بل أخبر عمن سواه.

وبرهان آخر وهو قول الله تعالى مخاطبا لهن {ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين} [الأحزاب: ٣٣/٣١].

* قال أبو محمد * فهذا فضل ظاهر وبيان لائح [في] أنهن أفضل من جميع الصحابة [رضي الله عنهم] و (صح) بهذه الآية صحة متيقنة لا يمتري فيه مسلم: أن[2] أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وفاطمة وسائر الصحابة [رضي الله عنهم]، إذا عمل الواحد منهم عملا يستحق [عليه] مقدارا من الأجر، وإذا عملت امرأة من نساء النبي ﷺ مثل ذلك العمل بعينه، كان لها مثل ذلك المقدار من الأجر (مرتين) فإذا كان نصيف الصحابي وفاطمة (رضي الله عنهم) يفي بأكثر من مثل أحد ذهبا ممن بعدهم[3]، كان للمرأة من نسائه [عليه السلام] في نصيفها أكثر من مثل جبلين اثنين مثل أحد ذهبا. وهذه فضيلة ليست لا حد بعد الأنبياء [عليهم السلام] إلا لهن[4]. وقد صح (ذلك) عن النبي ﷺ: أنه يوعك كوعك رجلين من أصحابه، لأن له على ذلك كفلين من الأجر.

[* قال أبو محمد *] وليس بعد هذا في بيان[1] فضلهن على كل أحد من الصحابة (ممتري) إلا من أعمى الله قلبه عن الحق ونعوذ بالله تعالى من الخذلان.

[رد اعتراض]

[* قال أبو محمد *] وقد اعترض علينا بعض أصحابنا في هذا المكان بقول الله تعالى عن أهل الكتاب إذا[2] آمنوا {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} [القصص: ٢٨/٥٤] قال: فلزم أنهم أفضل منا.

فقلت له: إن هذه الآية والخبر الذي فيه: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: فذكر مؤمن أهل الكتاب، والعبد الناصح، ومعتق الأمة[3] ثم يتزوجها)) فيهما بيان الوجه الذي به[4] أجروا

---

(١) "ﷺ".
(٢) "فأبو بكر".
(٣) "بعده".
(٤) "هن".
(١) "بيان في".
(٢) "إذ".
(٣) "أمته".

مرتين وهو الإيمان بالنبي ﷺ وبالنبي الأول المبعوث بالكتاب الأول، ونحن نؤمن بهذا كله كملـ آمنوا فنحن شركاء ذلك المؤمن منهم في ذينك الإيمانين. وكذلك العبـــد النـــاصح يؤجـــر بطاعة[٥] سيده أجرا ولطاعة الله تعالى أجرا ثانيا، وكذلك معتق أمته ثم يتزوجها يؤجر علـــى عتقه أجرا ثم على نكاحه إذا أراد به وجه الله تعالى أجرا ثانيا فصح النص[١] يقينا أن هـــؤلاء إنما يؤتون أجرهم مرتين في خاص من أعمالهم، لا في جميع أعمالهم. وليس في هذا ما يمنـــع [من] أن يؤجر غيرهم في غير هذه الأعمال أكثر من أجور هؤلاء وأيضا فإنما يضاعف لهؤلاء على ما عمله أهل طبقتهم. وليست المضاعفة لأجور نساء النبي ﷺ مرتين، من هـــذا في ورد ولا في صدر، لأن المضاعفة لهن إنما هي في كل عمل عملنه بنص القرآن، إذ يقول ســـبحانه وتعالى: {ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتيـــن} [الأحـــزاب: ٣١/٣٣].

فكل عمل عمله صاحب من الصحابة له فيه أجر، فلكل امرأة منهن في مثل ذلك العمـــل أجران. والمضاعفة لهن إنما يكون على ما عمله طبقتهن من الصحابة. وقد علمنا أن بين عمل الصاحب وعمل غيره أعظم مما بين أحد ذهبا ونصف مد شعير، فيقع لكل واحدة منهن مثلا ذلك مرتين. وهذا لا يخفى على ذي حس سليم، فبطلت المعارضة التي ذكرنا والحمـــــد لله رب العالمين.

[رد اعتراض]

[* قال أبو محمد *] واعترض علينا [أيضا] بعض الناس في الحديث الذي فيه: ((أن عائشة أحب الناس إليه ومن الرجال أبوها)) بأن قال: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال لأسامة بن زيد: ((إن أباه أحب الناس إلي، وإن هذا أحب الناس إلي من بعده)) وصـــح أن النـــبي ﷺ قـــال للأنصار: ((إنكم أحب الناس إلي)) قال أبو محمد: [و] أما هذا اللفظ [الذي] في حديـــث أسامة [بن زيد] إنه أحب الناس إليه [عليه السلام] فقد روي من طريق حماد بين سلمة عـــن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه، وأما الذي فيه ذكر أسامة وزيد [رضي الله عنهما] فإنمـــا رواه عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله عن أبيه، وعمر بن حمزة هذا ضعيف. والصحيـــح من هذا الخبر هو ما رواه عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ بإسناد لا مغمـــز فيـــه

---

(٤) "أجروا به".
(٥) "لطاعته".
(١) "بالنص".

فذكر فيه أنه ﷺ [1] قال [يعني لـ][2] زيد بن حارثة: ((وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن[3] أحب الناس إلي بعده)) وهذا يقضي على حديث موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه لأنه يختصه[4] من حديث عبد الله بن دينار. وبهذا ينتفي التعارض بين الروايتين عن ابن عمرو [عن] أنس و(عن) عمرو، وإلا فليس أحدهما أولى من الآخر. وأما حديث الأنصار فرواه كما ذكروا هشام بن زيد عن أنس، ورواه عبد العزيز بن صهيب عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أنتم من أحب الناس إلي)) وهذا[1] حديث واحد وزيادة العدل مقبولة. فصح بزيادة من في (هذا) الحديث من طريق العدول أن الأنصار وزيدا وأسامة [رضي الله عنهم] من جملة قوم هم أحب الناس إلى رسول الله ﷺ. وهذا حق لا شك[2] فيه لأنهم من أصحابه، وأصحابه أحب الناس إليه بلا شك. وليس هذا[3] جوابه (عليه السلام) في عائشة [رضي الله عنها] إذ سئل: ((من أحب الناس إليك؟)) فقال: ((عائشة)) فقيل: ((من الرجال؟)) فقال: ((أبوها)) لأن هذا قطع على بيان ما سأل عنه السائل من معرفة المنفرد[4] البائن عن الناس بمحبته عليه السلام.

واعترض علينا بعض الأشعرية بأن قال: إن الله تعالى يقول: {ولكن الله يهدي من يشاء} [القصص: ٥٦/٢٨] فصح أن محبته عليه [السلام لمن أحب] ليس فضلا لأنه قد أحب عمه وهو كافر.

* قال أبو محمد * قلنا[1]: إن هذه ليست على ظاهرها، وإنما مراد الله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت}[أي أحببت] هداه، برهان ذلك قوله تعالى: {ولكن الله يهدي من يشاء} أي من يشاء هداه. وفرض على النبيﷺ وعلينا أن نحب الهدى لكل كافر، لا أن نحب الكافر. وأيضا فلو صح أن معنى الآية من أحببته[2] كما ظن [هذا] المعترض لما كان علينا بذلك حجة، لأن هذه آية مكية نزلت في أبي طالب (بمكة)، ثم أنزل الله تعالى بالمدينة[3] {لا

---

(١) "عليه السلام".
(٢) في الأصل: لعلي بن.
(٣) "من".
(٤) "مختصر".
(١) "وهو".
(٢) "يشك".
(٣) "هكذا".
(٤) في الأصل: المنقود، والتصحيح عن ط.
(١) "فقلنا".
(٢) "أحببت".
(٣) "في المدينة".

تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم} [المجادلة: ٢٢/٥٨] وأنزل الله تعالى (أيضا) في المدينة: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} [الممتحنة: ٤/٦٠] وإن رسول الله ﷺ أحب أبا طالب، فقد حرم الله تعالى

(ذلك) عليه بعد ذلك ونهاه عن محبته وافترض عليه عداوته. وبالضرورة يدري كل [ذي] حس [سليم] أن العداوة والمحبة لا يجتمعان أصلا، والمودة هي المحبة في اللغة التي بها نزل القرآن بلا خلاف من [أحد من] أهل اللغة، فقد بطل أن يحب النبي أحدا غير مؤمن. وقد صحت النصوص والإجماع على أن محبة رسول الله ﷺ لمن أحب فضيلة، وكذلك[1] قوله عليه السلام لعلي (رضي الله عنه): ((لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) فإذ لا شك ولا خلاف في أن محبة رسول الله ﷺ بخلاف ما قال أهل الجهل والكذب، فقد صح يقينا أن كل من كان أتم حظا في الفضيلة فهو أفضل ممن هو أقل حظا في تلك الفضيلة، [و] هذا شيء يعلم ضرورة. فإذا كانت عائشة أتم حظا في المحبة التي هي [أتم] فضيلة فهي أفضل ممن[2] حظه في ذلك أقل من حظها. ولذلك لما قيل له عليه السلام: ((من الرجال؟)) قال: ((أبو هاثم عمر)) فكان ذلك موجبا بفضل[3] أبي بكر ثم عمر على سائر الصحابة [رضي الله عنهم] فالحكم باطل[4] لا يجوز في أن يكون تقدم[5] أبي بكر ثم عمر في الفضل من أجل تقديمهما في المحبة عليهم وما نعلم[1] أيضا في وجوب القول بتقديم أبي بكر ثم عمر على سائر الصحابة إلا هذا الخبر وحده.

(ومن الآيات التي قطع الله بها محبة المؤمن للكافر قوله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} [الممتحنة: ١/٦٠] ولا خلاف في اللغة في أن المودة هي المحبة قال الله تعالى: {ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم} [آل عمران: ١١٩/٣] فحرم الله تعالى محبة المؤمن للكافر جملة[2]

---

(١) "وذلك كقوله".
(٢) في الأصل: من، والتصحيح عن ط.
(٣) "لفضل".
(٤) "بالباطل".
(٥) "يقدم أبو بكر" والجملة بعد، غير واضحة.
(١) نعلم "نصا".
(٢) هذه الأسطر بين القوسين ناقصة في ط.

[* قال أبو محمد *] وقد نص النبي ﷺ على ما ينكح له[٣] النساء فذكر الحسب والمال والجمال [والدين]، ونهى ﷺ عن ذلك بقوله عليه السلام: ((عليك بذات الدين تربت يداك))، فمن المحال الممتنع أن يكون (عليه السلام) يحض على نكاح النساء واختيارهن للدين فقط، ثم يكون هو ﷺ يخالف ذلك فيحب عائشة لغير الدين.

وكذلك قوله عليه السلام: ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)) لا يحل لمسلم أن يظن في ذلك شيئا غير الفضل عند الله عز وجل[١] في الدين، فوصف الرجل امرأته للرجال لا يرضى به إلا خسيس نذل ساقط. ولا يحل لمن له أدنى مسكة [من] عقل أن يمر هذا بباله عن فاضل من الناس، فكيف عن المقدس (الطاهر) المطهر البائن فضله على جميع الناس [ﷺ].

* قال أبو محمد *] ولولا أنه بلغنا عن بعض من يتصدر[٢] لنشر العلم من أهل زماننا، وهو المهلب بن أبي صفرة التميمي صاحب عبد الله بن إبراهيم الأصيلي[٣]: أنه أشار إلى هذا المعنى القبيح وصرح به، ما انطلق لنا بالإيماء إليه لسان. ولكن المنكر إذا ظهر وجب على (كل) المسلمين تغييره [فرضا] على حسب طاقتهم [وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* قال أبو محمد *] وكذلك عرض الملك لها [رضي الله عنها] على رسول الله ﷺ قبل ولادتها (مرتين) في سرقة من حرير يقول له: ((هذه زوجك[٤])) فيقول [عليه السلام]: ((إن يكن من عند الله يمضه)) فهل بعد هذا في الفضل غاية.

[رد اعتراض]

[* قال أبو محمد *] واعترض علينا مكي بن أبي طالب [المقري] فقال[١]: يلزم من[٢] هذا أن تكون امرأة أبي بكر [أفضل من علي لأن امرأة أبي بكر] مع أبي بكر في الجنة في درجة واحدة، وهي أعلى من منزلة علي، فمنزلة [امرأة] أبي بكر أعلى من منزلة علي [فهي أفضل من علي.

---

(٣) "من النساء" وهو خطأ.
(١) "تعالى".
(٢) "يصدر".
(٣) في الأصل (الأصيل) والتصحيح عن الأعلام.
(٤) "زوجتك".
(١) "بأن قال".
(٢) "على".

* قال أبو محمد *] فأجبناه بأن قلنا له [وبالله تعالى نتأيد] إن هذا الاعتراض ليس بشيء لوجوه: أحدها أن ما بين درجة أبي بكر ودرجة علي في الفضل الموجب لعلو درجته في الجنة على درجة علي، ليست من التباين بحيث هو ما بين درجة النبي ﷺ وبين درجة أبي بكر في الفضل الموجب لعلو درجته عليه السلام على درجات سائر أصحابه[٣]، بل قد أيقنا أن درجة أقل رجل منا في الفضل، أقرب نسبة من أعلى درجة لأعلى رجل من الصحابة، من نسبة درجة أفضل الصحابة إلى درجة النبي ﷺ وأيضا فليس بين أبي بكر وعلي من المباينة[٤] في الفضل ما يوجب أن تكون امرأة أبي بكر التابعة له أفضل من علي،

بل منازل [المهاجرين] الأولين الذين أوذوا في سبيل الله [عز وجل] متقاربة وإن تفاضلت، ثم كذلك أهل السوابق مشهدا مشهدا درجتهم[١] في الفضل متقاربة [وإن تفاضلت، ثم منازل الأنصار الأولين متقاربة وإن تفاضلت، ثم كذلك أهل السابق[٢] بعد الهجرة مشهدا مشهدا درجتهم متقاربة في الفضل] ثم كذلك من أسلم بعد الفتح أيضا ويزداد الأفضل فالأفضل [من المشتركين][٣] في المشاهد جزاء على ذلك فنقول: إن امرأة أبي بكر المستحقة بعملها الكون معه في درجته [مثل] أم رومان لسنا [ندري]. أهي أفضل أم علي، لأنه[٤] لا نص معنا في ذلك والفضل[٥] لا يعرف إلا بالنص[٦] وقد قال ﷺ[٧]: ((خيركم [القرن] الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) أو كما قال [عليه السلام] فجعلهم طبقات في الفضل والخير[٨] فبلا[٩] شك هذا[١٠] كذلك في الجزاء في الجنة. وإلا لكان[١١] يكون الفضل لا معنى له، وقد قال الله تعالى[١٢]: {هل تجزون إلا ما كنتم تعملون} [النمل: ٢٧/٩٠] وأيضا فلسنا نشك أن المهاجرات الأوليات[١] من نساء الصحابة [رضي

(٣) "الصحابة رضي الله عنهم".
(٤) في الأصل: من المناسبة.
(١) "درجهم".
(٢) كذا في ط ولعلها: السابقة.
(٣) الذي في ط: من المشركين، ولا معنى لها.
(٤) "لأنها".
(٥) "التفضيل".
(٦) "بنص".
(٧) "عليه السلام".
(٨) "في الخير والفضل".
(٩) "فلا".
(١٠) "هم".
(١١) "فكان".
(١٢) "قال عز وجل.
(١) "الأولات" وهو خطأ.

الله عنهم][٢] في الفضائل، ففاضلة ومفضولة وفاضل ومفضول ففيهن من يفضل كثيرا من الرجال [وفي الرجال من يفضل كثيرا منهن] وما ذكر الله تعالى منزلة من الفضل إلا وقرن النساء مع الرجال فيها كقوله [تعالى]: {إن المسلمين والمسلمات} [الأحزاب: ٣٥/٣٣]، {إن المصدقين والمصدقات} [الحديد: ١٨/٥٧] [الآية] حاشا الجهاد فإنه فرض على الرجال دون النساء ولسنا ننكر أن يكون لأبي [بكر] قصور ومنازل مقدمة على جميع الصحابة، ثم يكون لمن يستأهل[٣] من نسائه تلك المنزلة، منازل في الجنة دون منازل من هو أفضل منهن من الصحابة. فقد نكح الصحابة [رضي الله عنهم] التابعيات بعد الصواحب[٤] وعليهن، فتكون تلك المنازل زائدة في فضل أزواجهن من الصحابة، فيترلون إليهن ثم ينصرفون إلى منازلهم العالية، بل قد صح هذا (أيضا) عن النبي ﷺ وأنه قال كلاما (ما) معناه وأكثر نصه أنه عليه السلام، (أنه) زعيم ببيت في ربض الجنة وفي وسط الجنة وفي أعلى الجنة لمن فعل كذا: أمرا وصفه رسول الله ﷺ، فصح نص ما قلنا [من] أن لمن دونه عليه السلام منازل عالية، وأخر متسفلة[١] عن تلك المنازل يترلون إليها ثم يصعدون إلى الأعالي. وهذا يبتعد[٢] عن رسول الله ﷺ لوجهين (ضروريين): أحدهما أن جميع نسائه [عليه السلام] لهن حق الصحبة التي بشركن[٣] فيها جميع الصحابة، وتفضيلهن فيها بقرب الخاصة، فليس في نسائه عليه السلام ولا واحدة يفضلها في الصحبة[٤] التي هي فضلتهم التي بها بانوا عمن سواهم فقط، فقد[٥] كفينا (هذا) الباب. والوجه [الثاني] أن تأخر بعض الصحابة عن بعض[٦] في بعض [الأماكن] موجود، وإن كان ذلك المتأخر في بعض الأماكن متقدما في مكان آخر: فقد علمنا أن بلالا عذب في الله عز وجل ما لم[٧] يعذب علي، وإن عليا قاتل ما لم يقاتل بلال[٨]، وأن عثمان أنفق ما لم ينفق بلال ولا علي فيكون المفضول منهم في الجملة متقدما للذي فضله في بعض فضائله ولا سبيل (إلى) أن يوجد هذا فيما بينهم وبين

---

(٢) كذا في ط.
(٣) "تستأهل".
(٤) "الصاحبات".
(١) "مسفلة".
(٢) "مبعد".
(٣) "يشتركن" والأصل فيه الصواب.
(٤) "بالصحة".
(٥) "وقد".
(٦) "بعضهم".
(٧) في الأصل: لا والتصويب عن ط.
(٨) في الأصل: بلالا.

النبي ﷺ، ولا يجوز أن يتقدمه أحد من ولد آدم في شيء من الفضائل [أولها عن آخرها ولا إلى أن يلحقه لا حق في شيء من الفضائل من بني آدم ولا[1] سبيل [إلى] أن ينسفل[2] النبي ﷺ إلى درجة يوازيه فيها صاحب من أصحابه[3] فكيف [أن] يعلو عليه الصاحب، هذا أمر تقشعر منه جلود المؤمنين. وقد استعظم أبو أيوب [رضي الله عنه] أن يسكن في غرفة على بيت يسكنه رسول الله[4] ﷺ فكيف يظن أن[5] يكون في دار الجزاء فإذا كان العالي من الصحابة في أكثر منازله ينسفل[6] أيضا في بعضها عن صاحب آخر قد علاه في منازل أخر على قدر تفاضلهم في أعمالهم كما ذكرنا آنفا، فقد أخبر النبي ﷺ: أن الصائمين يدعون من باب الريان، وأن المجاهدين يدعون من باب الجهاد، وأن المتصدقين يدعون من باب الصدقة، وأن أبا بكر رضي الله تعالى عنه يرجو له النبي[7] ﷺ أن يدعى من [جميع] تلك الأبواب كلها وقد يجوز أن يفضل أبا بكر رضي الله تعالى عنه غيره من الصحابة في بعض تلك الوجوه ممن انفرد بباب منها، ولا يجوز أن أحدا يجوز[8] أن يفضل رسول الله ﷺ في شيء من أبواب البر، فبطل هذا الاعتراض جملة والحمد لله رب العالمين.

[رد اعتراض]

واعترض علينا مكي بن أبي طالب بأن قال: إذا كان رسول الله ﷺ أفضل من موسى [عليه السلام] ومن كل واحد من الأنبياء عليهم السلام [وكان عليه السلام] أعلى درجة في الجنة من جميع الأنبياء [عليهم السلام]، وكان نساؤه [عليه السلام] معه في درجة واحدة[1] في الجنة، فدرجتها [فيها] أعلى من درجة موسى [عليه السلام] ومن درج سائر الأنبياء [عليهم السلام] فهن على هذا الحكم أفضل من موسى [عليه السلام] و(من) سائر الأنبياء [عليهم السلام].

---

(١) "فلا".
(٢) في الأصل: يستعلم والتصحيح عن ط.
(٣) "الصحابة".
(٤) "النبي".
(٥) "بأن هذا".
(٦) في الأصل: يشتغل. والتصحيح عن ط.
(٧) "رسول الله".
(٨) في الأصل أحد، وفي ط "لا يجوز أن يفضل أحد".
(١) "في درجته".

* قال أبو محمد * فأجبناه أن[٢] هذا الاعتراض [أيضا] لا يلزمنا ولله الحمد، لأن الجنة دار ملك وطاعة وعلو منزلة ورئاسة واتباع من التابع للمتبوع كما قال الله[٣] تعالى: {وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا} [الإنسان: ٧٦/٢٠]. وقال الله تعالى عن موسى عليه السلام: {وكان عند الله وجيها} [الأحزاب: ٣٣/٦٩] وأخبر تعالى[٤] عن جبريل [صلى الله عليه وسلم] فقال: {ذي قوة عند ذي العرش مكين (*) مطاع ثم أمين} [التكوير: ٨١/٢٠-٢١] فقد علمنا أن ملك الدنيا غرور[١]، وأن ملك الجنة هو الحقيقة. وقد أخبر ﷺ[٢] أن رأى الأنبياء [عليهم السلام] مع أتباعهم فالنبي معه الواحد [والاثنان] والثلاثة والنفر والجماعة. وأخبر [عز وجل]: أن هنالك الملك الكبير والطاعة والوجاهة والأتباع والاستئمار، وأنما عرض الله [تعالى] علينا من الملك في الدنيا طرفا ليعلم به مقدار الملك في دار الخلود[٣]، كما عرض علينا من اللذات والحرير [والديباج] والخمر والذهب والفضة والمسك والجواري والحلي، وأعلمنا أن هذا كله خالصة لنا هنالك. وكما صح عن النبي ﷺ ((أن آخر من يدخل الجنة يزكو[٤] على أعظم ملك عرفه في الدنيا فيتمنى مثل ملكه فيعطيه الله (تبارك و) تعالى مثل الدنيا عشر مرات)).

[* قال أبو محمد *] فلما صح ما ذكرنا وكانت الملائكة طبقة واحدة إلا أنهم يتفاضلون فيها، وكانت طبقة المرسلين[٥] النبيين طبقة واحدة [والنبيون غير المرسلين طبقة واحدة لأنهم أيضا يتفاضلون فيها] (ومنازلهم في الدنيا في درج متقاربة إلا أنهم يتفاضلون فيه)، وكانت[١] الصحابة طبقة واحدة إلا أنهم يتفاضلون [فيها]، فوجب بلا شك: ألا يكون أتباع الرسل من النساء والأصحاب كالمتبوعين الذين هم الرسل، لأنه[٢] بالضرورة [نعلم] أن تابع الأعلى ليس لاحقا نظير متبوعه، فكيف أن يكون أعلى منه؟ كما أن التابعيات من نساء الصحابة [رضي الله عنهم] لا تلحقن نظراء أزواجهن من الصحابة إذ لسن معهم[٣] في طبقة، وإنما

---

(٢) "بأن".
(٣) "عز وجل".
(٤) "عز وجل".
(١) في الأصل: غرورا.
(٢) "عليه السلام".
(٣) "الجزاء".
(٤) في الأصل: يذكر.
(٥) في الأصل: والنبيين. والتصحيح عن ط.
(١) "وكل".
(٢) في الأصل: لأن.
(٣) في الأصل: معهن. والتصحيح عن ط وفيها (ليس هن) عوضا من (لسن).

ينظر بين أهل كل طبقة ومن هو في طبقته. ونساء النبي ﷺ طبقة واحدة مع الصحابة فصح التفاضل بينهم [وليس واحدة منهن ولا منهم مع الأنبياء في طبقة فلم يجز أن ينظر بينهم] وقد أخبر النبي[٤] ﷺ: أنه رأى ليلة الإسراء الأنبياء[٥] (صلوات الله عليهم أجمعين) في السموات سماء سماء. وبالضرورة يعلم[٦] أن منزلة النبي (ﷺ) الذي هو متبوع في سماء الدنيا أمر [ه] هنالك مطاع، أعلى من منزلة التابع في السماء السابعة للنبي الذي هنالك[٧] وإذ قد صح عن النبي ﷺ: أن كل نبي يأتي مع أمته فنحن مع نبينا [ﷺ] فإن كان ما (قد) ألزمناه مكي لازما [لنا] فنلزمه مثل [ذلك] فينا أيضا أن يكون[١] أفضل من الأنبياء، وهذا غير لازم لما ذكرنا من أنه لا ينظر في الفضل إلا بين من كان من أهل طبقة واحدة، فمن كان منهم أعلى منزلة من الآخر كان أفضل منه بلا شك، وليس ذلك في الطباق المختلفة. ألا ترى أن كون مالك خازن النار (ﷺ) في مكان غير مكان خازن الجنة وغير مكان جبريل[٢] [لا] يحيط[٣] درجته عن درجة من في الجنة من الناس: الذين الملائكة جملة[٤] أفضل منهم، لأن مالكا متبوع في النار[٥] [و] مقدم مطاع مفضل بذلك على التابعين والخدم[٦] في الجنة [بلا شك] فبطل هنا الشغب. ونجمع هذا الجواب باختصار (فنقول): إن[٧] الرؤساء والمتبوعين من[٨] كل طبقة في الجنة أعلى[٩] من التابعين لهم. ونساء النبي ﷺ وأصحابه كلهم أتباع له [عليه السلام] وجميع الأنبياء متبوعون[١٠]، وإنما ينظر بين المتبوعين: أيهم أفضل؟ وينظر بين الأتباع: أيهم أفضل؟ ويعلم الفضل بعلو درجة كل فاضل ممن[١] دونه في الفضل ولا يجوز أن ينظر بين الأتباع والمتبوعين لأن المتبوعين[٢] لا يكونون البتة أحط درجة من التابعين [وبالله تعالى التوفيق]. فإن قال قائل: فكيف تقولون في الحور العين؟ أهن أفضل من الناس

---

(٤) "عليه السلام".
(٥) "عليهم السلام".
(٦) "نعلم".
(٧) "هناك.
(١) "نكون".
(٢) "جبرائيل".
(٣) "تحط".
(٤) في الأصل: الذين هم الملائكة وجملة. والتصحيح عن ط.
(٥) "للنار".
(٦) "الخدمة".
(٧) "وهو أن".
(٨) "في".
(٩) في الأصل: أعنى. والتصحيح عن ط.
(١٠) في الأصل: متبوعين.
(١) "من".
(٢) في الأصل: لأنه في المتبوعين.

ومن الأنبياء كما قلت في الملائكة؟ فجوابنا وبالله [تعالى] التوفيق: أن الفضل لا يعرف إلا ببرهان مسموع من الله تعالى في القرآن [أ] ومن كلام الرسول ﷺ، ولم نجد الله تعالى نص على فضل الحور العين كما نص على فضل الملائكة. وإنما نص (الله تعالى) [على] أنهن مطهرات حسان عرب أتراب يجامعن ويشاركن أزواجهن في اللذات كلها، وأنهن خلقن ليلتذ بهن المؤمنون. فإذا الأمر كذلك[٣]، فإنما محل الحور محل من هن له فقط. (و) إن ذلك اختصاص لهن بلا عمل ولا تكليف، فهن خلاف الملائكة في ذلك وبالله التوفيق.

[* قال أبو محمد *]: ومما يؤكد قولنا قول الله تعالى: {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (*) هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون} [يس: ٣٦/٥٥-٥٦] وهذا النص إذ قد صح فوجب[٤] الإقرار به. فلو عجزنا عن تفضيل[١] بعض أقسام هذه[٢] الاعتراضات، لما لزمنا في ذلك نقص[٣]: إذ لا يجوز الاعتراض على هذا النص فكل[٤] ما صح بيقين فلا يجوز أن يعارض (إلا) بيقين آخر والبرهان لا يبطله برهان[٥]. وقد أوضحنا أن الجنة دار جزاء على أعمال المكلفين، فأعلاهم درجة أعلاهم فضلا، ونساء النبي ﷺ أعلى درجة [في الجنة] من جميع [الصحابة]، فهن أفضل منهم[٦]. فمن أبى هذا فليخبرنا: ما معنى الفضل عنده؟ إذ لابد (من) أن يكون لهذه الكلمة معنى، فإن قال (قائل): لا معنى لها فقد كفانا مؤونته فإن قال (قائل): إن لها معنى، سألناه: ما هو؟ فلا نجد غير ما قلنا [وبالله تعالى التوفيق] فكيف وقد أبنا[٧] – بتأييد الله تعالى[٨] لنا – كل ما اعترض علينا به في هذا الكتاب[٩]، ولاح الوجه في ذلك بينا والحمد لله (رب العالمين.

[الفرق بين السيادة والفضل وكون عائشة أفضل من فاطمة] * قال أبو محمد *) واستدركن بيانا زائدا في قول رسول الله ﷺ [في] أن ((فاطمة سيدة نساء المؤمنين)) أو ((نساء هذه الأمة)) فنقول وبالله التوفيق: إن الجواب مراعاة ألفاظ الحديث، وإنما ذكر

(٣) "هكذا".
(٤) فقد وجب.
(١) كذا ولعلها تفنيد.
(٢) في الأصل: هذا.
(٣) "لما ألزمنا في هذا نقصا".
(٤) "وكلما".
(٥) كذا في الأصل وفي ط. والسياق يقتضي أن يقال (إلا برهان).
(٦) (منهن) وهو خطأ
(٧) (أبينا)
(٨) (عز وجل)
(٩) (الباب)

النبي[1] ﷺ في هذا الحديث السيادة و لم يذكر الفضل، وذكر [عليه السلام] في حديث عائشة الفضل نصا بقوله [السلام] ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))

* قال أبو محمد *: والسيادة[2] غير الفضل ولا شك (في) أن فاطمة سيدة نساء العالمين بولادة النبي ﷺ لها، فالسيادة[3] من باب الشرف لا من باب الفضل، فلا تعارض بين الحديثين البتة [والحمد لله رب العالمين].

وقد قال ابن عمر [رضي الله عنهما] وهو حجة في اللغة العربية: ((كان [أبو بكر] خيرا وأفضل من معاوية، و (قد) كان معاوية أسود من أبي بكر)) ففرق ابن عمر كما ترى بين السيادة والفضل [والخير]. وقد علمنا أن الفضل هو الخير نفسه، لأن الشيء إذا كان خيرا من شيء [آخر] فهو أفضل منه بلا شك.

[رد اعتراض: ((وليس الذكر كالأنثى))]

[* قال أبو محمد *]: وقد قال قائل ممن خالفنا في هذا[4]:

قال الله تعالى[1]: {وليس الذكر كالأنثى} [آل عمران: ٣/٣٦] فقلنا (له) وبالله التوفيق: فأنت إذن عند نفسك أفضل من مريم وعائشة وفاطمة، لأنك ذكر وهؤلاء إناث، فإن قال: هذا (هو) الحق (إذن) بالنوكى[2] وكفر، وإن[3] سأل عن معنى الآية؟ قيل [له]: الآية على ظاهرها، ولا شك في أن الذكر ليس كالأنثى ولو[4] كان كالأنثى لكان أنثى والأنثى أيضا ليست كالذكر [لأن هذه أنثى وهذا ذكر] وليس هذا من الفضل في شيء البتة، وكذلك الحمرة غير الخضرة، والخضرة ليست كالحمرة وليس هذا من باب الفضل.

فإن اعترض [معترض] بقول الله عز وجل[5]: {وللرجال عليهن درجة} [البقرة: ٢/٢٢٨].

---

(١) "عليه السلام".
(٢) "السادة" وهو خطأ
(٣) "يخالفنا"
(٤) في الأصل: هكذا. والتصحيح عن ط.
(١) "عز وجل".
(٢) "في الأصل: بالنوك والتصحيح عن ط والنوكى: الحمقى.
(٣) "فإن".
(٤) "لأنه لو".
(٥) "تعالى".

قيل [له: إنما] هذا في حقوق الأزواج على الزوجات، ومن أراد حمل هذه الآية على ظاهرها لزمه أن يكون كل يهودي وكل مجوسي وكل فاسق من الرجال أفضل من أم موسى وأم إسحاق وأم عيسى[٦] عليهم السلام ومن نساء النبي ﷺ وبناته، وهذا كفر ممن قاله بإجماع الأمة. وكذلك قول الله[١] تعالى: {أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين} [الزخرف: ١٨/٤٣] (و) إنما ذلك في تقصيرهن في الأغلب عن المحاجة لقلة دربتهن وليس في هذا ما يحط الفضل عن ذوات الفضل منهن.

[رد اعتراض: فضل أولي الأمر على أمهات المؤمنين، وأن الطاعة إنما تجب للأفضل]

فإن اعترض معترض فقال: الذين[٢] أمرنا بطاعتهم من خلفاء الصحابة [رضي الله عنهم] أفضل من نساء رسول الله ﷺ بقوله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [النساء: ٥٩/٤].

فالجواب وبالله [تعالى] التوفيق: إن هذا خطأ من جهات إحداها[٣] أن نساء رسول الله ﷺ من جملة أولي الأمر منا الذين أمرنا بطاعتهم فيما بلغن إلينا عن رسول الله[٤] ﷺ كالأئمة من الصحابة سواء [و] لا فرق. والوجه الثاني: أن الخلافة ليست من قبل فضل الواحد في دينه فقط، وجبت لمن وجبت له، وكذلك الإمارة لأن الإمارة قد تجوز لمن غيره أفضل منه. وقد كان عمر [رضي الله عنه] مأمورا[١] بطاعة عمرو بن العاص إذ[٢] أمره رسول الله ﷺ في غزوة ذات السلاسل. فبطل أن تكون الطاعة إنما تجب للأفضل فالأفضل. وقد أمر النبي ﷺ عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كثيرا ولم يؤمر (قط) أبا ذر، وأبو ذر أفضل[٣] منهما بلا شك. وأيضا فإنما وجبت طاعة الخلفاء من الصحابة لأوامرهم مذ ولوا، لا قبل ذلك. ولا خلاف في أن الولاية لم تزدهم فضلا على ما كانوا [عليه و] إنما زادهم فضلا عدلهم في الولاية [لا الولاية] نفسها، وعدلهم داخل في جملة أعمالهم التي يستحقون الفضل بها. ألا ترى أن معاوية والحسن إذ وليا كانت طاعتهما واجبة على سعد[٤] بن أبي وقاص، وسعد

---

(٦) "أم عيسى وأم إسحاق".
(١) "قوله".
(٢) "الذي" وهو خطأ.
(٣) في الأصل: أحدهما والتصحيح من ط.
(٤) "النبي".
(١) في الأصل: مأمور.
(٢) في الأصل: إذا. والتصحيح عن ط.
(٣) "أفضل خير".
(٤) في الأصل: سعيد وهو خطأ.

أفضل منهما ببون بعيدا جدا، وهو حي معهما مأمور بطاعتهما. وكذلك القول في جابر وأنس [بن مالك] وابن عمر في وجوب (طاعة ابن الزبير عليهم ثم وجوب) طاعة عبد الملك بن مروان، والذي بين جابر وأنس وابن عمر وبين عبد الملك في الفضل كالذي بين الظلمة والنور[٥]. فليس في وجوب طاعة الولاة ما يوجب لهم فضلا في الجنة.

[شبه إلحاق الذرية بالآباء]

فإن اعترض معترض بقول الله تعالى: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين} [الطور: ٢١/٥٢] فبيان اعتراضه ظاهر [في آخر الآية] وهو أن إلحاق الذرية بالآباء لا يقتضي كونه معهم في درجة، ولا هذا مفهوم من نص الآية، بل إنما فيها: إلحاقهم [بهم] فيما ساووهم فيه بنص الآية. ثم بين تعالى ذلك و لم يدعنا في شك (وذلك) بقوله تعالى: {كل امرئ بما كسب رهين} فصح أن كل واحد من الآباء والأبناء يجازى بحسب ما كسب فقط. وليس حكم الأزواج كذلك، بل أزواج النبي ﷺ معه في قصوره وعلى سرره فيتلذذ بهن ومعهن جزاء لهن بما عملن من الخير، وبصبرهن واختيارهن الله [تعالى] ورسوله ﷺ والدار الآخرة. وهذه منزلة لا يحلها أحد بعد النبيين [والمرسلين عليهم الصلاة والسلام] فهن أفضل من كل أحد دون الأنبياء عليهم السلام.

[شبهة قوله ﷺ ما رأيت ناقصات عقل ودين. إلخ]

فإن شغب مشغب بقول رسول الله ﷺ "ما رأيت ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من إحداكن" قلنا [له] وبالله التوفيق: إن حملت هذا الحديث على ظاهره، فيلزمك أنك[١] تقول: إنك أتم عقلا ودينا من مريم وأم موسى وأم إسحاق ومن عائشة وفاطمة، فإن تمادى على ذلك سقط الكلام معه و لم يبعد من الكفر؛ وإن قال: "لا"، سقط اعتراضه واعترف أن من الرجال من هو أنقص دينا وعقلا من كثير من النساء.

فإن سأل عن معنى الحديث قيل له: قد بين رسول الله ﷺ وجه ذلك النقص وأنه[٢] بكون شهادة المرأة نصف[٣] شهادة الرجل، وكونها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم. وليس

(٥) "النور والظلمة" وهو أحسن.
(١) "أن".
(٢) "وهو".
(٣) "على النصف من".

هذا بموجب نقصان الفضل ولا نقصان الدين [والعقل] في غير هذين الوجهين [فقط]، إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هو[٤] أفضل من كثير من الرجال وأتم دينا وعقلا (في) غير [الـ] وجوه التي ذكر عليه[٥] السلام، وهو [عليه السلام] لا يقول إلا يقينا[٦]. فصح يقينا أنه إنما عين[٧] [عليه السلام] ما قد بينه في الحديث نفسه من الشهادة والحيض فقط. وليس ذلك مما ينقص الفضل، فقد علمنا أن أبا بكر وعمر وعليا لو شهدوا في زنى لم يحكم بشهادتهم و [أنه] لو شهد [به] منا[١] أربعة عدول في الظاهر لحكم[٢] بشهادتهم، وليس ذلك بموجب أننا أفضل من هؤلاء المذكورين. وكذلك القول في شهادة النساء فليست الشهادة من باب التفاضل في ورد ولا صدر، ولكن توقف[٣] فيها عند ما حده النص فقط. ولا شك عند كل مسلم في أن صواحبه من نسائه وبناته [عليهم السلام] كخديجة وعائشة وفاطمة وأم سلمة أفضل دينا ومنزلة عند الله تعالى من كل من[٤] أتى بعدهن ومن كل رجل يأتي في هذه الأمة إلى يوم القيامة فبطل الاعتراض بالحديث المذكور وصح أنه على ما فسرناه[٥] يقينا [والحمد لله رب العالمين].

[شبهة قوله ﷺ: "لم يكمل من النساء...." و "لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة"].

وأيضا قول[٦] الله تعالى: {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن} [الأحزاب: ٣٢/٣٣] مخرج لهن عن سائر النساء في كل ما اعترض به معترض مما ذكرنا وشبهه.

[* قال أبو محمد *]: فإن اعترض معترض بقول النبي ﷺ: "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم [بنت عمران] وامرأة فرعون" فإن هذا الكمال إنما هو الرسالة والنبوة التي تفرد[١] بها الرجال وشاركهم بعض النساء في النبوة. وقد يتفاضلون[٢] أيضا فيها

---

(٤) "هن".
(٥) النبي (ص).
(٦) "حقا".
(٧) "عبر".
(١) "أربعة منا".
(٢) "حكم".
(٣) "يقفا".
(٤) "تابع".
(٥) "بيناه".
(٦) "فقول".
* ص ٤٣ من الأصل: بيضاء.
(١) "انفرد".
(٢) في الأصل: يتفاضلن. والتصحيح عن ط

فيكون بعض الأنبياء أفضل[٣] من بعض [ويكون بعض الرسل أكمل من بعض] قال الله تعالى[٤]: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات} [البقرة: ٢/٢٥٣]. فإنما ذكر في هذا الخبر من بلغ غاية الكمال في طبقته، ولم يتقدمه منهم أحد وبالله [تعالى] التوفيق.

فإن اعترض معترض بقوله عليه السلام: "لن[٥] يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة" فلا حجة له في هذا[٦]، لأنه ليس امتناع والولاية منهن[٧] بموجب لهن نقص الفضل، فقد علمنا أن ابن مسعود وبلالا وزيد بن حارثة [رضي الله عنهم] لم يكن لهم حظ في الخلافة، وليس (ذلك) بموجب أن يكون الحسن وابن الزبير ومعاوية أفضل منهم. والخلافة جائزة لهؤلاء غير جائزة لهؤلاء[١] وبينهم في الفضل ما لا يجهله مسلم.

[أفضل أزواجه ﷺ عائشة وخديجة]

[قال أبو محمد]: وأما أفضل نسائه فعائشة وخديجة لعظيم فضائلهما ولإخباره[٢] عليه السلام: أن عائشة أحب الناس إليه، وأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقد ذكر عليه السلام خديجة بنت خويلد فقال: "أفضل نسائها مريم بنت عمران، وأفضل نسائها خديجة بنت خويلد" مع سابقة خديجة في الإسلام وثباتها[٣]. ولأم سلمة وسودة وزينب بنت جحش وزينب بنت خزيمة وحفصة سوابق في الإسلام عظيمة واحتمال[٤] المشقات[٥] في الله تعالى[٦] [ورسوله ﷺ] والهجرة والغربة عن الوطن والدعاء إلى الإسلام والبلاء في الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولكلهن بعد ذلك الفضل المبين [رضوان الله عليهن أجمعين)].

---

(٣) "أكمل".
(٤) "عز وجل".
(٥) "لا".
(٦) "ذلك".
(٧) "فيهن".
(١) "لأولئك".
(٢) "وإخباره".
(٣) في الأصل: وبنايها. والتصحيح عن ط
(٤) "وأحمال وهو خطأ".
(٥) "للمشقات".
(٦) "عز وجل".

[قال أبو محمد]: وهذه المسألة نقطع فيها على أننا المحققون عند الله تعالى[٧]، وأن من خالفنا فيها مخطئ عند الله [عز وجل] بلا شك، وليست مما يسع الشك فيه أصلا.

[قال أبو محمد] فإن قال قائل: هل قال هذا أحد قبلكم؟ قلنا [له وبالله تعالى التوفيق]: وهل قال غير هذا أحد قبل أن[١] يخالفنا الآن؟ وقد علمنا ضرورة أن لنساء رسول[٢] الله ﷺ منزلة من الفضل [بلا شك]، فلا بد من البحث عنها فليقل مخالفنا في أي منزلة يضعهن: أبعد (من) جميع الصحابة كلهم، فهذا ما لا يقوله أحد، أم بعد طائفة منهم، فعليه الدليل و [هذا ما] لا سبيل له إلى وجوده وإذ قد بطل هذا [ن] القولان: [أحدهما] لإجماع[٣] الناس على أنه باطل، والثاني لأنه دعوى بلا[٤] دليل [عليها ولا برهان]، فلم يبق إلا قولنا [والحمد لله رب العالمين الموفق للصواب بفضله]

[الاستشهاد بخطبة أبي بكر]

ثم نقول وبالله [تعالى] المستعان[٥]: قد صح أن أبا بكر [الصديق رضي الله عنه] خطب الناس حين [ولي بعد موت رسول الله ﷺ] فقال: "أيها الناس إني وليتكم[٦] ولست بخيركم" فقد صح [عنه رضي الله عنه] أنه أعلن بحضرة جميع الصحابة [رضي الله عنهم] أنه ليس بخيرهم و لم ينكر أحد منهم هذا القول، فدل على متابعتهم له، ولا خلاف في أنه ليس في أحد من الحاضرين لخطبته إنسان يقول فيه أحد من الناس: إنه خير من أبي بكر، إلا علي وابن مسعود وعمر. (و) أما جمهور الحاضرين من مخالفينا في هذه المسألة من أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والخوارج، فإنهم لا يختلفون في أن أبا بكر أفضل من علي وعمر وابن مسعود. وخير منهم، فصح أنه لم يبق إلا أزواج النبي ﷺ. فإن قال قائل: إنما قال أبو بكر هذا تواضعا، قلنا له: هذا هو الباطل المتيقن: لأن الصديق الذي سماه رسول الله ﷺ بهذا الاسم لا يجوز أن يكذب وحاشى له من ذلك [ولا يقول إلا الحق والصدق فصح أن الصحابة متفقون في الأغلب على تصديقه في ذلك، فإذ ذلك كذلك]، وسقط بالبرهان

---

(٧) "عز وجل".
(١) "من".
(٢) "النبي".
(٣) "بالإجماع".
(٤) "لا".
(٥) "نستعين".
(٦) "وليت عليكم".

الواضح أن يكون أحد من الصحابة [رضي الله عنهم] خيرا من أبي بكر [لم يبق] إلا أزواج النبي ﷺ ونساؤه، ووضح أننا لو قلنا: إنه إجماع من جمهور الصحابة لم يبعد عن[1] الصدق.

[* قال أبو محمد *]: وأيضا فإن يوسف بن عبد الله النمري حدثنا وذكر الإسناد إلى أبي أيوب[1] سليمان من داود الشاذكوني قال: "كان عمار بن ياسر والحسن بن علي يفضلان علي بن أبي طالب على أبي بكر [الصديق] وعمر" وبإسناد[2] عن محمد بن جرير الطبري: "أن علي بن أبي طالب بعث عمار بن ياسر والحسن بن علي إلى الكوفة، إذ خرجت أم المؤمنين إلى البصرة، فلما أتياها اجتمع الناس إليهما في المسجد، فخطبهم عمار، وذكر لهم خروج عائشة إلى البصرة، ثم قال له: "إني أقول لكم ووالله إني لأعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة كما هي زوجته في الدنيا، ولكن الله ابتلاكم بها لتطيعوها [أو لتطيعوه]" فقال له مسروق[3] [أبو] الأسود: "يا أبا اليقظان نحن[4] مع من شهدت له بالجنة دون من لم تشهد له" فسكت عمار فقال[5] له الحسن: "أغن نفسك عنا" فهذا عمار والحسن وكل من حضر من الصحابة [رضي الله عنهم] والتابعين – والكوفة يومئذ مملوءة منهم – يسمعون تفضيل عائشة على علي، وهو عند عمار والحسن أفضل من أبي بكر وعمر و[1] لا ينكرون ذلك ولا يعترضونه أحوج ما كانوا إلى إنكاره، فصح أنهم متفقون على أنها وأزواجه عليه السلام أفضل من كل الناس بعد الأنبياء [عليهم السلام]. ومما نبين: أن أبا بكر [رضي الله عنه] لم يقل: "وليتكم ولست بخيركم" إلا محقا صادقا، ولا تواضعا يقول فيه الباطل وحاشى له من ذلك وذكر بإسناده[2] عن أبي سعيد الخدري قال: قال أبو بكر. [الصديق رضي الله عنه]: "ألست[3] أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟ ألست صاحبه[4]؟".

---

(١) "من".

(١) في ط ذكر الإسناد كما يلي: حدثنا خلف بن قاسم ثنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن علي الكندي حدثنا محمد بن العباس البغدادي ثنا إبراهيم ابن محمد البصري ثنا أبو أيوب الخ..

(٢) أورده في ط: حدثنا أحمد بن محمد الحوزي ثنا أحمد بن الفضل الدينوري ثنا محمد بن جرير الطبري الخ.

(٣) ط: "مسروق أو أبو الأسود".

(٤) "فنحن".

(٥) "وقال".

(١) "فلا".

(٢) في ط سرد الإسناد هكذا: ما حدثناه أحمد بن محمد الطلمنكي قال حدثنا أحمد بن محمد بن مفرج ثنا محمد بن أيوب الصموت الرقي أنا أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ثنا عبد الملك بن سعد ثنا عقبة بن خالد ثنا شعبة بن الحجاج ثنا الحريري ثنا عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري إلخ. كذا ذكر الحريري بالحاء والصواب: الجريري بالجيم كما في تهذيب التهذيب.

(٣) "لست".

(٤) "صاحب كذا".

* قال أبو محمد*: فهذا أبو بكر [رضي الله عنه] بذكر فضائل نفسه إذا كان صادقا فيها، فلو كان أفضلهم، لصرح بذلك[1] وما كتمه. وقد نزهه الله [تعالى] عن الكذب، فصح قولنا أيضا[2] والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث

[أفضل الصحابة بعد أزواج النبي]

[* قال أبو محمد *] ثم وجب القول فيمن هو أفضل الصحابة (رضي الله عنهم) بعد نساء النبي ﷺ:

و لم[1] نجد لمن فضل ابن مسعود أو عمر أو جعفر بن أبي طالب [أو] أبا سلمة أو الثلاثة الأسهليين على جميع الصحابة حجة يعتمد عليها، ووجدنا من توقف[2] لم يرد على أنه لم يلح له البرهان: أنهم[3] أفضل ولو لاح له لقال به ووجدنا [العدد] المعارضة في القائلين بأن عليا أفضل [أكثر]. فوجب أن آتي[4] بما شغبوا فيه[5] ليلوح الحق في ذلك وبالله [تعالى] التوفيق.

[البرهان على أن أبا بكر أكثر جهادا من علي]

[* قال أبو محمد *] فوجدناهم[6] يحتجون بأن عليا كان أكثر الصحابة جهادا وطعنا في الكفار وضربا، والجهاد أعظم[7] الأعمال.

* قال أبو محمد: (و) هذا خطأ، لأن الجهاد ينقسم أقساما ثلاثة: أحدها الدعاء إلى الله عز وجل باللسان، والثاني الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير، [و] الثالث الجهاد باليد في الضرب والطعن[1]. فوجدنا الجهاد باللسان لا يلحق فيه أحد بعد النبي ﷺ أبا[2] بكر ثم[3]

(١) "به".
(٢) "نصا".
(١) "فلم".
(٢) "يوقف".
(٣) في الأصل غير منقوطة فأثبتنا ما في ط وإن كنا نرجح أنها: أيهم.
(٤) "في الأصل: يأتي".
(٥) "ربه".
(٦) "وجدناهم".
(٧) "أفضل".
(١) "في الطعن والضرب".
(٢) في الأصل: أبو.
(٣) "و".

عمر. أما أبو بكر فإن أكابر الصحابة [رضي الله عنهم] أسلموا على يده[٤] فهذا أفضل عمل، وليس لعلي من هذا كثير حظ. وأما عمر فإنه يوم أسلم عمر عز الإسلام وعبدوا[٥] الله تعالى بمكة جهارا[٦] وجاهد المشركين [بمكة] بيده[٧] فضرب وضرب[٨] حتى ملوه فتركوه، وعبد[٩] الله علانية، وهذا أعظم الجهاد. فقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين اللذين لا نظير لهما ولا حظ لعلي في هذا أصلا. وبقي القسم الثاني وهو الرأي والمشورة، فوجدناه خالصا لأبي بكر ثم لعمر. وبقي القسم الثالث وهو الطعن والضرب والمبارزة فوجدناه أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري. وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم (في) أنه المخصوص بكل فضيلة فوجدنا جهاده عليه السلام إنما كان في أكثر أعماله وأحواله القسمين الأولين من الدعاء إلى الله عز وجل والتدبير والإدارة[١] وكان أقل عمله ﷺ الطعن والضرب والمبارزة لا عن جبن، بل كان، عليه السلام، أشجع أهل الأرض قاطبة نفسا ويدا وأتمهم نجدة، ولكن[٢] كان يؤثر للأفضل[٣] فالأفضل من الأعمال[٤]، فيقدمه[٥] ويشتغل به. ووجدناه عليه السلام يوم بدر وغيره: كان أبو بكر [رضي الله عنه] معه لا يفارقه، وإيثارا من رسول الله ﷺ له بذلك، واستظهارا برأيه في الحرب، وأنسا بمكانه، ثم كان عمر ربما شورك في ذلك [أيضا] فقد[٦] انفرد بهذا المحل دون علي ودون سائر الصحابة إلا في الندرة. ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد الذي هو الطعن والضرب والمبارزة (ومن يفعل ذلك) فوجدنا عليا [رضي الله عنه] لم ينفرد بالبسوق[٧] فيه، بل [قد] شاركه في ذلك (جماعة) [غيره] شركة العيان[٨] كطلحة والزبير وسعد و (جماعة) ممن قتل في صدر الإسلام كحمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب ومصعب بن عمير، ومن الأنصار سعد بن معاذ

---

(٤) "يديه".
(٥) "وعبد".
(٦) "جهرا".
(٧) "بيديه".
(٨) في الأصل: فضر وضوبر وظاهر أن الصواب: فضرب وضورب.
(٩) فعبد.
(١) "الإرادة"
(٢) "ولكنه".
(٣) "الافضل".
(٤) "الأفعال".
(٥) "فقدمه"
(٦) "وقد".
(٧) "النسوق" وهو خطأ.
(٨) "العنان"

وسماك بن خرشة[1] وغيرهما، ووجدنا أبا بكر وعمر قد شركاه[2] في ذلك بحظ حسن وإن لم يلحق[3] بحظوظ هؤلاء وإنما ذلك لشغلهما بالأفضل من ملازمة رسول الله ﷺ ومؤازرته في حين الحرب. وقد بعثهما عليه[4] السلام إلى البعوث أكثر مما بعث عليا: فقد[5] بعث أبا بكر إلى فزارة وغيرهم [وبعث عمر إلى بني فلان] وما نعلم عليا[6] بعثه إلا إلى بعض حصون (أهل) خيبر ففتحه و [قد] بعث (إليه) قبله أبا بكر وعمر فلم يفتحاه، فحصل أرفع[7] [أنواع] الجهاد لأبي بكر ثم[8] عمر وقد شاركا عليا في أقل أنواع الجهاد مع جماعة غيرهم.

[البرهان على أن أبا بكر أعلم من علي وغيره]

[* قال أبو محمد *] واحتج (بعضهم) أيضا بأن[9] قال: "إن عليا كان أكثرهم علما".

[* قال أبو محمد*]: كذب هذا القائل وإنما يعرف علم الصحابة[10] بأحد وجهين لا ثالث لهما: أحدهما كثرة [روايته و] فتاويه، والثاني كثرة استعمال النبي ﷺ له، فمن المحال الباطل أن يستعمل النبي ﷺ من لا علم له، وهذه أكبر الشهادات على العلم وسعته. فنظرنا في ذلك فوجدنا النبي ﷺ قد ولى أبا بكر، الصلاة بحضرته طول علته وجميع أكابر الصحابة حضور كعلي وعمر وابن مسعود وأبي وغيرهم، وأمره[1] بذلك على جميعهم. وهذا خلاف استخلافه عليه السلام إذا غزا، لأن المستخلف في الغزو لم يستخلف إلا على النساء وذوي[2] الأعذار فقط، فوجب ضرورة أن نعلم أن أبا بكر أعلم القوم[3] بالصلاة وشرائعها [وأعلم المذكورين بها] وهي عمود الدين ووجدناه عليه[4] السلام أيضا قد استعمله على الصدقات فوجب ضرورة أن (نعلم) أن عنده من علم الصدقات كالذي عند غيره من العلماء[5] من الصحابة لا أقل (منه ولا أكثر) بل[6] ربما [كان] أكثر إذ قد استعمل [عليه

(١) "خرسة" وهو خطأ.
(٢) "شاركاه".
(٣) "يلحقا".
(٤) "رسول الله ﷺ".
(٥) "وقد".
(٦) "لعلي بعثا".
(٧) "أربع" وهو خطأ.
(٨) "و".
(٩) "من".
(١٠) "الصحابي لأحد".
(١) "فآثره".
(٢) "وذو".وهو خطأ.
(٣) "الناس".
(٤) "صلى الله عليه وسلم".
(٥) "علماء الصحابة".

السلام أيضا] غيره عليها[٧] ولا يستعمل إلا عالما بما استعمله عليه، والزكاة ركن [من أركان] الدين بعد الصلاة وبرهان ما قلنا من تمام علم أبي بكر [رضي الله عنه] بالصدقات: أن الأخبار الواردة في الزكاة أصحها[٨]، والذي يلزم العمل به ولا يجوز خلافه [فهو]: حديث أبي بكر ثم الذي من طريق عمر وأما (الذي) من طريق علي فمضطرب وفيه ما قد تركه الفقهاء جملة وهو أن في خمس وعشرين من الإبل خمسا من الشاء[١]، ووجدناه ﷺ استعمل أبا بكر على الحج، فصح ضرورة أنه أعلم من جميع الصحابة بالحج وهذه دعائم الإسلام ثم وجدناه [عليه السلام] استعمله على البعوث [فصح أن عنده من أحكام الجهاد مثل ما عند سائر من استعمله رسول الله ﷺ على البعوث] في الجهاد، [إذ] لا يستعمل عليه السلام على العمل إلا عالما به، فعند أبي بكر من الجهاد[٢] والعلم به كالذي عند علي وسائر أمراء البعوث لا أكثر ولا أقل. فإذ قد صح لأبي بكر التقدم[٣] على غيره في علم الصلاة والزكاة والحج وساواه في علم الجهاد، فهذه عمدة العلم، ثم وجدناه [ﷺ] قد ألزم نفسه في جلوسه ومسامرته[٤] وظعنه وإقامته [أبا بكر] فشاهد أحكامه عليه السلام وفتاويه أكثر من مشاهدة علي لها] فصح ضرورة أنه أعلم بها. فهل بقيت من العلم بقية إلا وأبو بكر (هو) المقدم[٥] فيها الذي لا يلحق أو المشارك الذي لا يسبق؟ فبطلت دعواهم في العلم والحمد لله رب العالمين.

[في المفاضلة بينهم في الرواية والفتيا]

(فصل) وأما الراوية والفتيا فإن أبا بكر (رضي الله عنه) لم يعش بعد النبي[١] ﷺ إلا سنتين وستة أشهر، ولم يفارق المدينة إلا حاجا أو معتمرا، فلم[٢] يحتج الناس إلى ما عنده من الرواية عن رسول الله ﷺ، لأن كل من حواليه أدركوا رسول[٣] الله ﷺ. وعلى ذلك كله فقد روي عنه عن النبي ﷺ مئة حديث واثنان وأربعون حديثا مسندة، ولم يرو عن علي إلا خمس

---

(٦) "و".
(٧) "عليها غيره".
(٨) في الأصل: أصحهما.
(١) "خمس شياه فوجدناه".
(٢) "من".
(٣) "التقدم لأبي بكر".
(٤) "مآمره".
(٥) "المتقدم".
(١) "رسول الله".
(٢) في الأصل: فتاويه والتصحيح عن ط.
(٣) "النبي".

مئة (حديث) وستة وثمانون حديثا مسندة يصح[٤] منها نحو خمسين وقد عاش بعد رسول الله ﷺ أزيد من ثلاثين سنة، فكثر[٥] لقاء الناس إياه وحاجتهم إلى ما عنده لذهاب جمهور الصحابة [رضي الله عنهم] وكثر سماع أهل الآفاق منه مدة[٦] بصفين ومدة بالبصرة وأعواما بالكوفة[٧] [والمدينة] فإذا نسبنا حديث أبي بكر من حياته وأضفنا تقريه[٨] على البلاد بلدا بلدا[٩]، وكثرة سماع الناس منه، إلى لزوم أبي بكر موطنه، وأنه لم تكثر حاجة من حواليه إلى[١] الرواية عنه ثم نسبنا عدد حديث من عدد حديث وفتاوى من فتاوى[٢]، وعلم كل ذي حظ من العلم أن الذي كان عند أبي بكر من العلم أضعاف ما كان عند علي منه. وبرهان ذلك أن من عمر من أصحاب رسول الله ﷺ عمرا قليلا قل النقل عنه، ومن طال عمره منهم كثر النقل عنه[٣]، إلا اليسير (منهم) من اكتفى بنيابة غيره عنه في تعليم الناس. وقد عاش علي بعد عمر [بن الخطاب] سبعة عشر عاما غير أشهر، ومسند عمر خمس مئة حديث وسبعة وثلاثون حديثا يصح منها نحو خمسين كما[٤] صح عن علي سواء بسواء، فكل ما زاد حديث علي على [حديث] عمر بسبعة[٥] وأربعين حديثا في هذه المدة الطويلة، و لم يزد عليه في الصحيح إلا حديثا[٦] أو حديثين. وفتاوي عمر مساوية[٧] لفتاوي علي في أبواب الفقه، فإذا نسبنا [مدة] من مدة، وضربا[٨] في البلاد من ضرب فيها، وأضفنا حديثا إلى حديث، وفتاوى إلى فتاو، علم كل ذي حس، علما ضروريا: أن الذي كان عند عمر من العلم أضعاف ما كان عند علي من العلم ثم وجدنا الأمر كلما طال كثرت الحاجة إلى الصحابة فيما عندهم من العلم فوجدنا حديث عائشة [رضي الله عنها] ألفي مسند ومئتي مسند وعشرة مسانيد، وحديث أبي هريرة خمسة آلاف مسند وثلاث مئة مسند وأربعة[١]

---

(٤) "فقد صح".
(٥) ط: وكثر.
(٦) ط: مرة.
(٧) ط: أعواما بالكوفة ومرة بالبصرة.
(٨) في الأصل: تفريقه.
(٩) في الأصل: بكذا وكذا والتصحيح عن ط.
(١) في الأصل: عن. والتصويب عن ط.
(٢) في الأصل فتاويه والتصحيح عن ط.
(٣) ط: عنهم.
(٤) ط: كالذي.
(٥) ط: تسعة.
(٦) في الأصل: حديث.
(٧) ط: موازنة.
(٨) "ضربنا" وهو خطأ.
(١) "أربع" وهو خطأ.

وسبعين مسندا [ووجدنا] مسند ابن عمر وأنس قريبا من مسند عائشة، لكل واحد منهما، ووجدنا مسند جابر بن عبد الله وعبد الله بن العباس[٢]، لكل واحد منهما أزيد من ألف وخمس مئة، ووجدنا لابن مسعود ثماني مئة مسند ونيفا[٣]، ولكل من ذكرنا حاشا أبا هريرة وأنس بن مالك من[٤] الفتاوى أكثر من فتاوى علي أو نحوها، فبطل قول هذا[٥] الجاهل. فإن عاندنا [معاند] في هذا الباب [جاهل] أو قليل الحياء، لاح لديه بأنا غير متهمين[٦] على حط أحد من الصحابة رضي الله عنهم (أجمعين) عن مرتبته ولا على رفعه فوق مرتبته، لأننا لو انحرفنا عن علي رضي الله عنه ونعوذ بالله من ذلك لذهبنا فيه مذهب الخوارج، وقد نزهنا الله [عز وجل] عن[٧] هذا الضلال في التعصب. ولو غلونا فيه لذهبنا فيه مذهب الشيعة، وقد أعاذنا الله تعالى من هذا الإفك في التعصب. فصار غيرنا من المنحرفين عنه أو الغالين فيه هم المتهمون فيه إما عليه وإما له[١] وبعد هذا كله فليس يقدر من ينتمي[٢] إلى الإسلام أن يعاند في الاستدلال على كثرة العلم باستعمال النبي ﷺ [بمن استعمله] منهم على ما استعمله عليه من أمور الدين (كان أعلم به)[٣] فإن قالوا: "إن رسول الله ﷺ قد استعمل عليا على الأخماس وعلى القضاء باليمن" قلنا [لهم]: نعم ولكن مشاهدة أبي بكر لأقضية النبي[٤] ﷺ أقوى في العلم، وأثبت مما عند علي وهو باليمن، وقد استعمل رسول الله ﷺ أبا بكر على بعوث (و) فيها الأخماس فقد ساوى علمه علم علي (فيها) في حكمها بلا شك، إذ لا يستعمل، عليه السلام، إلا عالما بما استعمله عليه، وقد صح أن أبا بكر وعمر كانا يفتيان على عهد رسول الله ﷺ وهو عليه السلام يعلم ذلك، ومحال[٥] أن يبيح لهما[٦] ذلك إلا وهما أعلم ممن دونهما. وقد استعمل [عليه السلام] أيضا على القضاء[٧] على[٨] اليمن مع علي

(٢) "عباس".
(٣) "نيف".
(٤) في الأصل: في والتصحيح عن ط.
(٥) "هذه الوقاع الجهال".
(٦) "مهتمين" وهو خطأ.
(٧) في الأصل: عن ذلك عن هذا الظلال. والتكرير سهو من الناسخ.
(١) "إما له وإما عليه".
(٢) في الأصل: ينتهي والتصحح عن ط.
(٣) زيادة في الأصل ولا لزوم لها.
(٤) "رسول الله".
(٥) "محال ذلك" وذلك لا لزوم لها.
(٦) في الأصل: لهم.
(٧) في الأصل: القضايا.
(٨) "باليمن".

معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري، فلعلي في هذا شركاء كثير منهم أبو بكر وعمر، ثم [قد] انفرد أبو بكر بالجمهور (و) الأغلب من العلم على ما ذكرنا.

[البرهان على أن الصديق أقرأ من علي وسائر الصحابة]

وقال هذا القائل (أيضا): "إن عليا[1] كان أقرأ الصحابة".

* قال أبو محمد: وهذه القحة المجردة[2] والبهتان لوجوه: أحدها أنه رد على النبي[3] عليه السلام، لأنه عليه السلام قال: "يؤم القوم أقرؤهم فإن استووا فأفقههم، فإن استووا فأقدمهم هجرة" ثم وجدناه عليه السلام قد قدم أبا بكر في[4] الصلاة مدة الأيام التي مرض فيها، وعلي بالحضرة يراه النبي ﷺ غدوة وعشيا، فما رأى [لها] النبي ﷺ[5] أحدا أحق من أبي بكر بها، فصح أنه كان أقرأهم وأفقههم وأقدمهم هجرة. وقد يكون من لم يجمع حفظ القرآن كله (على حفظه وعلمه) عن ظهر قلب أقرأ ممن جمعه كله عن ظهر قلب، فيكون ألفظ به وأحسن[6] ترتيبا. هذا على أن أبا بكر وعمر وعليا لم يستكمل واحد[7] منهم حفظ سواد[8] القرآن كله ظاهرا، إلا أنه قد وجب يقينا – بتقديم النبي ﷺ لأبي بكر على الصلاة وعلي حاضر – أن أبا بكر أقرأ من علي، وما كان[1] عليه السلام ليقدم إلى الإمامة الأقل علما بالقراءة على الأقرأ، ولا[2] للأقل فقها على الأفقه، فبطل أيضا شغبهم في هذا الباب والحمد لله رب العالمين.

[البرهان على أن الصديق أتقى من علي وسائر الصحابة]

(وقال الجاهل: علي أتقاهم لله عز وجل) قال أبو محمد: كذب هذا الآفك، ولقد كان علي [رضي الله عنه] تقيا إلا أن الفضائل[3] يتفاضل فيها أهلها؛ وما كان أتقاهم لله إلا أبا بكر. والبرهان على ذلك أنه لم يسوء [قط] أبو بكر رسول الله ﷺ (قط) في كلمة ولا

(١) "علينا" وهو خطأ ظاهر.
(٢) "المتجردة".
(٣) "رسول الله ﷺ".
(٤) "علي".
(٥) "عليه السلام".
(٦) "أحسنهم".
(٧) "أحد".
(٨) "سوار".
(١) "النبي ﷺ".
(٢) "أو".
(٣) "الفاضل" وهو خطأ.

خالف إرادته [عليه السلام] في شيء قط، ولا تأخر عن تصديقه، ولا تأخر عن الائتمار لـه يوم الحديبية، ولا تردد إذ تردد من تردد. وقد تظلم رسول الله ﷺ على المنبر إذ أراد علـي نكاح بنت[٤] أبي جهل بما قد عرف، وما وجدنا لأبي بكر قط[٥] توقفا عن شيء أمر (٥) بـه رسول الله ﷺ، إلا مرة [واحدة] عذره [فيها] رسول الله ﷺ فيها وأجاز له فعله، إذ أتـى[٦] عليه السلام من قباء فوجده يصلي بالناس فلما رآه [أبو بكر تأخر فأشار إليه][١] رسـول الله ﷺ: أن أقم مكانك فحمد الله [تعالى] أبو بكر على ذلك ثم تأخر فصار في الصف وتقـدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس فلما سلم قال له النبي[٢] ﷺ: "ما منعك أن تثبت (مكانك) حـين أمرتك؟ فقال [أبو بكر]: "ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ".

* قال أبو محمد *: فهذه[٣] غاية التعظيم والطاعة والخضوع لرسول الله ﷺ [ومـا أنكـر عليه السلام ذلك عليه وإذ قد صح بالبرهان الضروري الذي ذكرنا أن أبـا بكـر أعلـم أصحاب رسول الله ﷺ] فقد وجب أنه أخشاهم لله عز وجل، قال الله تعـالى[٤]: {إنمـا يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨/٣٥] والتقى هي[٥] الخشية لله عز وجل.

[البرهان على أن الصديق أزهد من علي وسائر الصحابة]

وقال قائلون: "علي كان أزهدهم" قال أبو محمد: كذب هذا الجاهل، وبرهان ذلـك أن الزهد إنما هو غروب النفس عن حب الصوت وعن المال وعن اللذات وعن الميل إلى الولـد والحاشية، ليس الزهد معنى يقع عليه اسم الزهد إلا هذا المعنى. فأما غروب النفس عن المـال فقد علم كل من له أدنى بصر بشيء من الأخبار الخالية: أن أبا بكر أسلم وله مال عظيـم، قيل: أربعون[١] ألف درهم، أنفقها كلها في ذات الله تعالى، وعتق المستضعفين مـن العبيـد المؤمنين المعذبين في ذات الله عز وجل، ولم يعتق عبيدا جلدا يمنعونه؛ لكـن كـل معـذب [ومعذبة في الله عز وجل] حتى هاجر [مع] رسول الله ﷺ (ولم يبق لأبي بكر من جميع مالـه إلا ستة آلاف درهم حملها كلها مع رسول الله ﷺ) ولم يبق لبنيه منها درهمـا واحـدا، ثم

(٤) "ابنة".
(٥) "في ط كلمة (قط) بعد وجدنا.
(٦) "رسول الله ﷺ.
(١) "النبي".
(٢) "رسول الله".
(٣) "فهذا".
(٤) "عز وجل".
(٥) "هو" وهو خطأ.
(١) "أربعين".

أنفقها كلها في سبيل الله عز وجل حتى بقي[٢] لا شيء معه في عباءة [له] قد خللها بعود، إذا نزل فرشها[٣] وإذا ركب لبسها؛ إذ تمول غيره من الصحابة [رضي الله عن جميعهم] واقتنوا الرباع الواسعة والضياع العظيمة من حلها وحقها؛ إلا أن من آثر بذلك سبيل الله عز وجل أزهد ممن أنفق وأمسك.

ثم ولي الخلافة فما اتخذ جارية ولا اتسع[٤] في مال، و [عد] عند موته ما أنفق على نفسه وولده من مال الله تعالى الذي لم يستوف منه إلا بعض حقه، وأمر بصرفه إلى بيت المال من صلب ماله الذي حصل له من سهامه[١] في المغازي والمقاسم مع رسول الله ﷺ فهذا هو الزهد في اللذات والمال الذي لا يدانيه فيه أحد من الصحابة لا علي ولا عمر[٢] إلا أن [يكون] أبا ذر وأبا عبيدة [من المهاجرين الأولين] فإنهما جريا على هذه الطريقة التي فارقا عليها رسول الله ﷺ وتوسع من سواهم من الصحابة [رضي الله عنهم] في المباح الذي أحله الله تعالى[٣] لهم، إلا أن من آثر على نفسه أفضل[٤]. ولو[٥] أن أبا بكر لم يكن له سابقة غيره لما تقدمه إلا من كان مثله، ولقد تلا أبا[٦] بكر عمر رضي الله عنهما في هذا الزهد فكان فوق علي في ذلك، يعني في إعراضه عن المال واللذات. وأما علي [رضي الله عنه] فتوسع في المال من حله ومات من أربع زوجات وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد، وتوفي في أربعة وعشرين ولدا من ذكر وأنثى وترك لهم من العقار [والضياع] ما كانوا به [من] أغنياء قومهم ومياسيرهم. هذا أمر مشهور لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار ومن جملة عقاره (ينبع) التي تصدق بها، كانت تغل ألف وسق تمر [ا] سوى زرعها فأين هذا من هذا.

[تعفف أبي بكر وعمر عن استعمال الأقارب]

وأما حب الولد والميل إليهم وإلى الحاشية فالأمر في هذا أبين من أن يخفى على أحد له أقل علم بشيء من الأخبار: فقد كان لأبي بكر من القرابة والولد مثل طلحة بن عبيد الله من

---

(٢) "لم يبق له شيء".
(٣) "افترشها".
(٤) "توسع".
(١) "شهامة" وهو خطأ.
(٢) "غيره".
(٣) "عز وجل".
(٤) "فضل" وهو خطأ.
(٥) الجملة في ط هكذا: ولولا أن أبا ذر لم يكن له سابقة غيره لما تقدمه وهو غير مستقيم. وعبارة الأصل أوضح.
(٦) في الأصل وفي ط أبو، وهو خطأ ظاهر.

المهاجرين الأولين السابقين من ذوي الفضائل العظيمة في كل باب من أبواب الفضائل في الإسلام ومثل ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وله مع النبي ﷺ صحبة قديمة وهجرة سابقة وفضل ظاهر، فما استعمل أبو بكر [رضي الله عنه] منهم أحدا على شيء من الجهات وهي بلاد اليمن كلها (ومخاليفها) على سعتها وكثرة أعمالها[1]، وعمان وحضرموت والبحرين واليمامة والطائف ومكة وخيبر وسائر أعمال الحجاز، ولو استعملهم لكانوا أهلا لذلك[2]، ولكن خشي المحاباة وتوقع[3] أن يميله شيء من الهوى إليهم. ثم جرى عمر [على] مجراه في ذلك فلم يستعمل من بني عدي بن كعب أحدا على سعة البلاد [وكثرتها] وقد فتح الشام ومصر وجميع مملكة الفرس إلى خراسان، إلا النعمان بن عدي وحده على ميسان ثم أسرع عزله، وفيهم من الهجرة ما ليس في شيء من أفخاذ[1] قريش، لأن بني عدي لم يبق منهم بمكة أحد[2] إلا هاجر، وكان فيهم مثل سعيد بن زيد أحد المهاجرين الأولين ذوي السوابق، وأبي الجهم[3] بن حذيفة وخارجة بن حذافة ومعمر بن عبد الله وابنه عبد الله بن عمر. ثم لم يستخلف أبو بكر ابنه عبد الرحمن وهو [صاحب] من الصحابة [ولا استعمل عمر ابنه عبد الملك[4] على الخلافة وهو من فضلاء الصحابة] وخيارهم وقد رضي به الناس وكان أهلا لذلك[5] ولو استخلفه لم[6] يختلف عليه أحد فما فعل. ووجدنا عليا رضي الله عنه إذ ولي قد استعمل أقاربه عبد الله[7] بن العباس على البصرة، وعبيد الله بن العباس على اليمن، وقثم[8] ومعبد ابني العباس على مكة والمدينة، وجعل[9] ابن هبيرة وهو ابن أخت[10] أم هانئ بنت أبي طالب على خراسان، ومحمد بن أبي بكر وهو ابن امرأته وأخو ولده على مصر، ورضي ببيعة [الناس] ابنه[1] الحسن بالخلافة بعده ولسنا ننكر استحقاق الحسن للخلافة ولا [استحقاق] عبد الله بن العباس للخلافة فكيف إمارة البصرة، لكنا نقول: إن من زهد في

---

(١) "استعمالها" وهو خطأ.
(٢) "لذلك أهلا".
(٣) "يوقع".
(١) في الأصل: (ليس فيهم من أفخاذ) والتصحيح عن ط هذا وفي ط: "اتخاذ" وهو خطأ.
(٢) "أحد بمكة".
(٣) في الأصل: الجهيم.
(٤) كذا والصواب: عبد الله.
(٥) "لذلك أهلا".
(٦) "لما".
(٧) ط "عبد الملك" وهو خطأ.
(٨) "حثعم" وهو خطأ.
(٩) "وجعدة بن نميرة" والصواب: جعدة بن هبيرة كما في تهذيب التذهيب ٢: ٨١.
(١٠) "أخته".
(١) "للحسن ابنه".

الخلافة لولد مثل عبد الله[٢] بن عمر (أ) وعبد الرحمن ابن أبي بكر والناس متفقون عليه، وفي تأمير مثل طلحة [بن عبيد الله] وسعيد بن زيد، فلا شك في أنه أتم زهدا وأعزب منه جميع مفاني[٣] الدنيا نفسا ممن أخذ [ه] منها (مما) أبيح له أخذه فصح بالبرهان الضروري أن أبا بكر أزهد من جميع الصحابة ثم عمر بن الخطاب بعده.

[البرهان على أن الصديق أكثر صدقة من علي وسائر الصحابة وأنه السابق إلى الإسلام]

و (قد) قال القائل: "إن[٤] عليا كان أكثرهم صدقة".

قال أبو محمد وهذه مجاهرة بالباطل، لأنه لا[٥] يحفظ لعلي مشاركة ظاهرة بالمال، وأما أمر أبي بكر [رضي الله عنه] في إنفاقه المال في سبيل الله فأشهر من أن يخفى[١] على اليهود والنصارى، فكيف على المسلمين، ثم لعثمان[٢] بن عفان في هذا المعنى من تجهيز جيش العسرة ما ليس[٣] لغيره، فصح أن أ با بكر أعظم صدقة وأكثر مشاركة وغناء في الإسلام بماله من علي [رضي الله عنه].

وقالوا: علي هو السابق إلى الإسلام [و] لم يعبد قط وثنا.

قال أبو محمد* أما السابقة فلم يقل [قط] أحد يعتد به: أن عليا مات وله أكثر من ثلاث وستين سنة، ومات بلا شك سنة أربعين (سنة) من الهجرة فصح أنه كان حين هجرة[٤] النبي ﷺ ابن ثلاث وعشرين سنة، وكان مدة النبي ﷺ [بمكة] في النبوة ثلاث عشرة سنة، فبعث رسول الله ﷺ ولعلي عشرة أعوام، وأسلم[٥] ابن عشرة ودعاؤه [إليه] إنما هو كتدريب المرء ولده الصغير على الدين، لا أن عنده غناء ولا أن [عليه إثما[٦]] إذا[٧] أبى. فإن أخذ الأمر على قول من قال: إن عليا مات وله ثمان وخمسون سنة" فإنه كان إذ بعث رسول[١] الله ﷺ ابن خمسة أعوام وكان إسلام أبي بكر وهو ابن ثمان وثلاثين سنة (وأسلم عمر وله ثمان

(٢) في الأصل عبد الرحمن والتصحيح عن ط.
(٣) "زهدا وأرب عن جميع معاني" ولعل التحريف عن كلمة مفاتن.
(٤) "وكان علي".
(٥) "لم".
(١) في الأصل: ممن وفي ط: تخفى.
(٢) في الأصل: بعثمان والتصحيح عن ط.
(٣) في الأصل: صح، والتصحيح عن ط.
(٤) "هاجر".
(٥) "فإسلام" وهو خطأ.
(٦) ليس من هاتين الكلمتين في الأصل إلا: ما.
(٧) "إن".
(١) "النبي".

وعشرون سنة) وهو الإسلام المأمور به من عند الله [عز وجل] وأما من لم يبلغ الحلم فغير مكلف ولا مخاطب. فسابقة أبي بكر وعمر بلا شك أسبق من سابقته[٢] وأما عمر فإن[٣] كان إسلامه تأخر بعد المبعث بستة أعوام فإن غناءه كان أكثر من غناء[٤] أكثر من أسلم قبله، ولم يبلغ علي حد التكليف إلا بعد أعوام من مبعث النبي ﷺ، وبعد أن أسلم من الصحابة رجال[٥] (كثير) ونساء بعد أن عذبوا في الله تعالى ولقوا فيه شدة[٦]. وأما قولهم[٧] "لم يعبد وثنا (قط)" فنحن وكل مولود في الإسلام لم نعبد قط وثنا، وعمار والمقداد وسلمان وأبو ذر وحمزة وجعفر رضي الله عنهم (أجمعين) قد عبدوا الأوثان، أفترانا أفضل منهم من أجل ذلك؟ معاذ الله من هذا، فإنه لا يقوله مسلم. فبطل أن يكون هذا يوجب لعلي فضلا على أحد من الصحابة ولو كان ذلك يوجب له فضلا زائدا [وإلا] لكانت عائشة سابقة لعلي [رضي الله عنهما] في هذا الفضل لأنها كانت إذا هاجر رسول[١] الله ﷺ بنت ثمان سنين وأشهر، ولم تولد إلا بعد إسلام أبيها بسنين، وعلي ولد وأبوه عابد وثن قبل مبعث النبي ﷺ بسنين، وعبد الله بن عمر أيضا أسلم أبوه وله أربع سنين لم يعبد قط وثنا فهو شريك لعلي في هذه الفضيلة.

[البرهان على أن الصديق أسوس من علي وسائر الصحابة]

وقال بعضهم: "كان علي أسوسهم".

[* قال أبو محمد *] [و] هذا باطل لا خفاء به على مؤمن ولا كافر، فقد درى القريب والبعيد والعالم والجاهل [والمؤمن والكافر] من ساس[٢] الإسلام إذ كفر من كفر من أهل الأرض بعد موت النبي ﷺ؟ وأذعن الجميع للبقية وقبول ما دعت[٣] إليه العرب حاشا أبا بكر. وهل يثبت[٤] أحد ثبات أبي بكر على كلب العدو وشدة الخوف حتى دخلوا في

(٢) "سابقة علي".
(٣) "فإنه".
(٤) في الأصل وفي ط: من أكثر، و (من) زائدة فيهما.
(٥) في الأصل كثير من الصحابة نساء.
(٦) "الألاقي".
(٧) "كونه".
(١) "النبي".
(٢) "سائر" وهو خطأ.
(٣) "ادعت".
(٤) "فهل ثبت".

الإسلام أفواجا كما خرجوا منه أفواجا، وأعطوا الزكاة طائعين وكارهين، ولم تمله جموعهم ولا قلة أهل الإسلام، حتى أنار الله الإسلام وأظهره.

ثم هل ناطح كسرى وقيصر على أسرة ملكهما[٥] حتى أخضع حدود فارس والروم، وأضرع حدودهم، ونكس راياتهم، ومكن للإسلام[١] في أقطار الأرض و (أ) ذل الكفر وأهله، وشبع جائع المسلمين وعز ذليلهم، واستغنى فقيرهم وصاروا إخوة لا خلاف[٢] بينهم، وقرؤوا القرآن وتفقهوا في الدين إلا أبو بكر؟ ثم [ثنى] عمر [ثم] ثلث عثمان.

ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله وافتراق كلمة المؤمنين، وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف، وشك[٣] بعضهم قلوب بعض بالرماح، وقتل بعضهم من بعض عشرات ألوف الألوف[٤]. وشغلهم ذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية [أو يذهر لهم سرب أو يجاهد منهم أحد] حتى ارتجع الكفر كثيرا مما صار بأيدي أهل الإسلام من بلادهم، فلم يجتمع المسلمون إلى اليوم[٥]؛ فأين سياسته من سياسة غيره[٦]؟

فإذ قد بطل كل ما ادعاه هؤلاء الجهال ولم يحصلوا إلا على دعاو ظاهرة الكذب لا دليل على صحة شيء منها، وصح بالبرهان كما أوردنا أن أبا بكر هو الذي فاز بالقدح المعلى والسبق المبرز والحظ الأسنى في العلم والقرآن والجهاد والزهد والتقوى والخشية والصدقة [والعتق] والمشاركة (في الإخراج من الوطن والعتق) والطاعة والسياسة[١]؛ فهذه وجوه الفضل كلها، فهو بلا شك أفضل من جميع الصحابة بعد نساء النبي ﷺ.

[* قال أبو محمد *] ولم نحتج عليهم بالأحاديث لأنهم لا يصدقون أحاديثنا، فلا نصدق (نحن) أحاديثهم، وإنما اقتصرنا على البراهين الضرورية بنقل الكواف، فإن كانت إمامة تستحق بالتقدم في الفضل، فأبو بكر أحق الناس بها بعد موت النبي ﷺ يقينا، فكيف والنص على خلافته صحيح. وإذ قد صحت إمامة أبي بكر [رضي الله عنه] فطاعته فرض في

---

(٥) "ملكها".
(١) "ظهر الإسلام".
(٢) ط: اختلاف.
(٣) في ط: شكت. وهو خطأ.
(٤) كذا في الأصل وظاهر أن (ألوف) الأولى زائدة.
(٥) "يوم القيامة" والذي في لأصل أجود.
(٦) "فأين سياسة من سياسة" وهي أجود.
(١) في الأصل: السياسة، وهو تحريف.

استخلافه عمر [رضي الله عنه] فوجبت إمامة عمر فرضا كما[٢] ذكرنا، وبإجماع أهل الإسلام عليهما دون خلاف من أحد منهم قطعا. ثم أجمعت الأمة كلها أيضا بلا خلاف من أحد منهم على صحة إمامة عثمان [والدينونة بها]. وأما خلافة علي فحق لا بنص ولا إجماع[١] لكن ببرهان سنذكره في الكلام في حروبه[٢].

[فضائل أبي بكر المشهورة في القرآن]

وأما[٣] فضائل أبي بكر المشهورة فقول[٤] الله تعالى: {إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٩/٤٠] فهذه فضيلة منقولة بنقل الكافة لا خلاف بين أحد في أنه أبو بكر، وأوجب[٥] الله تعالى [له] فضيلة المشاركة في إخراجه مع رسول الله ﷺ [في] أنه خصه باسم الصحبة له، وبأنه ثانيه في الغلر، وأعظم من ذلك كله أن الله (عز وجل) معهما وهذا لا يلحقه فيه أحد.

[* قال أبو محمد *] فاعترض في هذا بعض أهل القحة وقال[١] قد قال الله تعالى: {فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا (وأعز نفرا)} [الكهف: ١٨/٣٤] قال: وقد حزن أبو بكر فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، فلو كان حزنه رضا لله تعالى[٣] لما نهاه [رسول الله ﷺ] عن ذلك.

[* قال أبو محمد *]: وهذه مجاهرة بالباطل وأما قول[٤] الله تعالى في (هذه) الآية: {لصاحبه وهو يحاوره} فقد أخبر تعالى [بـ] أن أحدهما مؤمن والآخر كافر، و [بـ] أنهما مختلفان، فإنما سماه صاحبه في المحاورة والمجالسة فقط، كما قاله تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيبا} [الأعراف: ٧/٨٥] فلم يجعله أخاهم في الدين، لكن في الدار والنسب فليس

---

(٢) "بما".

(١) "بإجماع".

(٢) عقد لذلك ابن حزم فصلا ضافيا في كتابه الكبير (الفصل: في الملل والأهواء والنحل) ٤: ١٥٣ قال فيه: "... من سبقت بيعته وهو من أهل الاستحقاق والخلافة فهو الإمام الواجبة طاعته فيما أمر به من طاعة الله عز وجل، سواء كان هناك من مثله أو أفضل، كما سبقت بيعة عثمان، فوجبت طاعته وإمامته على غيره. ولو بويع هنالك حينئذ وقت الشورى علي أو طلحة أو الزبير أو عبد الرحمن أو سعد، لكان الإمام، وللزمت عثمان طاعته ولا فرق.
فصح أن عليا هو صاحب الحق والإمام المفترضة طاعته، ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد.
وقد يخفى الصواب على الصاحب العالم فيما هو أبين وأوضح من هذا الأمر من أحكام الدين، فربما رجع إذا استبان له وربما لم يستبن له حتى يموت عليه". ا هـ ص ١٦٢.

(٣) في الأصل: ومن والتصحيح عن ط.

(٤) "قوله عز وجل".

(٥) "فأوجب".

(١) "فقال".

(٣) "عز وجل".

(٤) "أما قوله تعالى".

هذا قوله[٥] تعالى: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٩/٤٠] بل جعله صاحبه في الدين و (في) الهجرة و [في] الإخراج وفي الغار وفي نصر [ة] الله تعالى لهما وإخافة الكفار لهما في كونه تعالى معهما، فهذه الصحبة غاية الفضل، وتلك الأخرى غاية النقص بنص القرآن. وأما حزن أبي بكر فإنه قبل أن نهاه عنه رسول الله ﷺ كان غاية الرضا لله تعالى، لأنه كان إشفاقا على رسول الله ﷺ، ولذلك كان الله (تعالى) معهما، وهو تعالى لا يكون مع العصاة بل عليهم، وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه رسول الله ﷺ عن الحزن. ولو كان لهؤلاء [الأرذال] حياء أو علم، لم يأتوا بمثل هذا، إذ لو كان حزن أبي بكر عيبا عليه، لكان ذلك على محمد وموسى رسولي[١] الله عز وجل صلى الله عليهما وسلم لأن الله تعالى قال لموسى [عليه السلام]: {قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} [القصص: ٢٨/٣٥] ثم قال تعالى عن السحرة إنهم قالوا لموسى: {قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن (نكون نحن الملقين (*) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم} [الأعراف: ٧/١١٥-١١٦] وقالوا: {إما أن تلقي وإما أن) نكون أول من ألقى (*) قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (*) فأوجس في نفسه خيفة موسى (*) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى} [طه: ٢٠/٦٥-٦٨]. فهذا موسى رسول الله وكليمه قد كان أخبره الله عز وجل، بأن فرعون وملأه لا يصلون إليه، وأن موسى ومن اتبعه هو الغالب، ثم أوجس في نفسه خيفة بعد ذلك إذ رأى أمر السحرة حتى أوحى الله تعالى[١]: لا تخف. فهذا أشد من أمر أبي بكر وإذا لزم ما يقول هؤلاء [الفساق] أبا بكر – وحاشا لله أن يلزمه – من أن حزنه لو كان رضا (لله تعالى) لما نهاه [رسول الله ﷺ لزم أشد منه لموسى عليه السلام، وإن إيجاسه الخيفة في نفسه لو كان رضا لله تعالى ما نهاه] الله تعالى عنه؛ ومعاذ الله من هذا بل إيجاس موسى الخيفة في نفسه لم يكن إلا بنسيان[٢] الوعد المتقدم، وحزن أبي بكر [رضي الله تعالى] عنه قبل أن نهي[٣] عنه، ولم يكن تقدم إليه نهي عن الحزن. وأما محمد ﷺ فإن الله تعالى[٤].

---

(٥) كذا، والصواب: كقوله.
(١) "رسول".
(١) "عز وجل".
(٢) "نسيان".
(٣) "ينهى".
(٤) "عز وجل".

قال: {ومن كفر فلا يحزنك كفره} [لقمان: ٢٣/٣١] وقال تعالى: {ولا تحزن عليهم [ولا تك في ضيق مما يمكرون]} [النحل: ١٢٧/١٦] وقال تعالى: {ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا} [يونس: ٦٥/١٠] وقال تعالى: {فلا[١] تذهب نفسك عليهم حسرات} [فاطر: ٨/٣٥] وقال تعالى: {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} [الكهف: ٦/١٨] ووجدناه عز وجل قد قال: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون}[٢] [الأنعام: ٣٣/٦] وقاله تعالى أيضا في الأنعام. فالله[٣] (تعالى) أخبرنا أنه يعلم أن رسول الله ﷺ يحزنه الذي يقول[٤] (الكفار من الكفر) ونهاه الله[٥] تعالى نصا، فيلزمهم في حزن رسول اللهﷺ الذي نهاه الله تعالى عنه كالذي أرادوا في حزن أبي بكر سواء بسواء[٦]. ونعم إن حزن رسول الله ﷺ بما كانوا يقولون من الكفر كان طاعة لله تعالى قبل أن نهاه[٧] الله تعالى (عن الحزن) وما حزن عليه السلام بعد أن نهاه الله[١] تعالى عن الحزن، كما كان حزن أبي بكر طاعة لله تعالى[٢] قبل أن نهاه[٣] رسول الله ﷺ عن الحزن، وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه[٤] رسول الله ﷺ عن الحزن، فكيف وقد يمكن [أن يكون] أبو بكر لم يحزن يومئذ لكن نهاه عليه السلام عن أن يكون منه حزن كما قال تعالى لنبيه عليه السلام: {ولا تطع منهم[٥] آثما أو كفورا} [الإنسان: ٢٤/٧٦] فنهاه عن أن يطيعهم ولم يكن منه طاعة لهم. وهذا إنما يعترض به الجاهل[٦] والمسخافة ونعوذ بالله من الضلال.

[* قال أبو محمد *]: واعترض [علينا] بعض الجهال ببعثة رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب خلف أبي بكر [رضي الله عنهما] في الحجة التي حجها أبو بكر وأخذ " براءة " من أبي بكر وقال[٧] علي: " فبلغتها [إلى] أهل الموسم وقرأتها[٨] عليهم ".

---

[١] (ولا) وهو خطأ.
[٢] وفي الأصل: ولقد نعلم وهو تحريف.
(٣) (فهذا الله).
(٤) ط: يقولون.
(٥) ط: عز وجل عن ذلك.
(٦) ط: سواء سواء.
(٧) ط: ينهاه الله عز وجل.
(١) ط: ربه
(٢) ط: عز وجل
(٣) ينهاه
(٤) عليه السلام
[٥] في الأصل: منهما وهو خطأ.
(٦) ط أهل الجهل والسخافة.
(٧) ط: تولى علي تبليغها.
(٨) (قراءتها).

[* قال أبو محمد *] وهذا من أعظم فضائل أبي بكر، لأنه كان أميرا على علي [بن أبي طالب] و(على) على غيره من أهل الموسم، لا يدفعون إلا بدفعه ولا يقفون إلا بوقوفه ولا يصلون إلا بصلاته، وينصتون إذا خطب وعلي في الجملة كذلك. وسورة براءة وقع فيها فضل أبي بكر [رضي الله عنه] وذكره في أمر الغار وخروجه مع رسول[1] الله ﷺ وكون الله تعالى معهما ، فقراءة علي لهذا[2] أبلغ في إعلان فضل أبي بكر على علي وعلى سواه، وحجة لأبي بكر قاطعة وبالله [تعالى] التوفيق .

[* قال أبو محمد *] إلا أن تراجع الروافض إلى إنكار القرآن والنقص منه والزيادة فيه، فهذا أمر يظهر فيه قحتهم وجهلهم وسخفهم إلى كل عالم وجاهل. فإنه لا يمتري [كافر ولا] مؤمن في هذا الذي بين اللوحين من الكتاب هو الذي أتى به محمد ﷺ وأخبر بأنه[3] أوحاه الله تعالى إليه. فمن يعرض[4] (إلى) هذا فقد أقر بعين عدوه[5] وما يعترض إمامة أبي بكر إلا زار على رسول الله ﷺ راد لأمره في تقديمه أبا بكر إلى الصلاة بأهل الإسلام، مريدا لأزالته عن مقام أقامه فيه رسول الله ﷺ. [قال أبو محمد ولسنا من كذبهم] في تأويلهم[1]: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا} [الإنسان: ٨/٧٦] وأن المراد بذلك علي [رضي الله عنه][2] وهذا لا يصح بل الآية على عمومها وظاهرها على[3] كل من فعل ذلك. فصح بكل[4] ما ذكرنا فضل أبي بكر على جميع الصحابة رضي الله عنهم بعد نساء النبي ﷺ بالبراهين المذكورة .

[فضائل أبي بكر المشهورة في الأحاديث]

[* قال أبو محمد *] وأما الأحاديث في ذلك كثيرة كقول رسول الله ﷺ في أبي بكر "دعوا لي أصحابي[5]، فإن الناس قالوا: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت " وقال[6]: "لو كنت

---

(١) ((النبي))
(٢) ((لها))
(٣) في الأصل أخبرنا به
(٤) تعرض
(٥) كذا في الأصل وفي ط ولعلها: عداوة
(١) في الأصل: تأويلهم وكذبهم
(٢) بل
(٣) لكل
(٤) بما
(٥) صاحبي
(٦) وقوله ﷺ

متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخي وصاحبي" وهذا (هو) الذي لا يصح غيره فأما[٧] أخوة علي فلا تصح إلا مع سهل بن حنيف.

ومنها أمره عليه السلام[٨] بسد كل باب وخوخة في المسجد حاشا خوخة أبي بكر وهذا هو الذي لا يصح غيره.

ومنها غضبه عليه السلام[١] على من خارج أبا بكر. وعلى من أشار عليه بغير أبي بكر، إلى الصلاة. [ومنها] قوله: "إن (من) أمن الناس علي في ماله أبو بكر" وعمدتنا في تفضيل أبي بكر ثم عمر[٢] على جميع الصحابة بعد نساء رسول[٣] الله ﷺ هو قول رسول الله ﷺ إذ سئل من أحب الناس إليك [يا رسول الله؟ قال: عائشة قيل: فمن الرجال] قال أبو بكر[٤] قيل: ثم من [يا رسول الله؟] قال: "عمر" [* قال أبو محمد *]: فقطعنا بهذا ثم وقفنا، ولو زادنا رسول الله ﷺ بيانا لزدنا. لكنا لا نقول في شيء من الدين إلا بما جاء به[٥] النص[٦].

(فضل عثمان على علي)

[* قال أبو محمد *] واختلف الناس فيمن أفضل: أعثمان أم علي [رضي الله عنهما . قال أبو محمد]: والذي يقع في نفوسنا من غير أن[١] نقطع عليه ولا نخطئ من خالفنا في ذلك،

---

(٧) وأما

(٨) ﷺ

(١) في ط: ﷺ.

(٢) في الأصل (ثم على) والعاطف زائد.

(٣) (النبي).

(٤) (أبوها).

(٥) في الأصل: فيه.

(٦) للزركشي في هذا الموضوع مناقشة لبعض رجال الحديث، ولا غرو فهو من الأئمة الكبار في عصره. قال في رسالته (الإجابة) التي عنينا بطبعها بدمشق سنة ١٩٣٩م وهو يعدد خصائص السيدة عائشة:

(الحادية والثلاثون): أن أباها أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وقد سئل عن ذلك مالك فقال: (وهل في ذلك شك) وقد صح عن علي بن أبي طالب ذلك أيضا. أخرجه أبو ذر في كتاب السنة له. وأخرجه البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية قال: (قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟) قال: (أبو بكر) قلت: (ثم من؟) قال: (عمر) وخشيت أن يقول: عثمان، قلت: (ثم أنت) قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين) وإنما وقع الخلاف في التفضيل بين علي وعثمان؛ وذهب قوم إلى تساويهما في الفضيلة وحكي عن مالك ويحيى بن سعيد القطان. وأما ما ذكره ابن عبد البر في كتاب الصحابة: (أن السلف اختلفوا في تفضيل أبي بكر وعلي) فقد غلط في ذلك ووهم، لا سيما وثبت بأن من كان يعتقد ذلك من السلف أبو سعيد الخدري وهذا بعيد. وقد أخرج البخاري في صحيحه عن نافع عن ابن عمر قال: (كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان، ثم نترك أصحاب رسول الله ﷺ لا نفاضل بينهم.) وقد أنكر ابن عبد البر صحة هذا الخبر وقال: (إنه غلط لوجهين أحدهما: أنه حكى عن هارون بن إسحاق قال: سمعت يحيى بن معين يقول:"من قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف لعثمان سابقته وفضله فهو صاحب سنة". فذكرت له هؤلاء الذين يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان ويسكتون، فتكلم فيهم بكلام غليظ. وهذا عجيب لأن ابن معين إنما أنكر على رأي قوم لا على نقلهم، وهؤلاء القوم العثمانية المغلون في عثمان وذم علي. ومن قال ذلك واقتصر على عثمان فلا شك أنه مذموم. وليس في الخبر ما يدل على أن عليا ليس بخير الناس بعدهم.

الثاني: أنه خلاف قول أهل السنة: إن عليا أفضل الناس بعد عثمان. هذا لا خلاف فيه، وإنما اختلفوا في تفضيل علي وعثمان قال: واختلف السلف أيضا في تفضيل علي وأبي بكر. وفي إجماع الجماعة التي ذكرنا دليل على أن حديث ابن عمر وهم وغلط اهـ. وهذا أعجب من الأول فإن الحديث صحيح أورده الأئمة البخاري فمن دونه في كتبهم الصحاح. والحامل له على ذلك اعتقاده أن حديث ابن عمر يقتضي أن عليا ليس بأفضل الناس بعد عثمان، وليس كذلك بل هو مسكوت عنه" انتهى كلام الزركشي.

(١) (دون أن).

[فـ] هو أن عثمان أفضل من علي والله أعلم، لأن فضائلهما تتقاوم في الأكـــثر: فكـان عثمان (والله أعلم) أقرأ وكان علي أكثر فتيا ورواية، ولعلي أيضا حظ عظيم[٢] في القـــرآن قوي ولعثمان أيضا حظ قوي في الفتيا والرواية، ولعلي مقامات عظيمة في الجهاد بنفســـه، ولعثمان مثل ذلك بماله، ثم انفرد عثمان بأن رسول الله ﷺ بايع بيساره المقدسة عـــن يمـين عثمان في بيعة الرضوان، وله هجرتان وسابقة قديمة وصهر مكرر[٣] محمود، ولم يحضر بـــدرا فألحقه الله عز وجل فيهم بأجره التام وسهمه، فألحقه بمن حضرها فهو معدود فيهم.ثم كانت له فتوحات في الإسلام عظيمة لم تكن لعلي، وسيرة في الإسلام هادية ولم يتشبث[١] بسـفك دم مسلم وجاءت فيه آثار صحاح: "إن[٢] الملائكة تستحي منه" "وأنه ومن اتبعـــه علـــى الحق" والذي صح من فضائل علي [فهو] قول رسول[٣] الله ﷺ: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) وقوله عليه السلام: ((لأعطين الراية غـــدا رجـــلا يحـــب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) وهذه صفة واجبة لكل مؤمن [و] فاضل. وعهده ﷺ[٤] بـــأن[٥] عليا "لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق" وقد حصل[٦] مثل هذا في الأنصار [رضـــي الله عنهم] أنه: ((لا يبغضهم إلا[٧] منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر)).

وأ ما ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) فلا يصح من طريق الثقات أصلا. وأمـــا ســـائر الأحاديث التي تتعلق بها الروافض[٨] فموضوعة، يعرف ذلك من لـــه أدنى علـــم بالأخبـــار [ونقلتها].

[أفضل الصحابة بعد عمر: طبقة المهاجرين ثم أهل بدر ثم إلخ..]

[* قال أبو محمد *] ونقول بفضل المهاجرين الأولين بعد عمر بن الخطاب [قطعـــا]، إلا أ ننا لا نقطع بفضل أحد منهم على صاحبه كعثمان بن عفان وعثمان بن مظعـــون وعلـــي وجعفر وحمزة وطلحة والزبير ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف وعبـــد الله بـــن

---

(٢) (قوي في القراءة).
(٣) (مكرم).
(١) (يتسبب).
(٢) (وأن).
(٣) (النبي).
(٤) (عليه السلام).
(٥) (أن).
(٦) (صح).
(٧) (من يؤمن).
(٨) (الرافضة).

مسعود وسعد وزيد بن حارثة وأبي عبيدة وبلال وسعيد بن زيد وعمار بن ياسر وأبي سلمة وعبد الله[1] بن جحش وغيرهم من نظرائهم ثم بعد هؤلاء أهل العقبة، ثم أهل بدر، ثم أهل المشاهد مشهدا مشهدا. وأهل كل مشهد أفضل من أهل المشهد الذي بعده حتى يبلغ[2] الأمر إلى الحديبية. فكل من تقدم ذكره من المهاجرين [والأنصار رض الله عنهم] إلى تمام بيعة الرضوان فإنا[3] نقطع على غيب قلوبهم [و] أنهم كلهم مؤمنون صالحون، ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والبر، كلهم من أهل الجنة، لا يلج أحد منهم النار البتة لقول الله تعالى: {والسابقون السابقون (*) أولئك المقربون (*) في جنات النعيم} [الواقعة: ٥٦/١٠-١٢] وقوله تعالى[4]: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم} [الفتح: ٤٨/١٨].

[* قال أبو محمد *] فمن أخبر[1] الله عنهم بذلك فلا يحل لأحد أن[2] يتوقف في أمرهم ولا الشك فيهم البتة، ولقول رسول الله ﷺ: ((لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر)) ولإخباره عليه السلام ((أنه لا يدخل النار أحد شهد بدرا)) ثم نقطع على أن كل من صحب رسول الله ﷺ بنية صادقة ولو ساعة فإنه من أهل الجنة لا يدخل النار لتعذيب، إلا أنهم لا يلحقون بمن أسلم قبل الفتح [وذلك لقول الله عز وجل: {يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا (من بعد) وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى} [الحديد: ٥٧/١٠] وقال تعالى: {وعد الله لا يخلف الله وعده} [الروم: ٣٠/٦] وقال تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (*) لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون (*) [لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون]} [الأنبياء: ٢١/١٠١-١٠٣] (إلى آخر الآية التي بعدها) فصح بالضرورة أن كل من أنفق (من) قبل الفتح وقاتل فهو مقطوع على غيبهم[1] [لتفضيل الله تعالى إياهم، والله تعالى لا يفضل إلا مؤمنا فاضلا] وأما من أنفق من بعد[2] وقاتل فقد كان فيهم منافقون لم يعلمهم رسول الله ﷺ فكيف نحن،

---

(١) في الأصل: عبد الرحمن والصواب ما في ط.

(٢) (بلغ).

(٣) (فإننا).

(٤) (عز وجل).

(١) (فمن أخبرنا أن الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم رضي الله عنهم وأنزل السكينة عليهم فلا يحل إلخ..) وهي جملة مشوشة. والأصل واضح.

(٢) (التوقف).

(١) (غيبه).

(٢) (أنفق بعد الفتح).

قال عز وجل: {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم [سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم] } [التوبة: ٩/١٠١].

[* قال أبو محمد *] ولذلك[٣] لم نقطع على أحد[٤] منهم بعينه، لكن نقول: كل من لم يكن منهم من المنافقين فهو من أهل الجنة يقينا لأنهم[٥] وعدهم الله بالحسنى[٦] كلهم ، وأخبر أنه لا يخلف وعده، وأن من سبقت له الحسنى فهو مبعد عن[٧] النار لا يسمع حسيسها، ولا يحزنه الفزع الأكبر، وهو فيما اشتهى خالد وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين.

[* قال أبو محمد *]: (و) لقد خاب وخسر، من رد قول ربه تبارك[١] وتعالى: أنه رضي عن المبايعين تحت الشجرة وعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وقد علم كل أحد له أدنى علم أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعمارا والمغيرة بن شعبة [رضي الله عنهم] من أهل [هذه] الصفة.

والخوارج والروافض قد انتظمت الطائفتان الملعونتان (على) البراءة[٢] منهم خلافا لله عز وجل وعنادا له ونعوذ بالله من الخذلان.

[فضل التابعين]

و[* قال أبو محمد*: فهذا قولنا في الصحابة رضي الله عنهم فأما] التابعون ومن بعدهم فلا نقطع على غيبهم واحدا واحدا، إلا من بان منه احتمال المشقة في الصبر للدين ورفض الدنيا بغير[٣] عرض استعجله، إلا أننا لا ندري على ماذا مات، وإن بلغنا الغاية في تعظيمهم وتوقيرهم والدعاء لهم[٤] بالمغفرة والرحمة والرضوان. لكن نتولاهم جملة قطعا، ونتولى كل إنسان منهم بظاهره، ولا قطع على أ حد منهم بجنة (و) لكن نرجو لهم ونخاف [عليهم] إذ

(٣) ط: فلهذا.
(٤) ط: كل امرئ.
(٥) ط: لأنه.
(٦) ط: الحسنى.
(٧) ط: من.
(١) ط: عز وجل.
(٢) ط: البرئة.
(٣) ط: لغير.
(٤) في ط: كلمة (لهم) بعد (الرضوان).

لا نص في إنسان منهم بعينه، ولا يحل الإخبار عن الله تعالى[٥] إلا بنص من عنده. لكن نقول كما قال رسول الله ﷺ:

((خيركم القرن الذي بعثت فيه[١] ثم الذين[٢] يلونهم ثم الذين يلونهم)) ومعنى هذا الحديث إنما هو (أن) كل قرن من هذه القرون التي ذكر رسول الله ﷺ [٣] أكثر فضلا بالجملة من القرن الذي (هو) بعده ولا يجوز غير هذا البتة وبرهان ذلك: أنه قد كان في عصر التابعين من هو أفسق الفاسقين كمسلم بن عقبة [المري] وحبيش بن دجلة القيني والحجاج بن يوسف وقتلة عثمان وقتلة الحسين[٤] وقتلة [ابن] الزبير [رضي الله عنهم] ولعن قاتليهم[٥] ومن بعثهم[٦] ومن خالف قولنا في هذا الخبر، لزمه أن يقول: هؤلاء الفساق الأخابث أفضل من كل فاضل في القرن الثالث ومن بعده كسفيان الثوري والفضيل بن عياض ومسعر [بن كدام] وشعبة[١] ومنصور بن المعتمر ومالك الأوزاعي والليث وسفيان بن عيينة ووكيع و[ابن] المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وداود بن علي [رضي الله عنهم] (وغيرهم) وهذا ما لا يقوله أحد ولا[٢] يبعد أن يكون في زماننا وفيمن يأتي بعدنا من هو أفضل (من) رجل (أفضل) من التابعين عند الله تعالى[١]، إذ لم يأت في المنع من [ذلك] نص ولا دليل أصلا. والحديث المأثور في أويس القرني لا يصح لأن

---

(٥) (عز وجل).

(١) (فيهم).

(٢) (الذي) وهو خطأ.

(٣) (عليه السلام).

(٤) في ط تقديم قتلة ابن الزبير.

(٥) (قتلتهم).

(٦) نلاحظ هنا – والعصمة لله – أن ابن حزم خرج على عادته في الاحتياط والدقة، فأرسل هذا الحكم مجاريا فيه عوام الناس. وإلا فإن من سماهم – حاشا قتلة عثمان – لم يخرجوا عن أحد أمرين: إما منفذين لأوامر خليفة هم عماله أو جنوده وله في أعناقهم بيعة على الطاعة، وإما مجتهدين اجتهادا رأوا فيه مصلحة للمسلمين وقضاء على التفرقة وتفويتا لفرص يتربص العدو بسببها الدوائر على الإسلام وبلاده وأهله.

وليس من السائغ أن نرميهم على طاعتهم واجتهادهم – أخطؤوا أم أصابوا – بالفسق والخبث ثم نلعنهم ونلعن من بعثهم.

وقد علمنا أنه ما من حد أمن على العرب – على ما أعتقد – في تأييد دولتهم بالعراق من الحجاج. ولعل الفسق كان يحق على هؤلاء العمال والجنود لو أنهم تركوا الفتن تنتشر حتى تلتهم الأخضر واليابس.

ولا ندري أيسر ابن حزم أن يترك الأمر لجماعة الحسين رضي الله عنه بالكوفة، ويترك حبل ابن الزبير على غاربه في الحجاز والخليفة الأموي قائم بدمشق فيكون لنا خليفتان في وقت معا؟

وإذا كان الصحابيان الجليلان الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما، قد خرجا اجتهادا منهما، فإن الخليفة القائم حينئذ قد أمضى بالتصدي لهما شريعة الله. وهو إنما أمر بتلافي الأمر ورتق الفتق قبل اتساعه.

وابن حزم – على تحريه ودقته وسداد أحكامه وسعة علمه – هنا هذه الهفوة ليدل على أن العصمة لله وحده، ولو أنها تكون لبشر لكان هو ممن يستحقها رحمه الله.

وبعد فليس من دلائل الحق في رأي أخذ الكثرة به، والتاريخ الصحيح لا يؤخذ بالتصويت. والله وحده هو الذي يحكم على خواتم الناس ويحاسبهم سبحانه على نياتهم في اجتهادهم، لا على آراء الناس فيهم.

(١) في الأصل: وشعيب بن منصور. وهو خطأ والتصحيح عن ط.

(٢) (ما).

(١) (عز وجل).

مداره على أسير بن جابر وليس بالقوي. وقد ذكر شعبة أنه سأل عمرو بن مرة وهو كوفي قرني مرادي من أشراف[٢] مراد وأعلمهم بهم عن أويس القرني، فلم يعرفه في قومه. وأما الصحابة [رضي الله عنهم] فخلاف[٣] هذا فلا[٤] سبيل [إلى أن يحق أقلهم [درجة] أحد من أهل الأرض [وبالله تعالى التوفيق].

خاتمة

[في أنه: لا فضل للقرابة في الإسلام

ومناقشة النصوص التي يؤولها الجاهلون]

[*قال أبو محمد*]: وذهب بعض الروافض على[١] أن لقرابة[٢] رسول الله ﷺ فضلا بالقرابة فقط واحتج بقوله الله عز وجل[٣]: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (*) ذرية بعضها من بعض} [آل عمران: ٣/٣٣-٣٤]. وبقوله تعالى[٤]: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} [الشورى: ٤٢/٢٣]. وبقوله تعالى: {وابعث فيهم رسولا منهم} [البقرة: ٢/١٢٩].

[*قال أبو محمد*: و] هذا كله لا حجة فيه وأما إخباره بقوله تعالى إنه: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} [آل عمران: ٣/٣٣].

فإنه لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما: إما أن يعني كل مؤمن فقد قال ذلك بعض الناس[٥]، أو يعني مؤمني أهل بيت إبراهيم وعمران لا يجوز غير هذا، لأن آزر والد إبراهيم عليه السلام كان كافرا عدو الله[١] (تعالى) لم يصطفه الله تعالى إلا لدخول النار. فإن أراد الوجه (الأول) الذي ذكرنا لم نمانعه ولا ننازعه في أن موسى وهارون (عليهما السلام) من آل عمران وأن[٢] إسماعيل وإسحاق ويعقوب[٣] ويوسف من آل إبراهيم مصطفون [على]

---

(٢) (أشرف).
(٣) (فبخلاف).
(٤) (ولا).
(١) (على).
(٢) (لذوي قرابة).
(٣) (تعالى).
(٤) (عز وجل).
(٥) (العلماء)
(١) (عدوا لله).
(٢) في الأصل: فإن. في ط: وآل.
(٣) (ويوسف ويعقوب).

العالمين، فأي حجة[٤] هاهنا لبني هاشم؟ فإن ذكروا الدعاء المأثور[٥] وهو اللهم صل على محمد وعلى آل محمد (كما صليت على آل إبراهيم) وبارك على محمد وعلى آل محمد (كما باركت على آل إبراهيم) فالقول في هذا كما قلنا ولا فرق، وهذا دعاء لكل مؤمن. وقد قال تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} [التوبة: ١٠٣/٩] وقال رسول الله ﷺ: ((اللهم صل على محمد وعلى آل أبي أوفى)) فهذا هو الدعاء [لهم] بالصلاة على كل مؤمن ومؤمنة بلا خلاف. وكذلك الدعاء في التشهد المفترض في كل صلاة من قول المصلي[٦] (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) [فـ] هذا السلام على كل مؤمن ومؤمنة، فاستوى بنو هاشم وغيرهم في إطلاق الدعاء (لهم) بالصلاة عليهم و[بـ] السلام عليهم فلا[١] فرق. وقال تعالى: {وبشر الصابرين (*) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (*) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} [البقرة: ١٥٥/٢-١٥٧] فوجب (أن) صلوات الله تعالى على كل مؤمن (ومؤمنة) صابر (وصابرة) فاستوى في هذا كله بنو هاشم وقريش والعرب والعجم (و) من كان (من) جميعهم بهذه الصفة. وأيضا فليزم من احتج بقوله تعالى: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} [آل عمران: ٣٣/٣].

أن يقول: إن من أسلم من الهارونيين من اليهود أفضل من بني هاشم وأشرف وأولى بالتقديم، لأنه من آل إبراهيم[٢] وآل عمران وفيهم ورد النص.

[*قال أبو محمد*] فصح يقينا أن الله تعالى[٣] إنما أراد بذلك [الأنبياء] فقط، ويبين هذا بيانا شافيا[٤] قول الله تعالى حاكيا عن قول إبراهيم أنه قال: {ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} [البقرة: ١٢٤/٢] فسوى الله تعالى بين الظالمين من ذرية إبراهيم [عليه السلام] و(بين) الظالمين من غير ذريته[١] وقال الله تعالى[٢]: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا (النبي) والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} [آل عمران: ٦٨/٣].

---

(٤) في الأصل: درجة والتصحيح عن ط.
(٥) (المأمور به).
(٦) (المصطفى).
(١) (ولا).
(٢) (من آل عمران ومن آل إبراهيم).
(٣) (عز وجل).
(٤) (جليا).
(١) (ذرية غيره).
(٢) (عز وجل).

فخص الله تعالى بولايته إبراهيم (النبي) ﷺ [٣] (و) من اتبع إبراهيم كائنا من كان، فدخل في هذا كل مؤمن ومؤمنة ولا فضل.

وأما قول الله تعالى[٤]: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} [الشورى: ٢٣/٤٢] فهذا حق على ظاهره وإنما أراد عليه السلام من قريش أن يودوه لقرابتهم[٥] منه، ولا يختلف أحد من الأمة في أنه ﷺ [٦] لم يرد من المسلمين قط[٧] أن يؤذوا أبا لهب وهو عمه ولا شك [في] أنه عليه السلام أراد من المسلمين مودة عمار[٨] وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة فأما قول[٩] الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم} [البقرة: ١٢٩/٢] فقد قال عز وجل: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: ٢٤/٣٥] وقال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤/١٤] فاستوت الأمة[١] كلها في هذه الدعوى بأن يبعث فيهم رسولا منهم ممن هم قومه. فإن احتج محتج بالحديث الثابت الذي فيه: ((إن الله اصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم.)) فمعناه ظاهر وهو أن[٢] الله تعالى اختار كونه عليه [الصلاة و] السلام من بني هاشم وكون بني هاشم من قريش وكون قريش من كنانة وكنانة من بني إسماعيل كما اصطفى أن يكون موسى من بني لاوي وأن يكون بنو لاوي من بني إسحاق عليه السلام، وكل نبي من عشيرته التي هو منها ولا يجوز غير هذا البتة [ونسأل][٣] من أراد حمل هذا الحديث على غير هذا المعنى: أيدخل أحد من بني هاشم أو من قريش أو من كنانة أو من إسماعيل النار أم لا؟ فإن أنكروا هذا كفروا وخالفوا القرآن[١] والإجماع والسنن، وقد قال عليه السلام: ((أبي وأبوك في النار، وإن أبا طالب في النار)) وجاء القرآن [بأن] أبا لهب في النار وسائر كفار قريش [في النار كذلك] قال الله تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب (*) ما أغنى عنه ماله وما كسب

(٣) (عليه السلام).
(٤) (عز وجل).
(٥) (لقرابته منهم).
(٦) (عليه السلام).
(٧) في ط (قط) قبل كلمتين.
(٨) ط: بلال وعمار.
(٩) ط: فما قوله عز وجل.
(١) ط: الأمم.
(٢) ط: أنه.
(٣) في الأصل: وقال.
(١) (الإجماع والقرآن).

(*) سيصلى نارا ذات لهب} [المسد: ١١١/١-٣] فإذا أقر بأنه قد يدخل النار منهم من استحق[٢] أن يدخلها صحت المساواة بينهم وبين سائر الناس.

[*قال أبو محمد*]: ويكذب هذا الظن الفاسد قول رسول الله ﷺ ((يا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئا [يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئا] يا عباس ابن[٣] عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئا [يا بني عبد المطلب! لا أغني عنكم من الله شيئا].))

(تسوية الإسلام بين الناس كافة وكلام في القرابة)

وأبين من هذا كله قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ٤٩/١٣] وقوله تعالى: {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم} [الممتحنة: ٦٠/٣] وقوله تعالى: {(واخشوا) يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} [لقمان: ٣١/٣٣][١] وقال تعالى وذكر عادا وثمود[٢] وقوم نوح وقوم لوط ثم قال (تعالى): {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر} [القمر: ٥٤/٤٣] فصح ضرورة أنه لا ينتفع أحد بقرابته من رسول الله ﷺ ولا من نبي من الأنبياء والرسل [عليهم السلام] ولو كان[٣] ابنه أو أباه أو أمه. وقد نص الله تعالى في ابن نوح ووالد إبراهيم وعم محمد [على رسل الله الصلاة والسلام] ما فيه الكفاية. وقد نص الله تعالى على أن (من أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا)، فصح ضرورة أن بلالا وصهيبا والمقداد وعما [را] وسالما[١] وسلمان أفضل من العباس وبنيه عبد الله والفضل وقثم ومعبد وعبيد الله وعقيل بن أبي طالب والحسن والحسين [رضي الله عن جميعهم] بشهادة الله تعالى، فإن هذا لا شك فيه، ولا جزاء في الآخرة إلا على عمل، ولا ينتفع عند الله تعالى بالأرحام ولا بالولادات، وليست الدنيا دار جزاء، فلا[٢] فرق بين هاشمي وقريشي وعربي وعجمي

(٢) (يستحق).
(٣) في الأصل: يابن.
(١) في الأصل: يوم.
(٢) في الأصل وفي ط: ثمودا.
(٣) (ولو أن النبي ابنه أو أبوه وأمه نبية).
(١) في الأصل: سالم.
(٢) في الأصل: ولا.

وحبشي وابن زنجية (لغية) والكرم والفوز لمن اتقى الله تعالى[٣] [حدثنا محمد بن سعيد بن بيان[٤] أنبأنا أحمد بن عبد الله البصير[٥]، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا عبد السلام بن الخثن؟ حدثنا أحمد بن[٦] المثنى حدثنا عبد الرحمن المهدي[٧] حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن حسان ابن فايد العبسي قال] قال عمر بن الخطاب [رضي الله عنه]:

((كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسيا أو نبطيا.))

والحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل، وفرغ من كتابته وقت صلاة العصر يوم السبت سابع عشرين من رجب الفرد الحرام سنة خمس وخمسين وسبع مئة أحسن الله تقضيهما بمنه وكرمه.

تنبيه:

الطبعة التي اعتمدناها في المقابلة من كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) هي الطبعة الأولى (مصر سنة ١٣١٧هـ).

ذيل

في تراجم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة[١]

إبراهيم بن محمد بن عبد الله التيمي

قاضي البصرة. وكان يعمل في بستانه وهو قاض فإذا جاء الخصمان نظر في أمرهما ثم عاد إلى حاله. وكان رجلا صالحا ثقة لم يعلم عنه إلا الجميل.

مات سنة ٢٥٠ هـ وهو على القضاء.

إبراهيم بن محمد بن عرعرة السامي أبو إسحاق البصري نزيل بغداد وإمام من حفاظ الحديث، صدوق ثقة، معروف بالحديث مشهور بالطلب. مات سنة ٢٣١هـ.

---

(٣) (عز وجل).

(٤) كذا وصوابها: نبات كما في بغية الملتمس (رقم ١٣١) تاريخ علماء الأندلس (رقم ١٧١٠).

(٥) كذا وصوابه: عبد الله بن عبد البصير كما في تاريخ علماء الأندلس (رقم ١٨٧).

(٦) كذا في المطبوعة ولم نجد هذا الاسم في كتب الطبقات وإنما وجدنا محمد بن المثنى، هو الذي يروي عن عبد الرحمن بن مهدي.

(٧) الظاهر أن (ابن) سقطت في الطبع وتمام الاسم عبد الرحمن ابن مهدي وهو الذي يروي عن سفيان الثوري.

(١) انظر حطتنا في هذه التراجم في الصفحتين ٨٦، ٨٨ من هذا الكتاب هذا وقد فاتنا التنويه بالمصادر في بعض التراجم فليرجع فيها القارئ إذا شاء إلى كتب الطبقات والأعلام وخاصة: الطبقات الكبير لابن سعد، وفيات الأعيان، الإصابة، أسد الغابة، تهذيب التهذيب، تذكرة الحافظ، شذرات الذهب، الأعلام، إلخ.. أما الأعلام الذين لم أعثر لهم على ترجمة فهم: أحمد بن علي القلانسي، أحمد بن محمد الأشقر، أحمد بن محمد الجوزي، عبد السلام الخثني؟، عبد الوهاب بن قيس، عيسى بن حاضر، محمد بن أيوب الرقي الصموت، يحي بن يحي بن خالد، وأكثرهم ورد اسمه في سند الحديث.

إبراهيم النخعي أبو عمران الكوفي الفقيه. محدث مشهور، ويقال: إنه سمع من عائشة. ثقة صالح. كان مفتي أهل الكوفة، رجلا صالحا فقيها متوقيا، قليل التكلف ولد سنة ٥٠هـ، ومات مختفيا من الحجاج سنة ٩٦هـ.

أحمد بن إبراهيم [لم نجد الكندي كما في الأصل إنما وجدنا الكلاعي فأثبتنا ترجمته لاحتمال التحريف]:

من أهل قرطبة يكنى أبا عمر، وأثنى الناس عليه حين وفاته ثناء حسنا. توفي فجأة سنة ٣٩١هـ وأثنى الناس عليه حين وفاته ثناء حسنا.

تاريخ علماء الأندلس للأزدي ١: ٥٧

أحمد بن الحسين أبو عمر التجيبي، من أهل قرطبة ولد سنة ٣٨٩هـ وسكن إشبيلية عني بالعلم وسمع من الشيوخ وكان حسن الإيراد للأخبار فصيح اللسان ذا نباهة وجلالة. نظر في الأحكام بقرطبة أيام الفتنة ثم صرف عنها.

وتوفي بسرقسطة سنة ٤٥٩هـ.

الصلة لابن بشكوال رقم الترجمة ١٢٥

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة وإمام الدنيا في زمانه، حافظ ثقة مأمون عظيم الورع قوي الدين لم يكن للإسلام مثله صلابة وإخلاصا. وقصة محنته أشهر من أن تذكر وقد صبر رحمه الله فيها صبر النبيين وثبت على ما يعتقد أنه الحق.

ولد سنة ١٦٤هـ ومات ببغداد سنة ٢٤١ هـ فحزر بعضهم من صلى عليه فكانوا (٨٦٠) ألفا بين رجل وامرأة وكان حجاج ابن الشاعر يقول: "ما رأت عيناي روحا في جسد أفضل من أحمد بن حنبل" أفرد سيرته بتأليف شيخ الإسلام الهروي وابن الجوزي.

أحمد بن عبد الله أبو عمر بن عبد البصير الجذامي القرطبي، سمع من قاسم بن أصبغ، له معرفة بالحديث ووقوف على أحوال نقلته وكان مقلا. توفي سنة ٣٨٨هـ.

تاريخ علماء الأندلس للأزدي رقم الترجمة ١٨٧

أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. محدث ثقة مشهور وله مسندان في الحديث كبير وصغير مات بالرملة سنة ٢٩٢هـ.

الأعلام

أحمد بن عمرو بن عبد الله الأموي (ولاء) محدث ثقة ثبت صالح فقيه

مات سنة ٢٥٠هـ.

أحمد بن فتح أبو القاسم المعافري القرطبي المعروف بابن الرسان

ولد سنة ٣١٩هـ ورحل إلى المشرق وحج ولقي العلماء وأخذ عنهم. احترف التجارة وكان ماهرا في الفرائض وصنف فيها وهو من شيوخ ابن عبد البر عرف بالصلاح والهداية ومات مختفيا بسبب مال طلب منه سنة ٤٠٣هـ.

الصلة رقم الترجمة ٤١

أحمد بن الفضل الدينوري. دخل الأندلس قبل سنة ٣٥٠هـ وحدث بها جميع ما قرأه على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من كتبه في التفسير والتاريخ

بغية الملتمس رقم ٤٥٣

أحمد بن محمد عبد الله الطلمنكي أبو عمر الحافظ الإمام المقرئ

ولد بقرطبة سنة ٣٤٠هـ ورحل إلى القيروان وإلى الحجاز حيث حج وطلب العلم، ورجع إلى الأندلس بعلم جم. وهو من شيوخ ابن حزم وعنه أخذ ابن عبد البر صاحب (الاستيعاب) وكان رأسا في علم القرآن، ذا عناية تامة بالحديث ومعرفة الرجال، وسيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع، قامعا لهم، غيورا على الشريعة، شديدا في ذات الله، أقرأ الناس الحديث، وأمهم في المسجد، ثم خرج إلى الثغر فتجول فيه، وانتفع الناس بعلمه، وقصد بلده طلمنكة في آخر عمره.

وهو واحدها في علم القرآن العظيم: قراءاته وإعرابه وأحكام ناسخه ومنسوخه ومعانيه. وجمع كتبا حسانا على مذهب أهل السنة. ((وكان مقدما في المعرفة والفهم على هدي وسنة واستقامة، وكان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع قامعا لهم غيورا على الشريعة، شديدا في ذات الله)) توفي ببلده سنة ٤٢٩هـ.

الصلة، تذكرة الحفاظ ٣: ٢٨٠

أسامة بن زيد بن حارثة الصحابي الجليل حب رسول الله وابن حبه.

وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ. أمره رسول الله على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار ومات فأنفذ أبو بكر بعث أسامة، وسن أسامة يومئذ دون العشرين.

عاش حتى أدرك عهد معاوية وكان قد اعتزل الفتن كلها. وسكن المزة من قرى دمشق.

ولد قبل الهجرة بعشر سنين ومات بالمدينة سنة ٥٤هـ.

أبو إسحاق السبيعي عمرو بن عبد الله. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان كوفي تابعي ثقة، رواية مكثر للحديث. وعده بعضهم من المدلسين. مات سنة ١٢٩ وهو ابن ٩٦ سنة.

تهذيب التهذيب

أسيد بن حضير أبو يحيى بن سماك بن عتيك الأنصاري. أحد النقباء ليلة العقبة. كان شريفا في قومه كاملا من أفاضل الناس. مات في عهد عمر.

أسير بن جابر ويقال: يسير بن عمرو، الكوفي. أدرك زمن النبي ﷺ وقيل: ((له رؤية))

ولد في مهاجر النبي ﷺ وقبض النبي وله عشر سنين وكان عريفا في زمن الحجاج. رواية ثقة مات سنة ٨٥هـ [هناك بهذا الاسم تابعي أيضا]

الإصابة

أسير بن جارية حليف بني زهرة، صحابي أسلم يوم الفتح وشهد حنينا وأعطاه النبي من غنائمها مئة من الإبل.

أبو أسامة الباهلي صدي بن عجلان بن وهب الباهلي الصحابي. شهد صفين مع علي ثم سكن (حمص) من الشام وهو آخر من مات فيها من الصحابة.

كان عمره في حجة الوداع ثلاثين سنة ومات سنة ٨٦هـ.

أنس بن مالك الصحابي الأنصاري خادم رسول الله ﷺ، خدمه عشر سنين واستفاد بقربه من النبي علما غزيرا. روى عن النبي أكثر من ألف حديث.

مات بالبصرة سنة ٩٠ وقد جاوز عمره المئة سنة، وهو آخر من مات بها من الصحابة.

الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو ولد سنة ٨٨ ومات ١٥٨هـ.

إمام أهل الشام، ومناقبه أكثر من أن تحصى وقد عدوا الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك والثوري وحماد ابن زيد. ولم يكن في الشام أعلم منه، وإليه فتوى الفقه لأهل الشلم. روى عن خلق كثير، وروى عنه مثلهم، وممن روى عنه مالك الإمام وقد شهد فيه وفي الثوري فقال: "أحدهما أكثر علما من صاحبه ولا يصلح للإمامة (الخلافة) والآخر يصلح للإمامة." وقال أبو إسحاق الفزاري: "ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعي والثوري، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة والثوري كان رجل خاصة. ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي لأنه كان أكثر توسعا وكان إماما إذ لا نصيب به اليوم إماما. ولو أن الأمة أصابتها شدة والأوزاعي فيهم لرأيت لهم أن يفزعوا إليه." وقال ابن المبارك: "لو قيل: اختر لهذه الأمة لاخترت الثوري والأوزاعي، ثم لاخترت الأوزاعي لأنه أرفق الرجلين".

وكان رحمه الله مع سعة روايته وعظيم ورعه، على جانب عظيم من خشية الله والاجتهاد في عبادته والرحمة بالناس كافة، حتى إنهم ذكروا أنه لما بلغه حيف وقع ببعض أهل الذمة صار يبكي رحمة لهم. وانظر مناقبه في الكتاب الذي نشره العلامة الأمير شكيب أرسلان: (حسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي)

مات مرابطا بمدينة بيروت عن سبعين سنة.

أبو أوفى علقمة بن خالد الأسلمي، مشهور بكنيته، صحابي ثبت، جاء في الصحيح: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال: ((اللهم صل على آل أبي أوفى) وهو من أصحاب الشجرة.

الإصابة ٤: ٢٦٣

أويس القرني هو ابن عامر وقيل ابن عمرو، يمني عابد زاهد متقشف زعموا أنه عاش حتى شهد صفين وقتل في صف علي. وزعم بعضهم أنه مات بدمشق، وآخر أنه مات على جبل أبي قبيس، ويرجع بعض العلماء كونه شخصا أسطوريا، وآخرون يعتقدون وجوده ويصححون ما روي في حقه من آثار.

أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد الخزرجي. شهد بيعة العقبة وغزوة بدر والمشاهد مع رسول الله ﷺ. وانقطع إلى الجهاد حتى توفي في غزو المسلمين للقسطنطينية حول سنة ٥٢هـ.

ومزاره هناك معروف.

الباقلاني محمد الطيب بن محمد، أبو بكر، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط سريع الجواب. ومن كتبه (إعجاز القرآن).

توفي سنة ٤٠٣هـ

الأعلام

بقي بن مخلد ولد في رمضان سنة ٢٠١هـ – توفي في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦هـ

جاء في نفح الطيب: ١: ٥٨٠ ما يلي (بتصرف يسير): بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي الأندلسي الحافظ، أحد الأعلام وصاحب التفسير والمسند، أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي، ومحمد بن عيسى الأعشى، وارتحل إلى المشرق، ولقي الكبار، وسمع بالحجاز مصعبا الزهري وإبراهيم بن المنذر وطبقتهما، وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة وبدمشق... وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته وبالكوفة... أبا بكر بن شيبة وطائفة وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد، وعني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وعدد شيوخه ٢٣٤ رجلا وكان إماما زاهدا صواما صادقا كثير التهجد مجاب الدعوة قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتي بالأثر اهـ .

وقد مرت بك شهادة ابن حزم فيه وفي تصانيفه ص ٤٦، ٤٧

بلال بن رباح وأمه حمامة، صحابي جليل من الحبشة.

كان من أول المسلمين إسلاما، وعذب في مكة كما عذب غيره من المستضعفين، وتحمل في سبيل الله أذى كثيرا، ولم يفتن عن دينه، اشتراه أبو بكر وأعتقه ولاه ولاؤه.

هاجر وشهد مع النبي بدرا والمشاهد كلها، وكان مؤذن رسول الله ﷺ. وانتقل بعد وفاة النبي إلى دمشق وسكنها. ولما توافى عمر والمهاجرون إلى دمشق وحضروا الصلاة في مسجدها طلب عمر إلى بلال أن يؤذن – وكان لم يؤذن بعد وفاة النبي قط – فأذن فلم يبق أحد ممن حضر رسول الله وبلال يؤذن له إلا بكى حتى اخضلت لحاهم، وكان عمر أكثرهم بكاء لأنهم ذكروا بآذانه النبي ﷺ وأيامه.

مات سنة (٢٠) هـ ولـه بضع وستون سنة ودفن بمقبرة باب الصغير بدمشق.

تميم بن حذلم أبو سلمة الضبي الكوفي من أصحاب ابن مسعود وأدرك أبا بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما. ثقة قليل الحديث.

جابر بن عبد الله السلمي الأنصاري الخزرجي وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة الثانية شهدها مع أبيه وهو صبي وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا بدرا وأحدا فقد منعه أبوه لحداثته. ثم شهد صفين مع علي بن أبي طالب، وعمي آخر عمره ومات سنة ٧٤هـ وقد نيف على التسعين.

الجبائي[1] أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب المتكلم المشهور. كان هو وابوه محمد من المعتزلة ولهما مقالات على مذهب الاعتزال، وكتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما وتوفي سنة ٣٢١ ببغداد

وفيات الأعيان ١: ٥٢٤

الجبائي محمد بن عبد الوهاب الجبائي. رئيس المعتزلة بالبصرة وأحد أئمة علماء الكلام في الإسلام، بينه وبين الأشعري مناظرات عدة.

وإليه تنسب الطائفة الجبائية من المعتزلة وهم الذين اتبعوا مقالات وآراء له خاصة انفرد بها عن المعتزلة.

ولد سنة ٢٣٥هـ ومات سنة ٣٠٣هـ

وفيات الأعيان

الجريري لقب رجلين: سعيد وعباس، وكلاهما روى عن شعبة:

١- سعيد بن إياس الجريري البصري وهو رجل صالح حسن الحديث، تغير حفظه قبل موته. توفي سنة ١٤٤هـ.

تهذيب التهذيب ٤: ٥

(١) نظرا للاضطراب في اسم الجبائي الوارد في الأصل المخطوط وفي المطبوع ترجمنا لأبي هاشم هذا ولأبيه محمد، وإن كنا نرجح أن المقصود في الرسالة هو عبد السلام.

٢- عباس بن فروخ الجريري أبو محمد المصري، محدث ثقة صدوق صالح الحديث مات كهلا بعد العشرين ومئة.

تهذيب التهذيب ٥: ١٢٥

جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وأمه أم هانئ بنت أبي طالب صحابي، وقيل تابعي ولد على عهد النبي وليست له صحبة روى عن خاله علي، وولاه علي خراسان وكان فقيها.

تهذيب التهذيب ٢: ٨١

جعفر بن أبي طالب أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة. وقدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة فقبله الرسول بين عينيه وقال: ((ما أدري أنا بقدوم جعفر أسر أو بفتح خيبر))

وكان في يوم واحد. واستعمله رسول الله على غزوة مؤتة فأبلى في المعركة بلاء حسنا: قال أحد بني مرة بن عوف: "لكأني أنظر إلى جعفر يوم مؤتة حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل. قطعت يمينه في القتال فأخذ الراية بشماله فقطعت فحضنها إلى صدره فقتل وسنه (٤١) سنة، ولقب لذلك بالطيار وبذي الجناحين."

وكان كريما قال أبو هريرة: (خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، ينقلب فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة ليس فيها شيء فيشقها).

قال أبو هريرة: (ما احتذى النعال ولا انتعل ولا ركب الكور أحد بعد رسول الله ﷺ خير من جعفر بن أبي طالب).

جميل بن بصرة الغفاري، صحب النبي ﷺ هو وأبوه وجده. وروى عنه. ومنهم من يضبطه بالحاء.

الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله الضبي النيسابوري المشهور بالحاكم من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه.

ولد في نيسابور ٣٢١هـ وطوف في العراق والحجاز وبلاد خرسان وما وراء النهر، وأخذ عن ألفي شيخ وولي قضاء نيسابور ثم قضاء جرجان، من أعلم الناس بصحيح الحديث

وتميزه. وصنف كتبا كثيرة جدا منها: (تاريخ نيسابور) وهو على رأي السبكي من أعـود التواريخ على الفقهاء بفائدة، ومن نظره عرف تفنن صاحبه في جميـــع العلـــوم. وكتابـــه (المستدرك على الصحيحين) و(الإكليل) و(الأمالي)، و(تراجم الشـــيوخ) و(الصحيـــح) في الحديث. توفي بنيسابور سنة ٤٠٥هـــ.

الأعلام

جيش بن دجلة أحد وجوه أهل الشام، من الأردن، استعمله معاوية وابنه يزيد. وهـو أول أمير أكل على منبر رسول الله ﷺ فقد ذكروا: أنه أكل التمر من مكتله ورمى بنواه في وجـوه القوم وقال: "والله إني لأعلم أنه ليس بموضع أكل، ولكنني أحببت أن أذلكم لخذلانكم أمـير المؤمنين (يعني عثمان)".

قتل بالربذة أيام ابن الزبير، ودخل قاتله المدينة ووقف على برذون أشهب وعليه ثيـــاب بيض فما لبث أن اسودت ثيابه ودابته مما مسح الناس به ومما صبوا عليه من الطيب .

ا. هـــ باختصار عن تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤: ٤٠

حسان بن فائد العبسي كوفي أدرك عمر بن الخطاب وروى عنه وهو شيخ مـــن ثقـــات التابعين قليل الحديث.

الحسن بن علي أحد سيدي شباب أهل الجنة، وأشبه الناس خلقا برسول الله ﷺ بويع لـــه بعد مقتل أبيه علي ثم أمضى الصلح بينه وبين معاوية حقنا للدماء سنة ٤١.

وتوفي بالمدينة حول سنة (٥٠) هـــ

أبو علي الحسن بن علي الفاسي (كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنيـــة الجميلة، لم يزل يطلب ويختلف إلى العلماء محتسبا حتى الموت.)

قال لـــه ابن حزم: "يا أبا علي، متى تنقضي قراءتك على الشيخ؟"

فأجابه: "إذا انقضى أجلي"

قال فيه ابن حزم: "كان رحمه الله ناهيك به سروا ودينا وعقلا وعلما وتهذيبـــا وحســـن خلق".

الصلة رقم ٣١٧

الحسين بن علي بن أبي طالب، السبط الشهيد ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

ولد بالمدينة سنة (٤) هـ ونشأ خير نشأة في كنف أبيه علي وظل جده النبي ﷺ. ولما مات أخوه الحسن كتبت إليه شيعته بالعراق تستقدمه وتبايعه فلما كان بكربلاء اصطدم بجيش عبيد الله بن زياد عامل يزيد، وكانت مقتلة فاجعة استشهد فيها الحسين رحمه الله ٦١هـ.

حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين، ولدت قبل المبعث بخمس سنين: وكانت تحت حصن بن حذافة فقتل عنها بأحد ثم بنى النبي ﷺ بها بعد عائشة. ولزمت بيتها بعده لم تغادره إلا إلى الحج وتوفيت سنة ٤١هـ.

حمام بن أحمد أبو بكر بن الأطروش القاضي ولد بقرطبة سنة ٣٥٧هـ.

كان شديد الانقباض، لا يدري أحد سلم من الفتن سلامته مع طول مدته فيها، فلم يشارك فيها قط بمحضر ولا يد ولا لسان، مع ذكائه وحزمه وقيامه بكل ما يتولى، حسن الشعر، حسن الخلق، فكه المحادثة، كثير النسخ، جيد الخط، ولي القضاء.

قال فيه ابن حزم: "كان واحد عصره في البلاغة وفي سعة الرواية، ضابطا لما يقيده."

توفي بقرطبة سنة ٤٢١هـ.

الصلة رقم ٣٤٧

حمزة بن عبد المطلب عم النبي وأخوه من الرضاعة، لأن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعت النبي ﷺ وأرضعت حمزة. ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين وأسلم في السنة الثانية من البعثة، وهاجر إلى المدينة وشهد غزوة بدر وقتل في غزوة أحد سنة ثلاث بعد أن أبلى فيها البلاء الحسن وقتل أكثر من ثلاثين من المشركين لقب بأسد الله وسيد الشهداء. ودفن حيث قتل. قتله وحشي وبقي حزن النبي ﷺ عليه أمدا طويلا.

حميد الطويل أبو عبيدة الخزاعي ولاء، محدث بصري صدوق ثقة. مات وهو قائم يصلي سنة ١٤٢هـ عن خمس وسبعين سنة.

خالد الحذاء أبو المنازل بن مهران البصري. مولى قريش، رأى أنس بن مالك. ولم يكن بحذاء ولكن كان يجلس إليهم فلقب به. محدث كثير الحديث ثبت ثقة.

استعمل على العشور بالبصرة. وتوفي سنة ١٤١هـ.

خالد بن الوليد القائد الأشهر والصحابي الجليل، فاتح الشام والعراق، وأيمن القواد نقيبة على الإطلاق، أحبته الجيوش وغلت في الاعتقاد فيه حتى خيف عليها الفتنة.

هو من بني مخزوم أسلم بعد الحديبية وشهد مؤتة والفتح وحنينا ولقبه رسول الله: (سيف الله) ولم ينبغ في العرب ولا غيرهم أبرع منه في قيادة الجيوش ولا أشجع ولا أحذق.

لما حضرته الوفاة بكى وقال: "لقيت كذا وكذا زحفا وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح وها أنذا أموت على فراشي. فلا نامت أعين الجبناء"

مات بحمص أو بالمدينة على خلاف بينهم في ذلك سنة ٢١هـ وعمره حول الستين.

خديجة بنت خويلد الأسدية، أولى أزواج النبي ﷺ، خطبها وله خمس وعشرون سنة وكانت هي أسن منه بخمس عشرة سنة. رغبت فيه لما رأت من أمانته وبركته حين سافر بتجارتها إلى الشام قبل البعثة وربحت أرباحا طائلة.

ولها المنة العظمى على المسلمين، لأنها أول من صدقت بالنبي ﷺ وبرسالته وحملت معه الأعباء وخدمته وقوت جنانه وصبرته على ما يلقى من العنت. ولدت لرسول الله ﷺ كل أولاده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وكان رسول الله يكثر من ذكرها والثناء عليها والاستغفار لها حتى كانت تضيق بهذا الثناء وكثرته بعض زوجاته غيرة منها.

ولم يكن يحب أن يسمع عنها إلا خيرا. وكان يكرم كل صواحبها ومعارفها وفاء لها ﷺ ورضي عنها.

خلف بن القاسم الإمام أبو القاسم الأندلسي ابن الدباغ. ولد سنة ٣٢٥هـ حافظ محقق مصنف ورحل إلى مصر ودمشق وحدث عنه جماعة من الأندلسيين وهو أحد شيوخ ابن عبد البر، وكان هذا لا يقدم عليه من شيوخه أحدا مات سنة ٣٩٣هـ.

تذكرة الحفاظ ٣: ٢١٥

داود بن علي بن عبد الله بن العباس أبو سليمان الشامي شيخ هاشمي مقل من الحديث، ولي الموسم ومكة واليمن واليمامة، مات سنة ١٣٣ هـ وهو وال على المدينة وعمره ٥٢ سنة.

أبو ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة أحد السابقين إلى الإسلام أسلم بعد أربعة. وهو من أجل الصحابة وأفضلهم وأعبدهم وكان النبي ﷺ يحبه ويؤانسه ويتفقده إذا غاب، وقال فيه: ((ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر)) وروي فيه أيضا: ((يعيش أمة وحده ويموت أمة وحده ويبعث أمة وحده)) نزل الشام وصار يجهر فيها بوجوب مواساة الأغنياء للفقراء واشتدت وطأته على الموسرين فشكوه إلى معاوية فشكاه إلى عثمان فنفاه إلى الربذة، وفيها مات سنة ٣١هـ. رحمه الله ورضي عنه.

أبو رافع الفضل بن علي... ابن حزم من أهل قرطبة، روى عن أبيه ابن حزم وعن ابن عبد البر وغيرهما، وكتب بخطه علما كثيرا. مع أدب ونباهة ويقظة وذكاء، وعنه عرفنا شيئا من شؤون أبيه. توفي بالزلاقة سنة ٤٧٩

الصلة الرقم ٩٩٤

ابن راهويه هو إسحاق بن إبراهيم أحد كبار أهل الحديث المقدمين نزيل نيسابور، طوف في البلاد فظهر علمه وأقر الأئمة الكبار بفضله، قال أحمد بن حنبل: "لم يعبر الجسر إلى خراسان مثله"، "لا أعرف له بالعراق نظيرا"، "إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين".

كان إسحاق يقول: "لكأني أنظر إلى مئة ألف حديث في كتبي وثلاثين ألفا أسردها"

قال الخفاف: "أملى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما زاد حرفا ولا نقص حرفا".

أملى المسند كله من حفظه مرة وقرأه من حفظه مرة. عده ابن حبان من سادات أهل زمانه فقها وعلما وحفظا وتصنيفا للكتب وتفريعا على السنن وذبا عنها وقمعا لمن خالفها. ولد سنة ١٦١ ومات سنة ٢٣٨هـ.

الزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ من أبطال الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وهو أول من سل سيفا في سبيل الله، وكان ذا غنى عريض، قتله عمرو بن جرموز غدرا يوم الجمل، وقد قام للصلاة سنة ٣٦هـ وقد نيف على الستين.

زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ وحبه. وهو المذكور في القرآن في قول الله: {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها} [الأحزاب: ٣٧/٣٣] {فلما قضى زيد منها وطوا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا} [الأحزاب: ٣٧/٣٣] شهد مع رسول الله ﷺ بدرا وغيرها وأرسله أميرا إلى مؤتة فقتل هنالك سنة ثمان.

زينب بنت جحش أم المؤمنين وهي بنت عمة رسول الله ﷺ كانت تحت زيد بن حارثة فطلقها، وأمر الله نبيه بالزواج منها وأنزل الله فيها الآية: [الأحزاب: ٣٧/٣٣] وأبطل الله بذلك عادة التبني الجاهلية.

كانت زينب من أكمل النساء دينا وأعفهن لسانا وأكثرهن عبادة وصدقة وهي أولى أمهات المؤمنين لحوقا بالنبي ﷺ ماتت سنة عشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب، وهي أول من وضع على نعش في الإسلام.

تهذيب التهذيب

زينب بنت خزيمة أم المؤمنين وتسمى أم المساكين. تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث وبقيت عنده شهرين أو ثلاثة ثم توفيت في حياته رحمها الله ورضي عنها.

سالم مولى أبي حذيفة من المهاجرين الأولين. وكان من أجلاء الصحابة قتل يوم اليمامة.

سعد بن معاذ صحابي جليل كان سيد الأوس، ومن السابقين من الأنصار إلى الإسلام. شهد بدرا وأحدا والخندق.

ورمي في غزوة الخندق بسهم فعاش بعد ذلك أشهرا ثم انتقض جرحه فمات منه سنة (٥) من الهجرة. وروي في حقه: (اهتز عرش الرحمن لموت سعد) وقد قال عن نفسه: "ثلاث أنا فيهن رجل (يعني كما ينبغي) وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس: ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثا قط إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا كنت في صلاة قط فشغلت

نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا كنت في جنازة قط فحدثت نفسي بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها."

قال ابن المسيب: "فهذه الخصال ما كنت أحسبها إلا في نبي."

سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي أول من رمى في سبيل الله بسهم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. شهد مع رسول الله ﷺ بدرا. وكان قائدا لحروب الفرس وفتح العراق وبنى الكوفة ووليها لعمر إلى المدينة واعتزل الفتن كلها، ومات بالعقيق فحمل إلى المدينة ودفن فيها سنة ٥٥هـ.

أبو سعيد الجعفري خلف مولى جعفر الفتى المقري. سكن قرطبة وأخذ عن شيوخها ورحل إلى الشرق فسمع من شيوخ في مكة ومصر والقيروان. (وكان من أهل القرآن والعلم نبيلا من أهل الفهم، مائلا إلى الزهد والانقباض، خيرا فاضلا) خرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة وتوفي بها سنة ٤٢هـ أو ٤٢٩هـ

الصلة رقم ٣٧٣

أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري

الخزرجي، صاحب رسول الله ﷺ وملازمه. شهد مع النبي المشاهد وروى عنه الأحاديث، وله في الصحيحين ١١٧٠ حديثا، ومات بالمدينة سنة ٧٤هـ

الأعلام

سعيد بن زيد صحابي جليل من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. هاجر وشهد مع رسول الله ﷺ أحدا فما بعدها من المشاهد. توفي بالمدينة سنة خمسين وقد نيف على السبعين.

سيفان الثوري سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث. قال ابن المبارك: "كتبت عن ألف ومئة شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان"

وكان واحد زمانه في الفقه والحديث والزهد والعبادة وقد بلغ حديثه ثلاثين ألفا. قال مالك: "كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء

سفيان" ولد سنة ٩٧هـ وخرج من الكوفة سنة ١٥٠ ولم يرجع إليها ومات بالبصرة سنة ١٦١هـ.

تهذيب التهذيب

سفيان بن عيينة الكوفي أحد كبار المحدثين الثقات الأوائل، كان حافظا محدثا ورعا ثبتا، ولد سنة (١٠٧ هـ) ومات سنة ١٩٨. ذكروا أنه حج آخر حجة، فلما كان بجمع قال: "قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة، أقول في كل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد بهذا المكان، وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك" فلما رجع توفي في رجب من السنة الداخلة.

تهذيب التهذيب وابن سعد

سلمان الفارسي الصحابي الجليل الزاهد. أصله من أصبهان خرج من بلاده متنقلا في طلب الدين الصحيح حتى سمع ببعث النبي ﷺ فأسر في مخرجه ذاك وبيع بالمدينة. ولما قدمها النبي ﷺ أسلم وشهد معه الخندق فما بعدها. وشهد حروب العراق وولي المدائن.

كان كثير العبادة مع زهد وفقه في الدين كثير الصدقات ينسج الخوص، ويأكل من كسب يده، فإذا خرج عطاؤه تصدق به جميعه. مات سنة ٣هـ.

أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي القرشي. أخوه النبي ﷺ من الرضاعة وابن عمته. أحد السابقين إلى الإسلام هو وامرأته أم سلمة التي صارت بعد موته من أمهات المؤمنين. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، توفي سنة أربع بعد منصرفه من غزوة أحد.

أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، أم المؤمنين. تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة بعد غزوة أحد وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد.

وعاشت بعده ﷺ على غاية من الصيانة والتدين حتى وافاها أجلها سنة ٦١هـ.

سليمان بن داود الشاذكوني محدث بصري حافظ، من أعلم المحدثين بالرجال وأحفظهم للأبواب. وقد تكلم عليه بعضهم ورووا أنه كان يتماجن. مات سنة ٢٣٤هـ.

سماك بن خرشة وقيل ابن أوس بن خرشة، أبو دجانة الصحابي الأنصاري الساعدي الشجاع الباسل. شهد بدرا وأحدا وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، أعطاه رسول الله سيفه يوم أحد وقال: ((من يأخذ هذا السيف بحقه؟))

فقال أبو دجانة: "أنا آخذه بحقه." فدفعه إليه فقاتل به وأبلى البلاء الحسن. وله مع النبي مواقف مشهودة.

ومات شهيدا يوم اليمامة رحمه الله.

سهل بن حنيف أبو ثابت الأوسي الأنصاري. صحابي جليل شهد بدرا والمشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد وكان بايعه على الموت. ثم صحب عليا من حين بويع فاستخلفه على البصرة وشهد معه صفين وولاه فارس وكان رسول الله ﷺ آخى بين علي وبينه. مات سنة ٣٨هـ

تهذيب التهذيب ٤: ٢٥١

سهل بن سعد الساعدي أنصاري من الخزرج له ولأبيه صحبة ورواية ولد قبل الهجرة بخمس سنين ومات سنة ٨٨ وقيل سنة ٩٦ وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة.

سودة بنت زمعة إحدى أمهات المؤمنين أسلمت وهاجرت. وقد تزوجها النبي بعد خديجة ثم كبرت سنها فآثرت عائشة بيومها تقربا إلى رسول الله ﷺ وكانت من أتبع الناس له. توفيت ٥٥هـ.

الشافعي محمد بن إدريس صاحب المذهب المعروف باسمه، ينتهي نسبه إلى عبد مناف. وهو مكي نزل مصر ورحل إلى اليمن والعراق. وهو من آيات الله الكبار في الحفظ والفهم والعلم والذكاء والتقوى والورع. أفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، ومناقبه معروفة متداولة مشهورة ألفوا فيها المصنفات الكبار. لم يترك علما من لغة أو شعر أو أخبار أو فقه أو حديث، ولا فنا من الفنون إلا أجاده وبرع فيه حتى قالوا: إنه ألف كتابا في (السبق والرمي) لم يسبقه إليه أحد، وكان بصيرا بالفروسية والرمي. ومذهبه ومذهب أبي حنيفة أكثر المذاهب انتشارا في العالم الإسلامي. ولد سنة ١٥٠هـ ومات آخر رجب سنة ٢٠٤هـ.

شعبة بن الحجاج الأزدي من كبار المحدثين وأحد العباد المنقطعين إلى الله قال فيه الثوري: "شعبة أمير المؤمنين في الحديث"

وقال الشافعي: "لولا شعبة ما عرف الحديث في العراق"

ولم ير أعبد لله منه، لقد عبد الله حتى جف جلده على ظهره، ولم ير أرحم بمسكين منه، ولم يدخل عليه داخل في وقت صلاة إلا رآه قائما يصلي. قال وكيع: "إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات لذبه عن رسول الله ﷺ" ولما مات قال سفيان: "مات الحديث" وكان من سادات أهل زمانه حفظا وإتقانا وورعا وفضلا، وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين، وجانب الضعفاء المتروكين، وصار علما يقتدى به وتبعه عليه بعده أهل العراق" وكان له أخوان يعالجان الصرف ويعولانه ويقول لأصحاب الحديث: "الزموا السوق فإنما أنا عيال على إخوتي".

ومع كونه إمام الأئمة في الحديث كان عالما بالشعر والنحو واللغة، وإليه تعزى الكلمة المشهورة: (تعلموا العربية فإنها تزيد في العقل) رأى أنس بن مالك وسمع من أربع مئة من التابعين. ولد سنة ٨٢، ومات في البصرة سنة ١٦٠هـ.

انظر تهذيب التهذيب وابن سعد

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة رسول الله ﷺ أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة. وكانت تخرج مع المسلمين إلى القتال مع النساء اللائي يسقين الماء ويداوين الجرحى. وهي سيدة شاعرة باسلة جريئة؛ أطاف يهودي بحصن كانت فيه هي وجماعة من نساء المسلمين، فحرضت حسان بن ثابت على قتله فجبن، فأخذت عمودا فقتلته به.

ولما انهزم المسلمون في أحد تقدمت وبيدها رمح تضرب في وجوه المنهزمين وهي تقول: "انهزمتم عن رسول الله ﷺ" ماتت سنة ٢٠هـ.

صهيب بن سنان النمري المعروف بالرومي، أصله من النمر بن قاسط

سبته الروم وهو غلام فنشأ فيهم، ثم هرب إلى مكة، فحالف عبد الله بن جدعان. أسلم قديما، ولقي من أذى المشركين بمكة شدة وعنتا، وكان من المستضعفين المعذبين في الله أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلا. وروي عن رسول الله ﷺ قوله: ((صهيب سابق الروم)) وهاجر

فأدرك النبي ﷺ بقباء، وشهد معه بدرا والمشاهد بعدها. وإليه أوصى عمر بن الخطاب حين وفاته أن يصلي بالناس حتى يجتمع أهل الشورى على رجل.

مات بالمدينة سنة ٣٨هـ عن (٧٣) سنة. وصلى عليه سعد بن أبي وقاص صاحب رسول الله ﷺ وقائد المسلمين إلى فتح فارس.

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل الشيباني المكي البصري. فقيه ومحدث جليل، ثقة صدوق فيه مزاح. سأل جماعة الإمام أحمد بن حنبل أن يحدثهم فقال: "تسمعون مني وأبو عاصم في الحياة!؟ اخرجوا إليه."

مات سنة ٢١٢هـ.

أبو طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ والمدافع عنه في أول الدعوة وقد رد عنه أذى القرشيين وعاش رسول الله ﷺ منيع الجانب حتى توفي أبو طالب فاشتد على النبي من بعده الأذى.

كان شديد الحب لرسول الله ﷺ كثير الحدب عليه، و لم يسلم، وأعقب بنين خدموا الإسلام أجل الخدمات مات قبل الهجرة.

طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي، أحد السابقين إلى الإسلام، وهو ابن عم عائشة. شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وأبلى البلاء الحسن يوم أحد، فقد كان أحد الثابتين المقلتلين بصبر وثبات، حمى رسول الله ﷺ بنفسه، وقطعت يده وأصابه جراحات كثيرة. وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه إذا ذكر عنده يوم أحد قال: "ذلك يوم كان كله لطلحة"

وكانت له تجارة واسعة إلى العراق ويسمى طلحة الجود لكرمه. قتل يوم الجمل في صف عائشة، أصابه سهم بنت أبي بكر فمات منه سنة ٣٦هـ.

عائشة بنت أبي بكر الصديق وأحب أمهات المؤمنين إلى رسول ﷺ بعد خديجة. ولدت بعد مبعث رسول الله ﷺ بأربع سنين ودخل بها وهي ابنة تسع ومات رسول الله ﷺ ولها ثمان عشرة سنة. وكانت من أعلم الصحابة وأفقههم وأكثرهم حديثا ورواية للشعر والأخبار مع انقطاع إلى العبادة، وسرد للصوم، وكثرة صدقة، وقد خدمت الإسلام خدمة جلى بنشرها العلم بعد رسول الله ﷺ. ماتت بالمدينة، ودفنت بالبقيع سنة ٥٨هـ. وكانت كثيرة الندم

لخروجها من بيتها إلى البصرة حتى كان يوم الجمل المشؤوم. وكانت كلما ذكرته بكت حتى تبل خمارها، رحمها الله ورضي عنها.

عباد بن بشر أبو بشر وأبو الربيع الأنصاري الخزرجي. أسلم بالمدينة على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدرا والمشاهد كلها. وقتل يوم اليمامة شهيدا، وكان له بلاء وغناء وهو ابن خمس وأربعين سنة.

العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأسن منه بستين وكان يلي السقاية والعمارة في الجاهلية وهو من سراة قريش؛ تأخر إسلامه وخرج مع قريش إلى بدر كرها فأسر وافتدى، ثم أسلم. وكانت قريش تحبه لصلته الأرحام وسعيه في مصالحها مع عقل ورأي، وكان النبي والخليفتان من بعده شديدي التعظيم له. مات بالمدينة سنة ٣٢هـ.

ابن عبد البر انظر: يوسف بن عبد الله.

عبد الرحمن بن أبي بكر شقيق عائشة. تأخر إسلامه، فكان مع المشركين في غزوة بدر وأحد. ثم أسلم في هدنة الحديبية وشهد اليمامة، وأبلى فيها البلاء الحسن. وكان يوم الجمل مع أخته عائشة. وكان أشد أهل الحجاز رفضا لبيعة يزيد.

عرف بالصلاح والصدق والدين، ومات سنة ٥٣ فجأة في طريقه إلى مكة قبل أن تتم البيعة ليزيد فنقل إليها.

عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد، أبو القاسم، ويعرف بابن الخراز. ولد ببجانة سنة ٣٣٨هـ كان رجلا صالحا منقبضا، وكان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قرطبة فتباع له ويبتاع له في ثمنها ما يصلح ببجانة. وكان صاحب سنة.

توفي بالمرية سنة ٤١١هـ

الصلة الرقم ٦٨٧

عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي. أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن أجلاء الصحابة. شهد مع رسول الله المشاهد كلها واشتهر بالتجارة والثراء وكان كثير الصدقة جوادا شجاعا تصدق مرة واحدة بقافلة فيها سبع مئة جمل تحمل الحنطة والطعام، وأوصى بألف فرس وخمسين ألف دينار في سبيل الله. توفي ٣٢هـ.

عبد الرحمن بن مهدي أبو سعيد العنبري البصري اللؤلئي. من أئمة حفـــاظ الحديـــث. وكان أعلم أهل عصره بالحديث حتى قال الشافعي فيه: "لا أعرف لـــه نظـــيرا في الدنيـــا" ولـــه في الحديث تصانيف ومات في البصرة سنة ١٩٨هـــ.

عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي المصري أبو القاسم بن محمد بن أبي يزيد العتكي المصري الصواف النسابة. ولد بمصر سنة ٣٣٣ وقدم الأندلس سنة ٣٩٤ وروى عن شيوخها، وكان (رجلا أديبا حلوا حافظا للحديث وأسماء الرجال والأخبار ولـــه أشعار حسان في كل فـــن، وكان معاشه من التجارة.)

سكن قرطبة حتى إذا كانت الفتنة خرج عن الأندلس ومات بمصر سنة ٤١٠هـــ

الصلة رقم ٧٥٣

أبو هاشم الجبائي (انظر: الجبائي)

عبد الله بن إبراهيم الأصيلي هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، فاضل. نسـبته إلى أصيلة (مدينة بالمغرب)

رحل في طلب العلم وألف كتبا كثيرة.

الأعلام

عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، شهد بيعة الرضوان والخندق، مات سنة ٨٦ وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة.

عبد الله بن يسر المازني لـــه ولأبيه صحبة. سكن حمص، مات سنة (٩٤) هـــ، وقيـــل (٩٦) هـــ ولـــه مئة سنة.

هناك آخر سكسكي سكن البصرة ليس بثقة

وابن بشر قاضي الرقة من الكوفة لا باس به.

عبد الله بن جحش صاحب رسول الله ﷺ ومن السابقين إلى الإسلام. وأمه عمة رســـول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب. أسلم قبل دخول رســـول الله ﷺ دار الأرقـــم وهـــاجر إلى الحبشة. ثم أرسله رسول الله ﷺ على رأس سرية فتسمي أمير المؤمنين ومات شهيدا في غـــزوة

أحد ولـــه بضع وأربعون سنة. ودفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب في قبر واحـــد. وولي تركته رسول الله ﷺ فاشترى لابنه مالا بخبير.

ابن سعد

عبد الله بن الحارث بن جزء أبو الحارث الزبيدي نزيل مصر لـــه صحبة ورواية. وكـــان اسمه العاصي فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. مات سنة (٨٦) هـــ وقد عمي وهو آخر مـــن مات بمصر من الصحابة.

أبو عبد الله الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي مـــن أهـــل جزيرة ميورقة وأصله من قرطبة، روى عن ابن حزم فأكثر واختص به، وبه عرف، وبصحبته اشتهر فهو تلميذه الخاص. رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨ فحج وأخذ عن رواة الحديث بمكـــة ومصر وإفريقية والشام والعراق واستوطن بغداد، وصار إماما من أئمة المسلمين في حفظـــه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله، حتى قال بعض الأكابر ممن لقي الأئمة: "لم تر عينـــاي مثله في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله" كـــان إماما في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته، محققا في علم الأصـــول علـــى مذهـــب أصحاب الحديث، متبحرا في علم الأدب والعربية،. ولـــه تصانيف جمة غزيرة الفـــائدة في التاريخ والأدب والمواعظ والفقه والحديث. وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحـــر ويجلس في إجانة ماء يتبرد به.

هذا وقد صار ظاهريا على مذهب ابن حزم إلا أنه لم يكن يتظاهر به.

ولد قبل سنة ٤٢٠ وتوفي ببغداد سنة ٤٨٨هـــ.

نفح الطيب ١: ٣٧٥

عبد الله بن دينار أبو عبد الرحمن العدوي المدني مولى ابن عمر.

محدث ثقة ثبت من صالحي التابعين. من المكثرين من رواية الحديث والذين روى عنـــهم جماعة كبيرة. مات سنة ١٢٧هـــ.

تهذيب التهذيب ٥: ٢٠١

عبد الله بن دينار أبو محمد البهراني الحمصي، محدث ضعفه بعض النقاد.

عبد الله بن ربيع التميمي ويعرف بأبي محمد ابن بنوش من أهل قرطبة ولد سنة ٣٣٠هـ وقرأ على شيوخ بلده ثم رحل إلى المشرق فحج، ولقي شيوخ المشرق فكتب عنهم، وأخذ العلم، ورجع إلى الأندلس. فروى عنه جماعة من علمائها (وكان ثقة ثبتا دينا فاضلا من أهل العلم والحديث مع العدالة) وممن أخذ عنه ابن حزم. وتوفي سنة ٤١٥هـ

الصلة رقم: ٥٧٦

عبد الله بن الزبير ولد سنة الهجرة، وفرح المسلمون بمولده فرحا عظيما لأنه أول مولود في الإسلام، وحنكه النبي ﷺ، وكان من الشجعان الفرسان، شهد وقعة اليرموك، وكان له شأن في حياة المسلمين السياسية. شهد الجمل مع عائشة وأبيه، وبويع بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي، وعظم أمره في الحجاز واليمن والعراق وخراسان ثم حاصر الحجاج مكة ورماها بالمنجنيق فقتله حجر من حجارة المنجنيق سنة ٧٢هـ.

وموقف أمه أسماء منه قبل المعركة من أروع المواقف في تاريخ البطولة.

عبد الله بن عباس عالم المسلمين وحبر هذه الأمة وأعلمها بالحلال والحرام. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ولازم النبي ﷺ واستفاد بملازمته علما غزيرا وكان عمر يستفتيه على حداثة سنه، ويدخله مع أجلة المهاجرين. كان نادرة الدنيا ذكاء وعقلا. مات سنة ٦٨هـ.

عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد علماء الصحابة وفقهائهم وعبادهم. هاجر مع أبيه، وشهد بيعة الرضوان والخندق.

اشتهر بصلابة دينه وشدة ورعه وابتعاده عن كل شر. كثير العبادة والاجتهاد فيها. مات سنة ٧٤هـ.

عبد الله.. ابن الفرضي أبو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي؛ الحافظ المشهور صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) ولد سنة ٣٥١هـ وقرأ على شيوخها ثم رحل إلى المشرق سنة ٣٨٢ فحج، وأخذ عن علماء مكة ومصر والقيروان، ورجع إلى الأندلس، وقد جمع علما كثيرا، وصنف كتابه المذكور، وبلغ به النهاية من الإتقان، وله غيره تواليف في أخبار الشعراء وفي اللغة والأنساب. وهو من أقران ابن عبد البر الحافظ، عالم بفنون الحديث وعلم الرجال، جليل مقدم عامل بعلمه (لم ير مثله بقرطبة في سعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة

الرجال والافتنان في العلوم، إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة) وكان جماعا للكتب لم يجمع جمعه أحد من عظماء البلد، حسن الشعر والبلاغة والخط.

تقلد قراءة الكتب بعهد العامرية واستقضاه محمد المهدي بكورة بلنسية. وقتل في فتنة قرطبة سنة ٤٠٣هـ.

الصلة رقم ٥٦٧

عبد الله بن المبارك أحد أئمة الحديث الكبار، ولد لأم خوارزمية وأب تركي، فقيه عالم عابد زاهد شيخ شجاع شاعر.

جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصات وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية والشجاعة والشدة في بدنه وترك مالا يعنيه وقلة الخلاف لأصحابه. وكان إلى هذا تاجرا سخيا ودودا. شهد له أكابر الأئمة الشهادات العالية قال شعيب بن حرب: "إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل ابن المبارك فما أقدر ولا ثلاثة أيام"، "ما لقي ابن المبارك رجلا إلا وابن المبارك أفضل منه" وقال ابن عيينة: "نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلا على ابن المبارك إلا بصحبتهم رسول الله ﷺ وغزوهم معه." وقال ابن مهدي وقد سئل عنه وعن سفيان "لو جهد سفيان جهده على أن يكون يوما مثل عبد الله لم يقدر." مع كيسه وشدة تثبته وكونه ثقة عالما صحيح الحديث. وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفا على ما ذكر ابن حجر، وكان إسماعيل بن عياش يقول: " ما على الأرض مثل ابن المبارك ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه" وكانت فيه خصال لم تجتمع لأحد من أهل العلم في زمانه في الأرض كلها. وكان ابن المبارك يقول "كتبت عن ألف شيخ".

استؤذن له يوما على مالك فتزحزح له في مجلسه، وكان مالك لا يتزحزح لأحد في مجلسه غيره، وكان القارئ يقرأ على مالك فربما مر بشيء فيسأله مالك: (ما عندكم في هذا؟) فكان عبد الله يجيبه في الخفاء، ثم قام فخرج، فأعجب مالك بأدبه وقال لأصحابه: "هذا ابن المبارك فقيه أهل خراسان" روى رواية كثيرة وصنف كتبا كثيرة في أبواب العلم، وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد، وعرف في زمانه بالصلاح وأنه مجاب الدعوة. رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر واليمن.

ولد سنة ١١٨هـ، ومات بهيت منصرفا من الغزو سنة ١٨١هـ

ابن سعد وتهذيب التهذيب

عبد الله بن مسعود الهذلي من السابقين إلى الإسلام وهو أول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان من أفاضل الصحابة وأجلائهم وعلمائهم. خدم رسول الله ﷺ في ظعنه وإقامته وغزواته، ثم ولي بيت مال الكوفة، وقدم المدينة أيام عثمان حتى توفي سنة ٣٢هـ.

عبد الله بن هبيرة السبائي الحضرمي المصري، محدث ثقة معروف ولد عام الجماعة سنة (٤١) ومات سنة ١٢٦هـ.

عبد الله بن يوسف بن نامي أبو محمد الرهوني ولد سنة ٣٤٨هـ وسمع من شيوخ قرطبة، (كان صالحا خيرا فاضلا لا يقف بباب أحد، ولا يزول عن تأديبه بمسجد أبي خالد بالمدينة، مجودا للقرآن، قديم الطلب حسن الخلق شديد الانقباض جيد العقل خاشعا كثير البكاء، متحريا فيما يسمع متحفظا به ورعا في دينه) واختلط في آخر عمره فترك الأخذ عنه. توفي سنة ٤٣٥هـ

الصلة رقم ٥٩٠

عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي العظيم. ولد نحو سنة ٢٥هـ ونشأ عابدا ناسكا قد جالس الفقهاء وحفظ عنهم. واستعمله معاوية على المدينة وبويع سنة ٦٥هـ وكان أحزم خلفاء بني أمية وأعقلهم وأحسنهم إدارة مات سنة ٨٦هـ

القاضي عبد الوهاب أبو محمد بن علي بن نصر، قاض فقيه كان شيخ المالكية وعالمهم في عصره، له نظم ومعرفة بالأدب. ولد ببغداد سنة ٣٦٢ وولي القضاء في العراق، فرحل إلى الشام ومر بمعرة النعمان، واجتمع بأبي العلاء، وتوجه إلى مصر فعلت شهرته، وتوفي فيها سنة ٤٢٢هـ وله كتب جليلة في فقه المالكية.

الأعلام

عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. رأى النبي ﷺ وروى عنه وهو أصغر من أخيه عبد الله بسنة. وكان سخيا جوادا استعمله علي على اليمن، وحج بالناس سنتي (٣٦) و(٣٧)هـ.

دخل أعرابي دار العباس وفي جانبها عبد الله لا يرجع في شيء يسأل عنه، وفي الجانب الآخر عبيد الله يطعم كل من دخل فقال الأعرابي: "كل من أراد الدنيا والآخرة فعليه بدار العباس" مات بالمدينة سنة ٥٨هـ

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي، أمين هذه الأمة أحد العشرة المبشرين بالجنة أسلم مع السابقين وهاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان قائد جيوش الشام ثم وليها أيام عمر بن الخطاب وتوفي بطاعون عمواس، ودفن في غور بيسان سنة ١٨هـ ولو بقي حيا لاستخلفه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف. من أول الناس إسلاما أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهو أسن من النبي بعشر سنين، ثم هاجر إلى المدينة. وعقد له النبي لواء على ستين راكبا فلقوا أبا سفيان بن حرب فكان بين الفريقين رمي فقط.

قتل عبيدة يوم بدر وهو ابن ثلاث وستين سنة فتولى دفنه رسول الله ﷺ بنفسه

ابن سعد

عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين الذي بذل ماله في تعزيز الإسلام

وهو أموي ولد بمكة قبل الهجرة بسبع وأربعين سنة. وكان وجيها في قريش من موسريهم. جهز نصف جيش تبوك من ماله، وكان النبي ﷺ كثير الحب، كثير الدعاء له. وفي عهد خلافته فتحت أكثر الأمصار الإسلامية في إفريقية وآسية. وأخذ الناس في الأمصلو على مصحف واحد، ثم ذهب شهيدا سنة ٣٥هـ..

عثمان بن مظعون الجمحي. كان أحد الذين حرموا على أنفسهم الخمر في الجاهلية، وكان من حكماء العرب. أسلم مع السابقين وهاجر إلى الحبشة مرتين، وشهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر. ومات في السنة الثانية وحزن النبي ﷺ لموته وكان يحبه فقبله ميتا، وإن دموعه لتنحدر على خد عثمان رحمه الله.

أبو عثمان النهدي هو عبد الله بن عمرو، أحد الشجعان المقدمين من أصحاب المختار الثقفي. شهد صفين مع علي، وشهد مع المختار أكثر وقائعه، وقتل معه في حرب مصعب ابن الزبير على مقربة من الكوفة سنة ٦٧ هـ.

الأعلام

عقبة بن خالد أبو مسعود السكوني الكوفي المجدر. محدث ثقة صالح الحديث. مات في الكوفة سنة (١٨٨) هـ في خلافة الرشيد.

تهذيب التهذيب وابن سعد

عقيل بن أبي طالب أخو علي، أسلم عام الفتح، وكان من أعلم قريش بأنسابهم وأخبارهم قوي البديهة، ذا جواب مسكت. لم يكن مع أخيه علي في شيء من أمره، توفي آخر خلافة معاوية.

علي بن سعيد العبدري أبو الحسن، من أهل جزيرة ميورقة. سمع بها قديما من ابن حزم، وأخذ عنه ابن حزم. ثم رحل إلى المشرق وحج، ودخل بغداد، وترك مذهب ابن حزم واتبع الشافعي، وألف في الفقه على مذهبه، وكان من أهل الفضل والمعرفة والأدب.

مات ببغداد بعد سنة ٤٩١هـ.

الصلة رقم: ٩٠٣

علي بن أبي طالب الخليفة الرابع. أول من أسلم من الأحداث. ثم شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا تبوك فقد خلفه رسول الله ﷺ على المدينة. عاش على عهد الصديق والفاروق وذي النورين وزيرا لهم يشاورونه، وكان من أقضى الصحابة وأعلمهم وأعبدهم وأصلبهم دينا. وقضى عهد خلافته في حرب الخارجين عليه. قتل سنة (٤٠) هـ في الكوفة، وله ثلاث وستون سنة.

عمار بن ياسر القيسي مولى بني مخزوم. أحد المستضعفين المعذبين في الإسلام. أسلم هو وأبوه قديما، وقتل أبو جهل أمه فكانت أول شهيد في الإسلام. وكان يمر عليهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فيقول: "صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة". هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، وأسهم في حروب الردة وقطعت أذنه يوم اليمامة. وشهد صفين مع علي، وكان من أكبر أنصاره، وفيها قتل سنة ٣٧ هـ وقد نيف على التسعين.

أبو عمر ابن الجسور أحمد بن الجسور الأموي ولاء. من أهل قرطبة ولد سنة ٣١٩ وسمع بقرطبة من شيوخها. حافظ للحديث والرأي متقدم في العلم والفهم، محدث مكثر قديم الطلب، عارف بأسماء الرجال. فاضل أديب شاعر.

قال ابن حزم: وهو أول شيخ سمعت منه قبل الأربع مئة توفي بالطاعون سنة ٤٠١هـ.

الصلة رقم : ٣٧

عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. راوية للحديث وقد عد بعضهم حديثه مناكير، وجعله ممن يخطئ في الحديث، وقال الحاكم في المستدرك: أحاديثه كلها مستقيمة.

تهذيب التهذيب ٧: ٤٣٧

عمر بن الخطاب العدوي القرشي. الخليفة الثاني وواضع الأسس التي لا مثيل لها في السياسة والإدارة، والصورة العليا للعدل الإنساني المطلق.

من أشراف قريش في الجاهلية وإليه السفارة فيها. أسلم بعد أربعين رجلا، واعتز الإسلام به. ثم هاجر وشهد مع النبي المشاهد كلها، وكان وزير أبي بكر. ولما آلت إليه الخلافة سار خير سيرة وفتح الله عليه العراق والشام ومصر. ولي الخلافة عشر سنين وقتل سنة (٢٣) هـ وعمره ثلاث وستون سنة وقيل: تسع وخمسون.

عمر ابن واجب أبو حفص عمر بن محمد بن واجب من أهل بلنسية. كان صاحب أحكام بلنسية، من أهل الفضل والجلالة. رحل إلى الحجاز للحج، ومات في حدود الستين، سنة ٤٧٠ هـ أو ٤٧٦ هـ على خلاف في ذلك.

الصلة رقم: ٨٦٢

عمرو بن العاص السهمي القرشي. أسلم في هدنة الحديبية، وأمره النبي ﷺ في غزوة ذات السلاسل، وافتتح قنسرين أيام عمر، وتولى صلح أهل حلب ومنبج. ثم كان فاتح مصر ووالياها لعمر ثم عزله عثمان. ولما نشب الخلاف بين علي ومعاوية، كان مع معاوية، ولما استتب لمعاوية الأمر ولاه مصر، وفيها توفي سنة ٤٣ هـ، وهو أحد دهاة العرب المشهورين، ومن رجال الإسلام الأفذاذ.

عمرو بن مرة الجملي المرادي أبو عبد الله الكوفي الأعمى

محدث صدوق ثقة، له نحو مئتي حديث، وكان مأمونا على ما عنده ومن أكثر طبقته علما. مع اجتهاد في العبادة، قيل فيه: "لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الأرجاء فتهافت الناس عليه" وهو أحد أربعة في الكوفة لا يختلف في حديثهم.

مات سنة ١١٨ هـ.

فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوج علي بن أبي طالب

بنى بها بعد غزوة أحد، وقد نيفت على الخامسة عشرة، وولدت له الحسن والحسين ومنهما نسل رسول الله ﷺ. وكانت من أحب الناس إلى أبيها وأول أهله لحوقا به. توفيت سنة إحدى عشرة وسنها حول الثلاثين.

الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. أكبر أولاد العباس، غزا مع رسول الله ﷺ مكة وحنينا وثبت يومئذ مع النبي ﷺ حين ولى الناس، وشهد معه حجة الوداع. وكان فيمن غسل رسول الله وولي دفنه. ثم خرج بعد ذلك إلى الشام فمات بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة (١٨) هـ في خلافة عمر بن الخطاب .

ابن سعد ٧: ١٢٣

الفضيل بن عياض كان أول أمره شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس. وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليا يتلو: ﴿ &&& ﴾ [الحديد ١٦/٥٦] فلما سمعها قال: "بلى يا رب قد آن" فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها جماعة، فقال بعضهم "نرتحل" وقال بعضهم: "حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا" ففكر فضيل وقال في نفسه: "أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني ها هنا وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام".

ولد بخراسان وقدم الكوفة وهو كبير ثم تعبد وجاور بمكة إلى أن مات بها سنة ١٨٧هـ

وكان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا كثير الحديث عن رسول الله ﷺ شديد الخشية من الله غزير الدمعة حتى كان ابن المبارك يقول: "وأما أورع الناس ففضيل بن عياض" ويقول: "ما

بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من فضيل" ويقول: "إذا نظرت إلى فضيل جدد لي الحزن ومقت نفسي" ثم يبكي.

وقال هارون الرشيد: "ما رأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أورع من فضيل" وعدوه حجة لأهل زمانه، يتحرى الحلال فلا يدخل بطنه غيره، وقال خادمه: "ما رأيت أحدا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته.

تهذيب التهذيب وابن سعد

قاسم بن أصبغ البياني القرطبي محدث الأندلس. صنف كتبا في الحديث والقرآن والآثار والأنساب ولد سنة ٢٤٧ ومات بقرطبة سنة ٣٤٠ هـ.

قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. كان يشبه برسول الله ﷺ وغزا خراسان وتوفي بسمرقند سنة (٥٧) هـ وكان ورعا فاضلا.

ابن سعد ٧: ١٠١ وتهذيب التهذيب ٨: ٣٦١

أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأحد صناديد قريش ومن عادى الإسلام أشد العداء، وآذى رسول الله ﷺ الأذية البالغة. وكان منه على المسلمين شر عظيم.

الليث بن سعد هو إمام المصريين وفقيههم ومفتيهم، حج ورحل إلى العراق لم ير أكمل منه، كان فقيها عربي اللسان يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة لم ير مثله. قيل له: "إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك" فقال: "أو كل ما في صدري في كتبي؟ لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب" وبلغ في العلم والفقه والحديث درجة جعلت الشافعي يقول: "الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به" و "الليث أتبع للأثر من مالك" ومازال أهل مصر يتنقصون عثمان بن عفان حتى حدثهم الليث بفضائله فكفوا. هذا على كرم وافر ونعمة فاشية، ذكر من صحبه في سفر من الإسكندرية: "أن معه ثلاث سفائن، فسفينة فيها مطبخه وسفينة فيها عياله وسفينة فيها أضيافه" وكان دخله كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة!! قال عبد الله بن صالح: "صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس" ولد سنة ٩٤ ومات سنة ١٧٥هـ.

مالك بن أنس الإمام الكبير إمام دار الهجرة وأحد أعلام الإسلام، ينتهي نسبه إلى حمير، كان محدثا فقيها ثقة حجة مأمونا وهو أول من وضع نقد الرجال، وتخرج به الإمام الشافعي. لم يكن بعد التابعين أنبل منه ولا أجل ولا أوثق ولا آمن على الحديث ولا أقل رواية عن الضعفاء، مع دين وتقوى وورع وصلابة وقد ضربه بعض الولاة لأنه لم يجز طلاق المكره، ومناقبه ذائعة مشهورة، وأفردت سيرته بالتصنيف، وهو ثالث الأئمة الأربعة في كثرة الأتباع. قال الشافعي: "مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين" ولد سنة ٩٣ هـ ومات سنة ١٧٩ هـ عن خمس وثمانين سنة ودفن بالبقيع.

محمد بي أبي بكر الصديق ولد سنة عشر من الهجرة في حجة الوداع، وتربى في بيت علي بن أبي طالب زوج أمه بعد أبيه، وكان في جيش علي يوم الجمل، ثم ولاه علي مصر بعد رجوعه من صفين فدخلها سنة ٣٧ هـ.

ولما ولي معاوية بعث عمرو بن العاص في جيوش الشام ليملك مصر، فجرى بين جيوش الشام وجيش محمد بن أبي بكر قتال انتهى بانهزام المصريين وقتل محمد. كان عابدا مجتهدا وكان علي يكثر الثناء عليه.

محمد بن جرير الطبري أحد أئمة التاريخ والتفسير. ولد في آمل بطبرستان سنة (٢٢٤هـ) وتوفي ببغداد سنة (٣١٠هـ) وهو أوثق من نقل التاريخ، وتفسيره من أوسع التفاسير وأغزرها علما وتحقيقا. كان مجتهدا في أحكام الدين لم يقلد غيره وتبعه على مذهبه جماعة ثم انقرض. صنف في خلاف الفقهاء وفي القراءات، وأكثر ما يشتهر بكتابه التاريخي الضخم (أخبار الرسل والملوك) المعروف بتاريخ الطبري وهو في ١٣ مجلدا وتفسيره الواسع: (جامع البيان في تفسير القرآن) المعروف بتفسير الطبري وهو في ٣١ جزءا.

محمد بن سعيد بن السري[1] أبو عبد الله الأموي الحرار من أهل قرطبة رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخه ثم رجع وصنف المؤلفات المفيدة. "امتحن في العصبية مع محمد بن أبي عامر وأخرجه عن قرطبة ثم عاد إليها. وكانت العامة تعظمه، قتلته البربر يوم دخولهم قرطبة وقد كان استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم: "إلي لي يا حطب النار، طوبى لي إن كنت من قتلاكم" حتى قتلوه رحمه الله يوم الإثنين لست من شوال سنة ٤٠٣ هـ.

(١) في الأصل: محمد بن سعيد بن سات ولم نجد لهذا الاسم ترجمة، وقد يحتمل أن يكون سات محرفة عن السري فأثبتنا ترجمته. غير جازمين بأنه هو كما ترجمنا فيما بعد لمحمد بن سعيد بن نبات للاحتمال نفسه.

الصلة رقم ١٠٣٦

محمد بن سعيد[٢] أبو عبد الله بن عمر بن نبات شيخ من شيوخ الحديث دين ورع فاضل زاهد، صحب الشيوخ وأكثر من الإفادة، مات سنة ٤٢٩ هـ عن سن عالية بلغت ثلاثا وتسعين بغية الملتمس رقم ١٣ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم الترجمة ١٧١٠

محمد بن الطيب الباقلاني (انظر: الباقلاني)

محمد بن العباس البغدادي إمام حافظ محدث بارع ثقة مأمون، أحسن الناس قراءة للحديث، خلف ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا أكثرها بخطه. وكان غاية في الضبط حجة في النقل. لم يزل يسمع إلى أن مات سنة ٣٨٤ هـ وعاش بضعا وستين سنة.

أبو محمد بن العربي عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري من أهل إشبيلية. ولد سنة ٤٣٥ هـ وسمع ببلده من شيوخها ثم بقرطبة أيضا. حج سنة ٨٥ وسمع بالشام والعراق والحجاز ومصر. وكان من أهل الآداب الواسعة واللغة والبراعة والذكاء والتقدم في معرفة الخبر والشعر والافتنان بالعلوم وبجمعها. كاتب بليغ فصيح يقظ من أهل الصيانة والجلالة. توفي منصرفه من الشرق، بمصر سنة ٤٩٣ هـ.

الصلة رقم: ٦٣٠

محمد بن المثنى أبو موسى العنزي البصري. حافظ ثبت حجة مارئي بالبصرة أثبت منه، صالح الحديث صدوق، احتج الأئمة بحديثه. ولد سنة ١٦٧ ومات سنة ٢٥٢ هـ

تذكرة الحفاظ ٢: ٨٦ تهذيب التهذيب ٩: ٤٢٥

أبو مروان ابن حيان حيان بن خلف.. ابن حيان مولى بني أمية من أهل قرطبة وصاحب تاريخها. كان بارعا بالآداب والأخبار فصيح اللسان بليغ العبارة صدوقا. وهو حامل لواء التاريخ بالأندلس كلها وأحسن الناس نظما له، قوي المعرفة، حسن التحري وكان لا يتعمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه من النصوص والأخبار بلغ سنا عالية وتوفي سنة ٤٦٩ هـ وقد نيف على التسعين.

الصلة رقم ٣٤٢

(٢) ترجمنا لمحمد بن سعيد بن نبات هنا لظننا أنه أقرب اسم يجوز أن يحرف عن محمد بن سعيد بن سات. وانظر أيضا ترجمة محمد بن سعيد بن السري.

مسروق بن الأجدع أبوه الأجدع بن مالك أفرس فارس باليمن

ومسروق تابعي لقي الصحابة وروى عنهم وهو محدث ثقة صالح، وكان "أعلم بالفتوى من شريح وشريح أعلم بالقضاء".

حج فلم ينم إلا ساجدا، وكان من عباد أهل الكوفة، كثير الاجتهاد في العبادة ذكرت امرأته أنه كان يصلي حتى تورمت قدماه. قاتل يوم القادسية فشلت يده. مات سنة ٦٣ هـ وله من العمر ثلاث وستون سنة.

مسعر بن كدام أحد أعلام الكوفة في الحديث جم الأدب كثير التثبت ثقة مأمون. شهد هشام بن عروة بأنه لم يقدم عليهم من العراق أفضل منه. وكان يسمى المصحف لجودة حفظه وقلة خطئه. ولم يسمع حديثا قط إلا في المسجد الجامع، وكانت له أم عابدة فكان يحمل لبدا ويمشي معها حتى يدخلا المسجد، فيبسط لها اللبد فتقوم فتصلي ويتقدم هو إلى مقدم المسجد فيصلي ثم يقعد فيجتمع إليه من يريد فيحدثهم ثم ينصرف إلى أمه فيحمل لبدها وينصرف معها، ولم يكن له مأوى إلا منزله والمسجد.

كان الثوري يقول: "كنا إذا اختلفنا في شيء سألنا عنه مسعرا" وقال وكيع: "شك مسعر كيقين غيره". دعاه مرة أبو جعفر المنصور ليوليه فقال له: "إن أهلي يقولن لي: لا نرضى اشتراءك في شيء بدرهمين وأنت توليني!؟" فأعفاه وكان لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن، وفيه يقول ابن المبارك من أبيات:

من كان ملتمسا جليا صالحا فليأت حلقة مسعر بن كدام

روى عن مئة شيخ لم يرو عنهم سفيان الثوري.

مات مسعر والمحدثون يرونه من خيارهم. ومع هذا لم يشهد سفيان جنازته لأنه كان مرجئا توفي بالكوفة سنة ١٥٥ في خلافة المنصور.

ابن سعد وتهذيب التهذيب

مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار الشنتريني. من أهل قرطبة.

روى عنه أحد العلماء هذا البيت:

نافس المحسن في إحسانه فسيكفيك مسيئا عمله

وقال فيه: "لم يزل أبو الخيار هذا طالبا متواضعا عالما متعلما إلى أن لقي الله عز وجل على هذه الحال".

وكان داوودي المذهب يقول بالظاهر، ولا يرى التقليد.

توفي سنة ٤٢٦ هـ.

الصلة رقم ١٢٣٨

وبغية الملتمس رقم ١٣٦١

مسلم بن الحجاج هو الإمام مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري، الحافظ الكبير من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور سنة (٢٠٤) هـ ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق. وتوفي بظاهر نيسابور. وقد ألف مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله أهمها صحيح المشهور المعتمد عند أهل السنة.

الأعلام

مسلم بن عقبة المري، قائد من الشجعان الدهاة. أدرك النبي ﷺ وشهد صفين مع معاوية. وولاه يزيد قيادة الجيش الذي أرسله لتأديب أهل المدينة، فغزاها وأباحها بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة في وقعة الحرة.

وتوجه إلى مكة فمات في الطريق.

مصعب بن عمير.. ابن هاشم بن عبد مناف، من فتيان قريش في الجاهلية وأحد السابقين إلى الإسلام، والذين خرجوا في سبيله عن دنياهم ونعمتهم، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا، وحمل اللواء يوم أحد فقتل شهيدا.

معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ. أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة وشهد بدرا والعقبة والمشاهد وهو أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، وكان أعلم الصحابة بالحلال والحرام. ومن قول عمر بن الخطاب فيه: "عجزت النساء أن تلدن مثل معاذ، لولا معاذ هلك عمر" مات سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وهو ابن أربع وثلاثين.

معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية. وباني الملك العربي. أسلم يوم الفتح ولبث أميرا في الشام عشرين سنة وعشرين سنة خليفة. وعقله ودهاؤه وحسن إدارته وسياسته...

مضرب الأمثال. مات سنة (٦٠) وهو ابن ست وثمانين.

معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. ولد على عهد النبي و لم يحفظ عنه.

واستشهد بإفريقية زمن عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ في غزوة غزاها مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

أسد الغابة ٤: ٢١٠

المعتمر بن سليمان أبو محمد التيمي، محدث البصرة في عصره، حافظ ثقة، روى عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل وألف في المغازي.

ولد سنة ١٠٦ هـ ومات سنة ١٨٧ هـ.

الأعلام

المغيرة بن شعبة ولد في الطائف، وأسلم سنة خمس، وشهد مع رسول الله ﷺ الخندق وغيرها. ثم حضر فتوح الشام، وفقد عينه في اليرموك.

ولاه عمر البصرة وعزله ثم ولاه الكوفة فبقي عليها صدرا من خلافة عثمان ثم عزله. واعتزل الفتن حتى إذا هدأت ولاه معاوية الكوفة فلم يزل عليها حتى مات سنة ٥٠ هـ

وهو أحد دهاة العرب المشهورين

المقداد بن الأسود صحابي من السابقين إلى الإسلام وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة. وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها ومات سنة ٣٣ هـ عن سبعين عاما.

مكي بن أبي طالب أبو محمد القيسي مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ. أصله من القيروان وانتقل إلى الأندلس، وسكن قرطبة وهو من أهل التبحر في العلوم خصوصا القرآن كثير التصنيف والتصانيف عاش اثنتين وثمانين سنة، ورحل غير مرة وحج وجاور، وتوسع في الرواية وبعد صيته وقصده الناس من النواحي لعلمه ودينه وولي خطابة قرطبة لأبي الحزم جهور، وكان مشهورا بالصلاح وإجابة الدعوة، حسن الفهم

والخلق، جيد الدين والعقل. وحج أربع حجج متوالية، ثم رجع من مكة إلى مصر ثم إلى القيروان، ثم ارتحل إلى الأندلس، ثم صنف التصانيف الكثيرة منها: (الهداية إلى بلوغ النهاية) في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه وهو سبعون جزءا، و (كتاب التبصرة في القراءات) في خمسة أجزاء وهو من أشهر تآليفه. و (كتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره) عشرة أجزاء، وكتاب (مشكل المعاني والتفسير) خمسة عشر جزءا. ومصنفاته تفوت العد كثرة، ومن نظمه قوله من قصيدة:

عليك بإقلال الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يسأم دائما ويطلب بالأيدي إذا هو أمسكا

وتوفي سنة ٤٣٧ هـ

شذرات الذهب: ٣: ٢٦٠

منصور بن المعتمر أحد أعلام الكوفة في الحديث والعبادة والزهد. كان لا يروي إلا عن ثقة حتى قالوا فيه: "إذا حدثك عن منصور ثقة فقد ملأت يديك ولا تريد غيره" وجعلوه من أثبت أهل الكوفة. وقال الثوري: "ما بالكوفة آمن على الحديث من منصور". أكره على القضاء شهرين. وكان قد عمش من البكاء وصام ستين سنة وقامها، وقالت فتاة لأبيها: "يا أبت الأسطوانة التي كانت في دار منصور ما فعلت؟" قال: "يا بنية ذاك منصور يصلي بالليل فمات.." وكانت له خرقة ينشف بها عينيه.

توفي منصور في آخر سنة ١٣٢ هـ.

المهلب بن أبي صفرة أبو سعيد البصري تابعي أدرك الصحابة وروى عنهم. نزل أبوه البصرة وبها نشأ ولده. وهو الأمير صاحب حروب الأزارقة وأخباره معهم كثيرة مشهورة ولي خراسان من قبل الحجاج تسع سنين. وكان أشجع الناس، حمى البصرة من الخوارج بعد أن جلا عنها من أهلها من كانت به قوة.

ولد عام الفتح ومات سنة ٨٣ هـ وله ست وسبعون سنة.

أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس. هاجر إلى الحبشة ثم قدم المدينة. وولاه رسول الله على زبيد وعدن. ثم استعمله عمر على الكوفة ثم البصرة. وتولى الكوفة لعثمان وفتح على يديه عدة أمصار. ثم كان أحد الحكمين في صفين.

كان عالما فقيها نشر علمه في أهل البصرة، وكان من القراء للقرآن، توفي بين سنتي ٤٢ – ٥٣ هـ

موسى بن عقبة الأسدي مولى آل الزبير. محدث ثقة ثبت كثير الحديث. وكان مالك يقول: "عليكم بمغازي موسى ابن عقبة فإنها أصح المغازي وإنه ثقة".

ولم يكن بالمدينة أعلم بالمغازي منه، وكان يفتي.

مات سنة ١٤١ هـ.

تهذيب التهذيب ١٠: ٣٦١

النعمان بن عدي صحابي من مهاجرة الحبشة، ولاه عمر ميسان ثم بلغه عنه شعر قاله في الشراب فعزله

الإصابة

أم هانئ بنت أبي طالب، اسمها فاختة، وقيل هند، وهي شقيقة الإمام علي وإخوته. وقد خطبها رسول الله ﷺ ولم يتزوجها روت الحديث عن رسول الله ﷺ ورواه عنها جماعة. أسلمت يوم الفتح وماتت في خلافة معاوية.

أبو هريرة كان في الجاهلية يتيما من الضعفاء. فلما كان الإسلام قدم المدينة وأسلم سنة سبع ولزم صحبة النبي ﷺ لم يفارقه. ولذا كان أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله ﷺ استعمله عمر على البحرين، واستخلفه مروان على المدينة. وبها توفي عام ٥٩ هـ.

وكيع هو ابن الجراح الكوفي، ثقة مأمون رفيع القدر كثير الحديث حجة، وكانت إليه الرحلة في زمانه، لم ير في زمانه أحفظ منه للحديث، حتى كان يقول إسحاق بن راهويه أحد الحفاظ المحدثين المكثرين: "كان حفظ وكيع طبعا وحفظنا بتكلف" ، ذكر من صاحبه في الحضر والسفر أنه كان يصوم الدهر ويختم كل ليلة، وجالسه رجل سبع سنين فما رآه بزق ولا مس حصاة ولا تحرك من مجلسه إلا مستقبل القبلة، وما حلف بالله العظيم قط،

وكان يؤتى بطعامه ولباسه ولا يسأل عن شيء ولا يطلب شيئا. وقد فضلوه على الثـــوري والشافعي وابن المبارك في الحديث. ومن قوله: "دواء الحفظ ترك المعاصي ما جربـــت مثلـــه للحفظ" قال مروان بن محمد: "ما وصف لي أحد إلا رأيته دون الصفة، إلا وكيع فإني رأيتـــه فوق ما وصف لي" وكان أحمد بن حنبل يقول: "عليكم بمصنفات وكيع" ولما حج انفضـــت حلقات المحدثين بمكة كلها، وانجفل الناس إليه يسمعون حديثه، وأصحاب الحلقات يومئـــذ هم أكابر المحدثين.

ولد سنة ١٢٨ هـــ ومات منصرفه من الحج في المحرم سنة ١٩٧ هـــ.

ابن سعد وتهذيب التهذيب

أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن سعيد الباجي الأندلسي المالكي ولـــد ســـنة ٤٠٣ هـــ ومات سنة ٤٧٤هـــ؛ فقيه كبير من رجال الحديث. أصله من بطليوس ومولـــده في (باجة) في الأندلس. ورحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦هـــ فمكث ثلاثة أعوام، وأقام ببغـــداد ثلاثة أعوام، وبالموصل عاما، وفي دمشق وحلب مدة، وعاد إلى الأندلس، فولي القضـــاء في بعض أنحائها وتوفي بالمرية. من كتبه (السراج في علم الحجـــاج) و (أحكـــام الأصـــول) و (الحدود) و (الإشارة) في أصول الفقه و (فرق الفقهاء) و (المنتقى "مخطوط") كبير في شـــرح موطأ مالك و (شرح المدونة) و (التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح)

الأعلام

يحيى أبن مسعود أبو بكر بن عبد الرحمن بن مسعود بن موسى يعرف بابن وجه الجنـــة، من أهل قرطبة ولد سنة ٣٠٤ هـــ.

أخذ عن شيوخ بلده وكان رجلا صالحا عدلا، عمر عمرا طويلا، وحدث عنه جماعة من العلماء.. توفي سنة ٤٠٢ هـــ.

الصلة رقم ١٣٤١

يوسف بن عبد الله أبو عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الإمام الحافظ الحجة صاحب التصانيف المشهورة في الحديث والرجال. سمع من كثيرين، وأخذ عنه كثـــيرون، لم يعرف في الأندلس أحفظ منه ولا مثله في الفقه والحديث. ومن كتبه المشهورة جدا: كتـــاب

(الاستيعاب) وهو مطبوع في مجلدين "وكان موفقا في التأليف معانا عليه ونفع الله بتآليفه" جلا عن وطنه قرطبة إلى الغرب مدة وولي قضاء لشبونة وشنترين، ثم تحول إلى شرق الأندلس، وسكن منه دانية وبلنسية وشاطبة، وبها مات سنة ٤٦٣ هـ وقد نيف على المئة[1] وترك تواليف جامعة كثيرة الفائدة في الفقه والسير والحديث ولقب بحافظ المغرب.

الأعلام والصلة رقم : ١٣٨٦

يونس بن عبد الله القاضي أبو الوليد ويعرف بابن الصفار، قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها. ولد سنة ٣٣٨ هـ. سمع من كثيرين في بلده وكتب إليه بعض علماء المشرق. ولي القضاء أول أمره ببطليوس، ثم ولي خطة الشورى، ثم كانت له أحكام القضاء والخطبة والصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة مع الوزارة. كان كثير الراوية، من أهل العلم بالفقه والحديث، مع حظ وافر من العربية، وطبع جيد في الشعر يقوله في معاني الزهد، بليغا في خطبه، كثير الخشوع فيها، لا يكاد يتمالك من سمعه عن البكاء وكان من الخاشعين البكائين القانتين، لازم الصالحين كثيرا وحفظ أخبارهم، وترسم خطاهم، وألف في الزهد والزاهدين كتبا عدة. مات سنة ٤٢٩ هـ.

الصلة رقم ١٣٩٧

أبي بن كعب[1] خزرجي من بني النجار صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود مطلعا على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ، ولما أسلم صار من كتاب الوحي وشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه.

وفيه ورد الحديث: (أقرأ أمتي أبي بن كعب)

توفي سنة ٢١ هـ.

(١) في (الأعلام) للزركلي أنه ولد بقرطبة سنة ٣٦٨ هـ فإن صح هذا يكن مات قبل بلوغه المئة.

(١) فاتنا إثبات ترجمة أبي في مكانها فاستدركناها هنا.

الأعلام

داود بن علي الأصفهاني[1] أبو سليمان، وهو أول من استعمل قـــول الظـــاهر، وأخـــذ بالكتاب والسنة، وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس. وكان فاضلا صادقا ورعا.

توفي سنة ٢٧٠ هـــ. وعد له ابن النديم في الفهرست فوق ستين ومئة كتاب.

الفهرست

(١) ترجمنا خطأ لداود بن علي بن عبد الله بن العباس مكان الأصفهاني هذا.